

من إحدى الزوايا

يحيى حقي



هذا العدد..

شبكة أربابها أن تخرج من البحر بما تشتهي النفس ، فخرجت كما تخرج كل الشباك : شيء أرادته الصائد ، وشيء أرادته الشبكة ، أو أرادته الصدفة ، أو أرادته المقادير . تلك هي العدد الذي بين يديك . كان عامله أن يدل دلالة دقيقة على ملامح القصة العربية اليوم ، لكنه وقف فوق الغاية . لأنه تعرض لما يتعرض له كل عمل يعتمد على انتظام مبادئة الآخرين ، وتيسر المطلوب منهم . يقبل واحد ، ويعتذر الآخر . ثم لا تناس للذي يقبل من تحكيم قوته . فكان لابد من نقص : أن لا يفي العدد بتمثيل كل أقطار العربية ، وأن لا يكون المنشور أصبق في التمثيل من غير المنشور . على أن أرجو للسماحة أن تغلبك ، فتتظر في جلالة الملمح حتى تهون عليك المثالب . لم نعتد نحن عمل المختارات . عندنا طائفة منها ، ولكن عنايتنا بها دون عناية القريبين ، مع أن أسلافنا انتبهوا إلى خطرهما من قديم ، في الشعر والنثر ، فتبعناهم في حاقرننا ، إلا أننا اهتممنا بعض الاهتمام بالشعر وانصرفنا عن النثر ، ولم تحفنا غلبة القصة في العصر الحديث واتساع مذاهبها على تجميع طوائف منها لمختلف الأغراض . فكان هذا المدد أول محاولة عندنا ، في تجميعه لنماذج من القصة العربية . أقول عندنا لأن الغرب - وأعجب لهذا - قد سبقنا إليها . فهل يشعرونا هذا التجميع بالحاجة إلى المختارات الثرية ؟ وبالحاجة أيضا إلى مجلة للمجلات العربية نشهد فيها وجه التطور والتنوع في آدابنا ؟ عسى أن يفعل .

تعال الآن نلقي نظرة على العدد نسأله بها ماذا يقول لنا بعيدا عن تلك الغاية التي قصد إليها :

١ - اضطررنا في قصة عراقية أن نترجم الحوار العامي إلى الفصحى حتى يفهمه غير العراقيين . فإذا كنا أبناء أمة واحدة ، وأدب واحد ، ولغة واحدة ، فكيف يجوز أن يترجم بعضنا لبعض ؟! لقد آن لتلك القضية التي عاشت بيننا زمنا طويلا ، قضية التنازع بين العاميات والفصحى ، أن تبلغ مستقرها . أننا لم نعط هذه اللغة القديرة التي يلهم عنها كل ناطق بالعربية كي نهملها مختارين إلى دكانات أن لم يعبها غير قصر الذي لما ألقه من عيب . ولعل قلة الائتجاع إلى العاميات - وهذا واضح في العدد - راجعة إلى ضعف فيها عن أداء المطالب المعقدة المتجددة مع الأزمان التي يشغل بها كل أدب عظيم ، أو يريد أن يكون عظيما . أقول أن الفصحى هي القادرة على

الوفاء بتلك المطالب ؟ نعم ، ومن أدلتنا اقبال القصة في العصر الحديث عليها .
فالقصة بطبيعتها هي العرق النابض الذي يغبرنا جسده - أكثر مما يغبرنا الشعر -
عن مقدار طواعية اللغة ، ووفائها - في الماديات والمعنويات - بالحاجات الطارئة ثم
ان كتاب القصة عندنا يقعون كثيرا تحت تأثير موضوعات وأخيلة مستقاة من الأدب
الغربي . فإذا أضفت الى هذا استخدام مترجمينا دائما او غالبا للفصحى في نقلهم
للقصص الأجنبية علمت أن فصاحتنا ساعية إجد السعى الى ادراك غاية تنقطع دونها
انفاس جميع العاميات .

٢ - هناك رغبة في التجديد توشك ان تكون شهوة جامعة ، والتجديد في ذاته
لا بأس به ، فهو حاجة لا بد للنفوس الحية الناهضة من استعمارها . ولذلك فهو غرض
نيل . أما اشتها التجديد فهي آخر . أنت هنا لا تستجيب لطبيعة الموضوع ،
ولا لجدة احساسك بالاشياء ، بل لهوى قشري ، يلقي بك في أسر الارتجال ، ويبقى
عملك قائما في فراغ ، ويعرضك خطر البراعة الخاوية : أن يعمل اللحن ويعمل القلب
ساكن والصدق غائب . هذا التجديد واضط في الشار الرمز ، وربما كان ظاهرة
مرحلية ، كما بدأ في نمو الاتجاه الى وصف الأشياء وصفا دقيقا . ونحن في هذا
مقتدون لا رواد . فهل عن انسياق مع تيار غربي حديث ، أو عن رغبة في اكتشاف
العالم برؤية جديدة ؟

٣ - غلبت على الهموم التي يعالجها الكتاب مشاكل المعيشة . فهل نحمد هذه
« الواقعية » أو نراها نظرا قائما بالتلفت حوله ، عازلا لسبب ما عن استشراف
الآفاق ، والاستشغال بما هو فوق ، أي بالميتافيزيقا ؟ ودعك من أول وقع للكلمة في
نفسك . فانا أعني بها كل موضوع يتخرد عن أسرار الواقع الراهن سعيًا الى الواقع
الماضي . صحيح انك تستطيع أن تلمس ميلا . استشراف الحقائق الأساسية التي
تمثل وجدان الأمة ، ولكنه لا يزال في مرحلته الأولى . لا يزال الاهتمام بالفرد الذي
هو هذا أو ذاك دون الاهتمام بالفرد العام ان صبح التعبير . ولعل هذا الإشعار هو
السبب في تظلم حمة الخلافات المذهبية (السياسية) بين اليمن واليسار .

٤ - ننتبه الآن ونحن نوشك أن ننهى قراءة العدد الى غرض آخر حققه عرضا :
الجمع بين طائفة من الأدباء العرب في مكان واحد .
ينبغي التوسيم في العمل على التقاء بعضنا بعض ، فنعود الى تلك السنة الخصبة
القديمة ، حينما كان الرجل يقطم ألفيافي على قعبه لكي يقبس من رجل آخر بعض
علمه أو أدبه . ما أجودنا في هذا العصر - وقد تهافت بالوسائل - الى تجسيد ذلك
العرف القديم .

نشكر المجلة كل من أسهم في إخراج العدد ، وتعد بنشر ما تغلف عنه في أعداد
قادمة ، وتأمل أن يلقي عناية التقاد . ان النتائج التي أسفر عنها هذا الاختيار
والجميع جديرة بالبحث . والمجلة تعتبر كل دراسة تأتيها عن العدد مكملة له ،
لازمة في تحقيق الغاية منه .

الغراب

حملت الفانوس عالياً بيدها اليسرى ونزلت
درجات السلم المظلم وهي تنصت الى همهمة أمها
الغامضة • كان ضوءه ضعيفاً ورائحة النفط
تنبعث قوية منه • ملأته قبل دقائق ، حين عزم
أمها على الانصراف أخيراً • لم تعد هناك فائدة
من الالتاح عليها • انها لا تستطيع فراق حمودى
ليلة واحدة • سمعتها •

عيني نجوة شوية على كيفج • يا الله • شوية
على كيفج عيني أنت (١) •

كان صوتها رقيقاً حنوناً لا يلائم ضخامة
جسمها وثقل حركاتها • لم تجبها وتوقفت قليلاً
وهي تقرب الفانوس من موطئ قدم الأم • كانت
أنفاسها ثقيلة مسموعة وهي تسحبها بشمقة من
صدرها العريض • قالت لها - لو باقية عندي
ها ليلة يا يوم • شيصصير • دشوفيني آخر
بها الحال (٢) •

أجابتها أمها وهي تضع يداً فوق كتفها •
- شواكع ييدى يا عيني يا نجوة • اللهم
يا أرحم الراحمين • هذا أخرج واكع فد نوبه
وينرادله مداراه ليل نهار • والا آنى أجوز منج
يا عيني • يا الله • يا محمد (٣) •

لا جدوى من الاصرار • لن تبقى بعيدة عن
ذلك الطفل الكبير حمودى • وعليها أن تبيت
وحيدة فى غرفتها ليلة أخرى • قالت لأمها :
- ديري بالج يوم • هاى الدرجة شوية عالية •
حوشلون بيت مصخم • تاليها حظى خلانى أكعد
نزل بكية (٤) •

أجابتها الأم بين أنفاسها المتقطعة •
- ميخالف عيني نجوة • جم يوم وتنكشى •
ميخالف •• ميخالف • يا ربي عليك (٥) •



بقلم: فؤاد التكرلى

ولاد التكرلي

- من مواليد بغداد عام ١٩٢٧
- حاصل على ليسانس الحقوق - تخصص سستين لي جامعة باريس .
- يعمل حاكما في محاكم العراق المدنية .
- صدرت له مجموعة « الوجه الآخر » من منشورات الثقافة الجديدة ، ١٩٦٠ .



• مع السلامة يوم • سلمى لي على حمودي •
عنده العافية • شفايتلي لو جنت يممكم (١٣)

كانت أمها قد ابتعدت بأنفاسها الثقيلة ، ولم يستطع نور الفانوس الأحمر أن يفرق ظلمة الدرب عن عبادتها السوداء • بقيت تستمع الى وقع أقدامها الخفيف وهي ذاهلة • لم تملك المرأة الكافية لتخبرها ، ولعلها لو فعلت لبقيت أمها معها ولدنت عنها شر الوحدة • كان الدرب ضيقا لا تتمكن على جفوانه أية ظلال • لم يعد بوسعها سماع حركات أمها لاستدارت ودخلت •

كان الجو باردا والهواء يسلم أنفها وأذنيها • سارت متجهة نحو السلم وهي لا تحاول تهدئة ضربات قبقابها على الأرض فخيّل إليها أنها ترى شخصا يقف وراء الحجر • رفعت الفانوس وهتفت :

• منو هاي ؟؟ (١٤) •

ثم ميزت ابتنتها الصغيرة •

• ولج حمّدية ، ليش طالمّة برة بهالبرد ؟ (١٥) •

... فأنها صوت ضعيف •

• ستر كام ييجي يوم (١٦) •

• زين جيت • خشي للحجرة ولج بالمجل (١٧) •

ثم أسرع في سيرها وارتقت الدرجات الخربة •

نام ستر فاحكمت تغليته بالحاف والبطانية ثم جلست قرب السرير تمتريح • لم

سارتا تخرقان بأحة الدار المظلمة متجهتين نحو الباب الخارجي • كان قبقابها يطرق الأرض الحجرية الصلدة طرقات شديدة وتعال الأم تحسبها من بعدها • سالتها أمها •

• أشو ماكو أحد جوه عيني نجوبة ؟؟ (٦) •

فقال متلزمة

• هاي الغرفة فارغة ، وأهل هيا الحجرة مسالرين ، وهذوله يتأمون من ركت • ورا وقان المشا (٧) •

ثم وجدت نفسها تقول رغبا عنها :
ها ليلة يس • ما أدري شيصير بي آني وهذوله الأطفال (٨) •

فاجابها الصوت الخنون •

• لا تحجين هيجي حجى خاطر الله • شكو عليكم • منو يكل ما يرجع بعد شوية ؟ رجال كل شي يصير له • ليلة واحدة ما رجم للبيت ، قابل كل ليلة ؟؟ أتوكلي على الله عيني • وهاذي فضيلة يمج نفس • أحسن من الماكو (٩) •

• ليش هي وينها حالفضيلة الحير (١٠) •

• ترجع عيني ، غير عند أهلها ؟ وين تروح قابل ؟ ساعة ساعتين وتصير يمج • (١١) •

فتحت الباب الخشبي الكبير دون كلام وأنارت لها الطريق •

رأتها تسرع في حركاتها كأنها تحاول التخلص منها بأقرب وقت • مرت بجوارها •

• مسلم عليح عيني نجوبة • دخشي أخشاف باردة عليح • آني أشوف دربي • لا يظل بالبح عيني (١٢) •

- كومي نامى خاطر احبى لج حياية (٢٢)
 فرغبت المصغرة رأسها . رات في عينيهما
 الفامقتين تسأولا وقضولا .
 - ما الالم .
 ثم اردت بعد لحظات .
 - يا حياية تحجبل ؟؟ (٢٣)
 فقامت اليها ثم أمسكت بيدها وقادتها الى
 فراشها .
 - كومي . احبى لج سالوة السملوة
 والغراب (٢٤) .

ادخلتها تحت اللحاف وجلست على حافة
 السرير تراقبها وهي تستقر في ضجعتها . كانت
 مدودة الوجه بعينين سوداوين صغيرتين وشعر
 طويل في مثل سواد عينيهما . سكنت بعد لحظات
 ووجهت بصرها نحو أمها بانتظار حكايتها .
 كان الضوء بعيدا عنهما فوق الباب ، والفراش
 ناعما مريحا ، وكانت تحس بارهاق النهار يضغط
 على جسمها ويثبت فيه الرخاوة . لو لم تتصرف
 تلك العاهرة فضيلة الى بيت أهلها ، لأمكنها أن
 تعود وتقال بعض الراحة . ولكن ، كيف يمكن
 أن تعود ؟؟ تلك العاهرة ، تلك العاهرة .

سمعت حميدة .
 - بالله يوم . احبى عاد . لويس صافنة
 عبيي ؟ (٢٥)

فأستجبت فكرها لتتذكر بداية الحكاية
 - أي يوم ، أي (٢٦)
 ثم أخذت تربت على ظهر ابنتها وهي تتكلم
 بصوت لين .

- جان ماجان ، الله ينصر السلطان قد غراب
 صغير كلش اسود . هذا الغراب ما جان أحد
 يحبه من الغراب بضاية هو اسود هواية .
 حنينه أمه وأبوه كالو له قد يوم ؟ يا ولد
 يا غراب الاسود كلش ، روح شوف لك عيشة
 بغير هالديرية . انت جماعة الغراب ما يردون
 يشوفوك ؟ كال لهم ، يا يوم ويأباب ، عدلو
 بدلو . انتو والجماعة هم سود مثل والله ما يرضى
 تسوون وباية هالسواية ، شسلون اعيش وين
 أكل وين أشرب .

ارتفع صوت حميدة تقاطعها .
 - يوم ليش الغراب تحجى ؟ (٢٧)
 فاستانت وشددت من ضرباتها الرتيبة على
 ظهر ابنتها
 - نامى عد ولج . ليش الغراب مو خلقه
 ربنا ؟ ليش ما تحجى ؟ (٢٨)

يسكت خلال الساعة الأخيرة وليث يصرخ بكل
 قوته حتى خيل اليها أن حنجروته ستنفجر .
 ولكنه نام أخيرا ليتحرك أعظام جسمها وتلمسها
 كلها . ما جدوى كل هذا الارهاق ، وماذا يمكن
 أن تترجى من ستر حين يكرى ؟؟ كلهم سواسية ،
 كلهم سواسية تهتلت بصوت ناعم ثم انتهت الى
 الستائر تهتز هزات خفيفة . كانت الغرفة دافئة
 منذ ساعة ، لكن الجمرات قد خمدت في المنقلة
 والريح الباردة تكمل من تقوب الشبابك . لغتت
 نظرها حركة من حميدة . كانت متكومة على المنقلة
 كأنها تريد أن تندفأ بالرماد وهي تنظر الى أمها
 بعينين لامعتين . سألها .

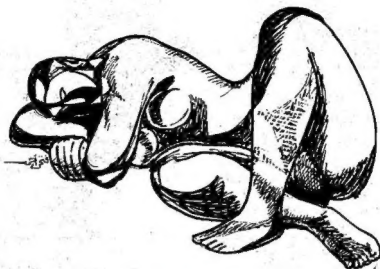
- لويس ماتكومين تسامين ؟؟ فات الوكت
 ولج والجمعر خمد (١٨) .
 - ما نام . بعد وكت (١٩) .
 - طبع مرض . مسالى خلك اليوم اثنين
 الاثنين (٢٠) .

فاخفضت الصغيرة عينيهما وأخذت تعبت
 بالرماد .

شعرت بارتياح لرفض ابنتها النوم . كانت
 تتحاشى البقاء وحيدة ، ولقد أخبرتها أمها بذلك
 إلا أن هذه لم تستجب لها . وكان بقاء حميدة
 مستيقظة يعنى أنها لن تعاني خوفا شديدا .
 هكذا كانت منذ طفولتها ، وأمها تعلم هذا .
 لكنها لم تفهم الى أمها بحقيقة الأمر ، وهي
 لا تعلم علم اليقين ما هي هذه الحقيقة . وحصل
 يمكن أن تفهم . هناك أشياء غير معتادة لا يسهل
 الحديث عنها . وكانت أمها ، فوق ذلك ، تتعاضى
 كي تستطيع الرجوع الى البيت . لماذا لم تسلمها
 بالحاح عن أسباب غيبته يومين متتاليين ؟ لقد
 تعامت وتقسابت لتتمكن من العودة سريعا الى
 حمودي ، ابنها المريض . تركتها هكذا منفردة
 مع أطفالها دون أن تتردد . حتى تلك المرأة
 فضيلة لم تعد الى غرفتها . وكان هذا معا يريد
 وطأة الخوف عليها . . أن تشعر أن الفسقة
 المجاورة خالية وأنها وحدها في الطابق الثاني
 كله . كيف يمكن أن تعود بعد كل ما حدث ؟؟
 تلك المرأة الفاجرة زوجة أخيه .

نظرت الى حميدة . لم تول تعبت برماد
 المنقلة دون أن يصدر عنها صوت . كان السكون
 متكاملا حولها ، سكون الغرفة وسكون العالم
 من حولها . وكانت تحس اضطرابا خفيا مجهول
 الأساس . كلمت ابنتها .

- لا تعبين بالرماد ولج . مو بتولين جواج
 ترة . شوكت راح تسامين ؟ (٢١) .
 فلم تجيبها حميدة ، فاستمرت تحدثها .



— لا يوم ، بعد ما أسوى شي (٣٥)

وساد بينهما صمت شمل القسرة . ليس هناك مثل قلب الإله ؛ ولو شغل هو بحنان على ولديه لما تركهما هذه الأيام والليالي دون أن يراعيهما أو يراهما على الأقل . سار بعد تلك الليلة كله خلال ساعات ممدودة . سار بعد تلك الليلة غريبا عنها ، غريبا عن أحيائها وعن هذا العالم بأكمله . كان ذلك بسبب أنها فقيرة شريفة يتيمه الأب . لو عاملته مثل ماتعمل تلك العاهرة فضيلة مع أخيه ، لتبدل مسلكه . تلك العاهرة الرخيصة . لم تعد إلى غرفتها هذه الليلة أيضا لم تعد من زيارتها المزعومة إلى أهلها . سمعت حمديّة تتكلم بصوت خافت —

— يوم ، بعد والله ما أسوى وكاحة (٣٦)

— زين يوم زين . آني يس اريدج تعرفين قدر امج . لو أبوج عنده حنية بكلية ، جنان كال هدولة شصار بيهم . ماتوا احتبوا . لاكت ماكو حنية ولا شفقة . والله ذب كل مصايبه على راسي . ما كفاني الفكر ورزالة الصغار ، هنوبه درده الجير (٣٧)

— يوم ، ليش وينه بابا ؟ (٣٨)

فتملكها غضب مفاجيء . —

— بجهنم ، بالنار الكبره . هو وهذيجي ام . . أعوذ بالله . . اسكت يا حلكي . ولج ليش ماتنا مين وتخلصيني عاد ؟ ما يكفيني كل هالدرد والشكا ؟؟ (٣٩)

لم سكنت برهات قليلة . كانت متعبة ، تود لو تستلقي على فراشها اللين وتستغرق في نوم عميق . لم يبق لها ما تعمل غير هذا ، فالرجل لن يعود هذه الليلة أيضا ، وليس لديها ما تنقلب به على خوفها سوى النوم . ولكن هل يأتيها هينا بدون كوابيس ؟ أحست بأصابع حمديّة تضغط يدها وتحميها

— أي يوم ، تالي ؟ (٣٩)

فعادت إلى حكايتها —

— أي يوم ، وين وصلنا ؟ (٤٠)

فأجابتها ابتها —

— وصلنا لما الغراب الصغير كام يجحي ويره

امه خطية (٤١)

— كال لها . . ليش يا أمي ما عتدج حنية على ؟ آني بعدني صغير ما أفنتهم من الدنيا شي . الا ماية كامت تيجي من هالحجي وكالت له . . ابقه يا ابني ، البيت بيتك والأهل أهلك ، وأحنا شيفيدنا حجي الغسربان ، كلين يشوف إلى يصرف له . لاكت الأب وكف لها سجيئة خاصرة وكام سوالها ذاك الفصل (٤٢)

— يوم ، لويش ؟ هو أبوه ما يجبه للغراب

الصغير خطية ؟ (٤٣)

فنتهت —

— ليش هو كلب الأب مثل كلب الأم ؟ ماكو مثل كلب الأم ولج . خليها بفكرج هالحجاية ولا تعذبيني بعد (٤٤)



فلن تبالي • يكفينا أن يزول ثقل قلبها وإن تعيش
بين بعض الناس •

أغمضت عينها ثم تحركت قليلا فصعد
عن السرير صرير مزعج • سمعت حميدة -

- يوم • يوم (٤٣)

ففتحت عينها -

- شبيح ؟ لويش كعدتي ولج ؟ (٤٤)

- يوم أريد ماي (٤٥)

- أنجي ، مو وكنت ماي • نامي حسه • (٤٦)

واحد يشرب ماي نص الليل ؟ شماكله ؟ (٤٦)

كانت مستيقظة تتلاعب عينها في الوجه
البريء المدور -

- يوم وين راح الغراب الصغير خطية ؟ (٤٧)

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم • • بعده

واكف على الجبل (٤٨)

- يوم ، يا جبل ؟ (٤٩)

- اسكتي • آني اكمل • غمض عيني أول

نوبة (٥٠)

- زين يوم (٥١)

- لمن وكف الغراب الصغير على الجبل الاسود

شاف يبه على الكاع هوايه ديب ، فكام يلكط

وياكل يلكط وياكل الى أن خلصه وشيع فلف

راسه ونام • كعد من الصبح على فد صوت عالي

صيح • • هاذم منو واكف على راسي (٥٢)

رات حميدة فتحت عينها فقالت لها بصوت

ناعم -

- ليش فكيتي عيني ؟ غمض (٥٣)

فلم تجب ورات طابع فزع خفي على وجهها -

- تردين اكمل بأجر ؟ (٥٤)

- لا يوم ، الله يخليج • هاي منبو كام

يصيح ؟ (٥٥)

- هاي السعولة • أثارى الغراب الصغير

جان نايم على راسها (٥٦)

فانكشيت الصغيرة على نفسها ، ورفعت

اللحاف لتغطي قسما من وجهها • اتبعت هي

الى الريح تلعب بالستائر وأحست برجفة بسيطة

في ظهرها • كانت عظامها تؤلمها والتعاس ينقل

أجفانها •

- يوم ، تالي ؟ أكلته السعولة للغراب

خطية ؟

- لا • الغراب صار شاطر كام يتوسل

بيها • حبالها حيايته من الاول للتال • شلون

- والغراب ؟

- ولج يا غراب ؟ (٤٠)

فلم تجيبها الصغيرة ، وسجعتها الهم تنسج
بيكانها المكتوم • قالت :

- سكتي عاد ، لا تتحسنين • انت أكلت

منه (٤١)

ثم عادت الى ضرباتها الرتيبة -

- وين وصلنا ؟ سكتي ، راح اكمل • الغراب

الصغير ما كدر يبغي بالبيت بعد ما طرده أبوه

منه ، فكام لف راسه وطار • ظل يطير ويطير ،

ما يدرى وين يحط رجله • الجوع داسه وكلبه

ساح وهو باقي طائر • فأت النهار وخلص

والشمس أحمرت ، والغراب الصغير آيس من نفسه

وكان يا روي هيجي عيشة ماتنراد • هذيج

الساعة شاف فد جبل اسود كيالة ، كام وكر

عليه وكان ياروحان • • استراح شوية وأبات

الليل هنا والله كريم للصبح • (٤٢)

رات ابتها تفض عينها فسكت • كانت

حميدة تنفس بعمق وانتظام فخت من ضرباتها

أحست بظهرها يؤلمها ، لكنها لم تتحرك خشية

أن توقظ الصغيرة • كانت متعبة تهوم ويكاد

راسها يسقط على صدرها • لا يمكنها أن تبقى

ليلة أخرى هنا • ستأخذ صغيرتها لتذهب الى

بيت أهلها • ليركوها في أحقر حجرة لديهم •

أبوه طرده بصاية هو أسود هوايه وشلون
يقه طايير النهار كله وشلون هو تعبان وجوعان
لاكت السعلوة ما صدكت بحجايته أول نوبـة
وكانت له .. ولك يا غراب البين أسويك علجة
علجيني .. الليل كله ما كدريت أنام ، وأكف انت
على راسي وتنكر بيه يا ظالم . كال لها .. أنى
بن أيديج ، يتيم وما عندى أحد ، وانت كل
ما تفصلين أنى البس ، لاكت ياسعلوة خاتون
ترة أنى ..

— يوم ، ليش هي السعلوة خاتون ؟

— ولج دنامي عاد . لا حول ولا قوة الا بالله
العل العظيم . يا ربى شوكت راح تخلصنى
من هالنسكا ؟ غضى عينج ولج (٥٧)

كان السكون مطلقا ، ثقيلًا على نفسها ، ولم
تكن تدرى أحسن صنعا بأجبياس حميدة على
النوم . عدلت من وضع جسمها واضطجعت قرب
ابنتها متكئة برأسها على راحة يدها . لم تكن
الغرفة دافئة فجذبت حافة اللحاف وغطت به
ساقها . رأت حميدة تقضم عينيها نصف
الغماضة ، فسادت الى التريبت على ظهرها
برفق وبدأت حديثها بصوت متقطع رخيم .

— نامى يوم عاد . أنى حسه اكل الحجابة ،
بس لا تنطين كل ساع . وين وصلنا ؟ ها ، لم
الغراب كام ييجى وبه السعلوة كال لها .. أنى
أكلت الدبيب الى جان يمشى فوق راسج وأنى
ماجنيت انكر راسج . السعلوة هواية أفرحت لى
شافت الغراب ماكل الكمل الى جان مالى راسها
فكالت له .. ألك الراى والامان . وكامت تفخت
عليه وسوت لونه أبيض أبيض مثل الثلج وكانت
له .. روح لاأهلك خلى فرحون بيك . كالت له
روح .. لأهلك خلى فرحون بيك . كام الغراب
.. لف راسه وطار .. (٥٨)

توقفت قليلا عن الحديث وانغمست عينيها .
لم ترد ان تنام فى وضعها ذاك ، لكنها كانت
متراخية الجسم والـلحاف يدفى ساقها بشكل
مريح .

كانت واقفة يفردها ترتجف أمام باب
غرفتها المفتوح . مضت عليها الساعات الطوال
وهي تتطلع الى الضوء الخافت اللعين فى حجرة
فضيلة . كانت الريح باردة تخرق قماش ثوبها
وتنفذ فى لحمها ، ولم تكن تدرى هل سسيقع
لها مرة أخرى ما وقع تلك الليلة .. لم يات فى
وقته المعلوم ونام الصغار ، مثل تلك الليلة .
وكانت فضيلة تقنى ونور غرفتها يتمايل بلين مع
موجات صوتها الداعر . لم تنطق يوما عن غنائها
تلك العاصرة . وما هي الآن تقنى ، مع الريح

والنور ، أغنيات تجذب الرجال . ولم تكن هي
واقفة هل هو معها ، وكان البرد شديدا والـخوف
والآلم يمزقان قلبها . خرجت ، تلك الليلة ،
بنت صافية لتحدثها . ولكنها الآن تعلم ، أنه
مع تلك المرأة وانها ستري الحقيقة المربصة
مرة ثانية . كانت واقفة منذ زمن طويل أمام
باب الغرفة المفتوح بأصـال وهي تزداد ارتجافا
لم يعد لها سند فى حياتها منذ اشتعل الضوء
الشاحب الخبيث فى الغرفة المظلمة . وهي تعلم
انها ستمضى الى ذلك الباب المغلق لتفتحه على
شقائقها . لكنها لا تجد ما تعتذر به . ولسوف
تكون فى وضع مهين ، مثلما حدث ليلة رأتها
أول مرة . لم تصفعهما بأسباب أو مبررات .
هكذا بنت صافية ، أقبلت وفتحت الباب الموارب
أما الآن فقد فارتقتها البتة الصافية وامتلأت أعماق
نفسها بالقلق والخوف والتوجس . لكنها ستمضى
الى ذلك الباب المغلق لتفتحه على شقائقها .
وستعتذر بالغراب الأبيض الضائع الذى أنكره
أهله ومزقوه حين عاد اليهم . ستقول لأولئك
المختفين وراء الباب أن ابنتها حميدة تريد أن
ترى حنة الغراب الصغير المنزعة الأروـال .
وسسارت مثلما سارت ليلتئذ ، مرتجفة

الأطراف تصطك أسنانها ويخذلها ضعف شنيع
فى جسمها . كانت الريح باردة كأنها الواح تلج
على ظهرها ، والضوء فى غرفة فضيلة يتراقص
بمجنون . جاءت مع زوجها ، أخيه ، فى إحدى
الليالى لتسكن جوارهم ولم تهدأ له روح منذ
رأها ، ذلك المجنون المفسور . ذلك المجهول
المتكبر . كان الباب ، مرة أخرى ، مواربا .
لم يجدا الوقت لأقفاله . ووقفت أمامه ، ليلته ، ولم
تدر لماذا وقفت . كانت تهم بالحديث معها
ريشا يعود ، ولم يكن فى ذهنها شىء معين . أما
الآن فانها تفكر بالحديث وكيف تبداء وتستمر
فيه وقتها . وكان عقلها مشوشا مضطربا ، لم
يخطر لها أى قول يمكن أن توجه لها . كانت
ترتجف وترتجف وأصابعها لا تقوى على دفع
الباب ولم تكن لها رغبة فى الدخول . لماذا
ابتقت ليلتئذ ، وماذا ستجنى الآن؟ ماذا ستجنى
من الآلام ؟ وفتح الباب فجأة فهمت بالتكوس .
لكنها بقيت تنظر اليهما بعينين مبهورتين . لم
يشعرا بها تراقبهما . كانا عارين بشكل فظيع
وهما يعملان عمل الحيوانات . عمل الكلاب ،
الكلاب . وتهاوى قلبها وشبهت بعف وعيناها
مشدودتان اليهما . انهما لا يتكلمان ، مثلما فعلا
ليلتئذ . انهما ينظران اليها بعيون الموت الجامدة
انهما يعرفان بأنهما يعملان عمل الكلاب القبيح
عمل الكلاب القبيح ...

استيقظت على صفقة الباب من خلفها ،
 فرفرت رأسها واستدارت بنظرها . كانت
 عينها غائمتين وذهنتها في دوامة غير قادر على
 تمييز الحلم عن الواقع . رأت شبحه الداكن
 واقفا تحت المصباح الكهربائي الأحمر . شعرت
 بالبرد شديدا في ظهرها ، وبذراعها اليمنى
 متصلة ، وكان قلبها يخفق بعنف . لم يزل
 واضحا يشماغ على رأسه وهو يتكى على الباب
 المغلق . اعتدلت في جلستها وانزلت قدميها
 من السرير . أرادت أن تنصرف كأنها كانت تنتظره
 إلا أن أطرافها لم تستجب لحركاتها وبقيت جامدة
 في مكانها . كان ساكنا ولم تميز وجهه بوضوح
 أول الامر لكن خوفا ازداد . خطر لها أن تقسم
 من محلها إلا أنها خشيت أن يصر السرير
 وتستيقظ حدية . أحدث بصرها إلى وجهه
 وهي تبذل جهدا لئلا تمسك . كان متغيرا كايها ،
 تتركز حياته كلها في عينيه السوداوين . أفرعها
 ما تنفثه تلك الجمرتان المتوهجتان ، وأيقنت أنه
 قاتلها لا محالة . كانت ترجف رعبا وهي تدرك
 أن هيئته لم تتبدل منذ كبستهما معا . مجنون
 لاثم . لم تحزر الصدى الغريب الذي تجاوب
 في أعماق نفسه بعد تلك الليلة المشؤومة .
 وما هي ترى أنه الكبرياء ، الكبرياء القاتلة .
 كلمته محاولة دفع الفزع عن نفسها -

- شبيك ؟ وين جنت ؟ (٥٩)

وكان صوتها أجش متعلما . لم يحرك ولم

الهوامش :

- (١) أي : أنت وما تريدان بالذرة عيني يا ولجيتي ؟
- (٢) كما تشاؤمين يا عيني .
- (٣) وماذا يحدث لو أنك بقيت عندي هذه الليلة أو
 يوم (يجرى أياه) ألا تدرين على مشعل هذه الحالة
 (السينة) ؟
- (٤) وأي قدرة لي على هذا يا عيني يا نجية ، اللهم
 يا أرمم الراحمين ، هذا أخوك غاية في الفقر ويحتاج
 الغرامة ليل نهار ، أتركك وحالك ، هيا يا محبة .
- (٥) انبيه يا أماء ، هذه النجبة عالية إلى حد ما ،
 أنه منزل بالغ الرذالة ، هو حطى الذي جعلني في النهاية
 استأجر غرفة .
- (٦) لا يهم يا عيني يا نجية ، بعض أيام وتنفسي ،
 لا يهم . لا يهم .
- (٧) ألا يوجد أحد بالداخل يا نجية ؟؟
- (٨) هذه الحجرة فارغة ، وأهل هذه الحجرة مسافرون ،
 وهؤلاء يتألمون منكربين . بعد الآن المشاء .
- (٩) ماذا لو بقيت هذه الليلة لحسب ، ليست أدري
 ماذا سينزل بي وهؤلاء الأطفال .
- (١٠) بالله عليك لا تتكلمين هكذا ، ماذا بك ، من
 يحرق (يعرف) ما يحدث بعد قليل ؟ هل تخلف عن

يحبها ، وخيل اليها أنها تسمع أنفاسها
 المتلاحقة . كان طويلا متهدل الملايس ، ويشماغه
 مرميا بأعمال فوق رأسه . لم تستطع تحويل
 نظرها عن عينيه ولم تلتفت إلى الحركة الخفيفة
 التي بدت منه . كانت تسائل نفسها مع خفقات
 قلبها المفعور . هل بمقدوره أن يفعل ذلك ؟
 ورأت يده اليمنى ترتفع بهدوء وكانت الفوهة
 الصغيرة موجهة نحوها بأصرا ، أنه يريد قتلها ،
 يريد افتاء شاهد انحطاطه . ولم تلبث إلا لحظات
 عادت لها فيها كل حياتها . مرت في ذهنها أمعد
 أيامها وأشقائها ، وخطر لها كم ستندم أمها إذ
 تركتها هذه الليلة بمفردها ، وكم ستبكيها
 . كم ستيكي بعدها . أرادت أن تقوم والرعب
 بكاد أن يذهب بعقلها ، لكن النار اتجهت نحوها
 بسرعة مريعة ، وأحست بحريق هائل في صدرها
 فصرخت بجنون . كان ألها مخيفا لا بشريا ، لم
 يستمر غير لحظة أو أقل . رأت خلالها وجهه
 الحيواني وعينيه البارقتين . أنه مصمم ، غير
 نادم البتة . كانت متشبثة بحافة السرير وهي
 تمسك ثديها المثقوب ، فخيال اليها أنها تسمع
 صراخ طفلها يأتي من بعيد . لم تفهم معني
 ذلك وحاولت أن تستدير لتراهما ، إلا أن دفقة
 أخرى من النار اللاحبة اندفعت نحوها والتهمت
 وجهها بوحشية . لم تشعر إلا برجفة عظيمة
 قارزلت جسدها وتهاوت من السرير ببطء
 فاصطدمت رأسها بالأرض مرة أو مرتين قبل أن
 يقرها الظلام .

- (١١) البيت ليلى واحدة أم هذا حاله كل ليلة ، توكل على الله
 يا عيني ، وما هي « لفيشة » بجانك شيئا من لا أحد .
- (١٢) أين هي تلك ال « لفيشة » ؟
- (١٣) وأين ستكونن إلا عند أهلها يا عيني ؟ أين
 تلعب بعد ؟ ساعة أو ساعتين لم تصبح بجوارك .
- (١٤) سلام عليك يا عيني نجية ، أدخل غاي أخاف
 عليك من البرد ، استطيع أن أرى طريقى ، لا تتسفل
 بالك يا عيني .
- (١٥) مع السلامة يا أماء ، سلامي إلى « حمودي » ،
 له العافية ، أنتي سعيدة بخيركم .
- (١٦) من هذه ؟
- (١٧) ينت يا « حديدية » لماذا خرجت في هذا البرد ؟
 (١٨) نهض « ستار » يتيكي يا أماء .
- (١٩) طيب « ساشتر » ادخلي الصخرة تسيما
 يا بنت .
- (٢٠) لماذا لا تنفسي إلى النوم ؟ من الوقت ؟ يا بنت ،
 وغيمت النار .
- (٢١) لن أنام ، لا يزال الوقت مبكرا .
- (٢٢) أصابك مرضك . ليس لي حبيب على انامتك
 التي التي .

(٢٦) لا تلعني في الرماد يا بنت ، لا تبولني على فراشك والا عاتيك ، متى تلعني ؟

(٢٧) حيا ناسي كي احكي لك حكاية .

(٢٨) اي حكاية تتكيني ؟

(٢٩) الهضي ، احكي لك قصة السلوة والغراب .

(٣٠) حيا يا امام ، احكي ، لماذا تلوذين بالصبغ هكذا ؟

(٣١) في يوم

(٣٢) كان يوما كان ، الله ينصر السلطان ، واحد غراب شديد السواد ، وهذا الغراب لم يكن يحبه واحد من الغرابان لانه اسود شديد السواد ، حتى امه وكذلك ابوه ، قال له ذات يوم : « ياولد يا غراب يا اسود ، اجبت لك من بيضة بيض منه الناحية ، نجاعة الغرابان لا تريد ان تراك ، قال لهيا ، يا امي ويا ابي ، معما قلعنا فاعطنا وجاعة الغرابان سود مثل ، والله لا يرضي ان تكتروا بي حسنة الفعلة ، كيف اعيش ، اين اكل ، اين اشرب ؟

— يا امي هل تتكلم الغرابان ؟

(٣٣) ناسي يا بنت ، اليست الغرابان « خلقة رينا » ؟ لماذا لا تتكلم اذن ؟

(٣٤) « وبمدين » يا امي .

(٣٥) اين وصلنا ؟

(٣٦) الى ان قام الغراب الصغير يكلم امه .

(٣٧) قال لها ، لماذا يا امام لا تتجلى لي حيا ؟ انا لا ازال سحليا ، اقولهم من امر الدنيا شيئا ، فاست الام تبكي من هذا القول وقالت له : « اي ابي ، اليست بيتك والاحل احلك ، وملا يفيدنا قول الغرابان ، هل يغفل ما يتراسي له ، لكن الاب جرد لها سكينيا ماشيا ودير لها هذا الامر .

(٣٨) لماذا يا امي ، انا يحبه ابوه على الاخلاق ؟

(٣٩) وهل قلب الاب قلبك الام ؟ ليس لقلب الام عدل ، لكن بياك هذه الحكاية ولا تعدييني بعد .

(٤٠) ان افضل شيئا بعد يا امام .

(٤١) ان تصدر مني وقاحة بعد يا امام وديي .

(٤٢) حسنا ، فقط اريدك تعرفين قدر امك ، لو كان ابيك بقلبه حنان ، لقال لنفسه : « ماذا صار هؤلاء ماتوا .. احياء .. لكن لا حنان ولا شفقة ، لكن الله صب كل مصائبه على راسي ، ماكانني الفخر وعبد الصغار ، هذه المرة منه ايضا ، مصائب الكبيبة .

(٤٣) اين ابي يا امام ؟

(٤٤) في جهنم ، في النار الكبرى ، هو وعلمه الام ، اعوذ بالله .. كف يا حلي ، لماذا لا تلعني ، يا بنت ، وتخلصيني ؟ اما كفاي هذا الهم والشقاء ؟

(٤٥) حسنا ، لا تجلي النحس ، انت اسوأ منه .

(٤٦) اين وصلنا ؟ حسنا ، سأكمل ، لم يستطع الغراب الصغير ان يبيي بالبيت بعد ان طرده منه ابوه ، فادار راسه ثم طار ، ظل يطير لا يدرى بأي ارض ينزل ، انحصر الجوع وساخ قلبه وهو لا يزال يطير ، من النهار

واصبرت الشمس ويشس الغراب الصغير من نفسه ، وقال لنفسه : منه حياة لا يحرمي الموء عليها ، وفي هذه اللحظة رأى قباته حيا اسودا ، نزل عليه وقال : استرح قليلا وألفي الليل هنا .

(٤٧) امي .

(٤٨) ماذا بك ، لماذا نهضتي يا بنت .

(٤٩) اريد ماء .

(٥٠) حس ، ليس هذا وقت الماء ، من يشرب ماء في منتصف الليل ؟ ماذا اكلت ؟

(٥١) اين ذهب الغراب الصغير يا امي .

(٥٢) اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لم يزل بعد فوق الجبل .

(٥٣) اي جبل .

(٥٤) حسنا .. سأكمل اظهي عيني مع اول مرة يراودك النعاس .

(٥٥) حسنا .

(٥٦) عندما وقف الغراب الصغير على الجبل الأسود رأى بجانبه على الارض كتعا من النمل الصغير ، فقام يلتفت الى ان اتى عليه ، شبح ونام ، وفي الصباح فرح على صوت حال يصيح : من يلب على راسي ؟

(٥٧) لماذا لمحت احبك ؟ الهضي .

(٥٨) تجيبن ان اكمل لها .

(٥٩) كلا ، ايها الله ، من هذا الذي قام يصيح ؟

(٦٠) تلك هي السلوة . كان الغراب الصغير يتناجى راسيا وهو لا يقرى .

(٦١) وبعد يا امي .

(٦٢) كان الغراب يارفا ، قام يتوسل اليها ، احكي لها حكايتي من اولها لآخرها .. كيف طرده ابوه لانه اسود تماما ، وكيف ظل النهار كله ، ركم هو صب وجوعان . لكن السلوة لم تصفق حكايتي اول الامر وقالت له : ولد يا غراب البني ، ساجعلك قطعة لسان او قطعتين ، لم استطع ان انام الليل بطوله ، وقفت على راسي تنقر يا ظالم ، قال لها : انا اين يدبك ، يتيم لا احد لي ، وما تزين اقبله ، لكن يا حضرة جناب السلوة انا كما تزين ..

— وهل السلوة يا امام سيدة متفطرة ؟

— ناسي يا بنت ، لا حول ولا قوة الا بالله العمل العظيم ، ياربي ، متى تخلصني من هذا الشقاء ؟ الهضي عيناك يا بنت .

(٦٣) ناسي .. سأكمل الحكاية ، لكن لا نهني كل لحظة ، اين وصلنا ؟ حسنا ، عندما قام الغراب يحادث السلوة قال لها .. لقد اكلت النمل الذي كان يمشي فوق راسك .. وما كنت اتفق راسك .. فخرت السلوة عندما رأت الغراب الذي اكل النمل الذي كان يملأ راسها فحالت له ، لك الامان ، وقامت تنفضت عليه وجعلت لونه شديدا البياض كلون الثلج ، وقالت له .. اذهب لاهلك لسيفرسون بك . قالت له اذهب فقام الغراب ، اذار راسه وطار .

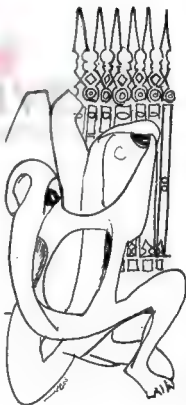
اليشعاع : الكولية .

(٦٤) ما بك ؟ اين كنت ؟

منزل النساء

بقلم: محمد خضير

الفتى فواى الشكل فى هذه القصة ان تتشطر الاحداث فيها الى شطرين ، شطر منهما يحتل النصف الاعلى من الصفحة ويشطر الشطر الثانى نصفها الآخر ، وكانت لهذا الشطر دواعى فنية فى نظر الكاتب ، فلما كان القسم الاعلى من الصفحة يمثل جريان الاحداث فى الوقت الذى تحدث فيه حاضراً ضمن حدود الوصف والحوار ، فان القسم الاسفل هو تعليق الشخصية الرئيسية فى هذه القصة على هذه الاحداث، انفسه عسلة مونولوج متكلم ، او حلق من احلام اليقظة ، امتد على رقعة طويلة من الزمن ، وهو بدوره يكشف عن علاقات اخرى تنمى حدث القصة وتلحمه تنهايته ، وهكذا فلما كان القسم الاعلى يمثل الاشياء المتطورة بعيداً ، فان القسم الاسفل هو استغاثات الشخصية الرئيسية النفسية على هذه الاشياء . هذا ما يلاحظه القارئ من خلال التوازن المتكلم للقسمين ، والقصة بعد ذلك لابد ان تقرأ مرتين .



كما أخذت في الظهور على مسافات ثابتة أصغر كهراب تتوجه مصابيح تميز رقعا محدودة في الجدران أو خشب النوافذ العلوية . غير أن الضوء كان يقلل خلف مشيكلات الطابق العلوي ، وتباغت المصابيح فيما كانت أرض القيو تضيق وتأخذ في الانحدار الشديد نحو منصف قادم توازيا في الانحدار قطع الآجر الصغيرة المتأكلة المستديرة الحافات في تسلسل رتيب انقطع في تجويف بوابة تهبط بسلاسل داخل الجدار ، ثم تستمر الصفوف المرسولة وفواصلها المتتمة الفارغة والمحشوة بالظلمة في الانحدار بعد البوابة تؤلف جدارا عاليا خاليا من أية فائدة أو كوة يرتفع سطحه المنفتحت المنقر كدرج مفصص حتى ينطوي في قمته المقفودة في شحوب ظلام السماء أولا أوتاد المزريب البارزة للخارج أسفل أسيجة واطلة .

أفضى النلق الى رحبة مربعة مكشوفة ، محددة من جهاتها الثلاث بالشرفات والنوافذ الخشبية في الطوابق العلوية وقد حوت أعاليها أبراج المظلات الخمرية المسطوح ، أما الجهة الرابعة فيستمر ممر الرقاق في اختراقها . وهنا تلاحظ النقاوة الذكية للسماء المنجبة ، وأنتبه الرجل

صفوف الآجر المتآكل تنقطع بدعامات النواذع الكثيرة القريبة من الأرض ، وينتشر الضوء من مخزومات ضللت نوافذ الطابق الأرضي المغلقة ومن نوافذ وشرفات الخشب في الطابق العلوي ، كما تلتصق أسلاك الكهراب بهذا الضوء الداخلي أو بضوء المصابيح الخالية من المظلات المثبتة بدعامات في شرفات الخشب واضلاعها السفلى أو لفسحات الجدران الخالية من النوافذ . تبرز زوايا الغرف القائمة على جداري الرقاق المتقابلين بقواعدها المثلثة في ننوات هرمية متتالية تتعاضد أوجها المشغولة بمستطيلات متجاورة مخروطة أو مقطوعة بأعمدة الحديد ، وتتقارب حتى تزداد تلتقي بها يشبه أسنان منششرين خشبيين صخين . ومن بين الأسنان المتقابلة تظهر فيما يبدو أنها سماء . تحت صفوف الزوايا النابتة يغدو رجل السير في قيو الرقاق ، يلتزم جانب اليمين ، وينعطف به الزقاق فيقل الضوء ويزداد تقارب الزوايا الركنية المتعاضدة للغرف النائية وتبدأ بالظهور بين صفوف الآجر ، بمستوى رأسه ، كوي مستديرة مظلة تتجمع أعمدتها الحديدية في مراكز مستديرة صمرة . وسورج الكوي على مسافات ثابتة ، تجاوز الرجل كوة تهدمت واقتلع حديدتها وترك موحا للخارج ،

أسمى علي ، من عواليد ١٩٤٥ ، أصيل مولدا في هاتر نائية في مركز للدينه ، وما أمي الخطو في زقاق آخر تحت سماء زين من شق الزقاق كمنحة سوداء تحوى على ملح اسود ، على أرض غير واضحة ، متفجرة بظلال الاشكال الهشة البهجة اللون : مياه وعط فرقة وكومات من رباب و بلايا طمعة وأوراق ، مغابات ، حيسة لعمية خشبية بقلل دخانية متحررة وثابتة في العجواب وعلى أجر الجدران ويحب الأرائك والصناديق والكراسات وفي أركان درجات أبواب البيوت واضائها وفي الأفال ومطاريق الأبواب ، واشتق طريق بين القباب الساكنين الأسلاف وقد تظلمت في ثوب الجدران وممراتها وبين جسور السقوف والشراف والاعمدة وفي الطب واللواوير وفن الأفرشة والصناديق السوداء المظنة بمسامير برنزية وفي داخل الطاقات والكوي ومخضلة مع صدا الزاوي والمسامير والفوازي وحول المصابيح المخلتلة بدرات ضوء تتكاثف في حالات جامدة . في التهار فتحت الأبواب ونطق دون سبب ، ينسرب منها الصراخ وأصوات الكاد المنهم من صلاتح مبرجة وروائح الضمام الشهى والمرشة السرد الثقيلة . بدعاء البرايت وصسفرة البول ولوح خلف هذه الأبواب مدة انفتاحها اللابس المشورة على احيال الفصيل والصور والكتب والسكاكين والإصنام الرخوة بمساحيق الفصيل ودوات الطبخ والفوازيس المثلثة والأشجار الصغيرة في حدائق مربعة وسط الأبنية ، أبواب مشرقة للجران والمسيوف القريبين والبيجين والصناديق مقاييس الكهراب واليالي النطق ومازحي الفضلات كما تسدل ستائر بيضاء وطونة خلف أبواب واطئة غائرة ومزينة بدرجات في جوانبها صلاتح الزبالة وتلال البراز والفضال وسقون . سطوح عالية ، سطح أسفل سطح ، وسطح بصوار سطح ، بمستوى الهواء الصياحي النضج والشمس المبكرة . سماء شتوية اليقة وصريحة أكثر قريبا بثلث القتل الضولية التي يتيمد نورها الاصيل الوديع في مجال لا مربية ترتفع في الرحبة المكشوفة . ليل بديل لنهار أبدي ، قيل تمتع وحصل يعل دون أن ينتبه اليه أحد ، فاجر ولمر عطن ، يؤدى اليه الزخارف والألوان أسفل القباب والشرفات ، تسبب في أواخره الكلاب في الشوارع والساحات المشوبة . حل هذا الليل في راسي وورد الليل الآخر الكلد بالوساوس الذي رافق نسياني في الريف . سنوات الألفاء الجنوبي ، على سفلية مقلقة تحت النجوم القريبة ، كنت أستمع لكتابة أحد الكود من امرأة مالطها أمي وقد ختمت الكتابة بأن كتبت لك الاسطوري بحرير أصفر ونثرت جسده بالآثار لم دفنته في قناع نهض الخرساكن .

وانتهت المرأة حكايتها حين بدأ الليل يسقط آخر الليل ونهض الآخرون يتنابون لا فرشتهم فوق أسرة من جريد التنخيل وقد يبرتها بفرقة التهار والسلف ، وبقيت في استقلالي البائع الطيب في العاصفة مفتعبة وسط جثث من أزهار الرأزي والآشرف وقد أحاطتني كستارة بيضاء لا تنتهي شعاعا مر طائر (الشرقي) ناعقا دافيا للأسرة بالأناء ، ثم كنت الحيب في عسرات

العقد المذهب والزهرة المتفتحة بين النجمات
الأجيرة والمسامر الحديدية الضخمة التي تصفح
الباب وأسفل طرقتي الباب اللتين تمثلان طائرَيْن
من البرونز الأخضر مضمومي الجناحين . ولم
يعاود الرجل أن يحرك أحد هذين الطائرَيْن من
مكانهما ، إذ كان الباب مواربا يأتي خلاله نور
من داخل المنزل ، كما يأتي ضوء النور من كوة
تنتفح في قمة العقد المذهب .

في الركن خلف الباب كانت الحفنية تصب
خيلا وفيما في صفيحة طائفة بالماء ، فاقف
الرجل تدفق الماء ، وعش في الدهليز المستطيل
على أرض غامضة بالعثرات الوهمية ، وكان نور
داخل المنزل يلامس جداري المدخل والسقف
المعقود ويتغلغل في الجس المتقشر الذي كان يتهيا
كي يتفتت بالرطوبة ويتجسم بعضه في كتل
منتفخة . كان المدخل خاليا من النوافذ والكوى
عدا حنية واحدة كبيرة معقودة في نهاية الدهليز
بمواجهة المنصطف الذي سيؤدي بالمدخل إلى الحوش
نحو اليسار ، لذا فإن الضوء ينحرف نحو جوفها
ويظهر الحفر المشووعة لنظام رصف الأجر
المختلف . لاكتشف الرجل كلابا دقيقة وطويلة
أخرى في فناء المنزل المستطيل المكتشف في

لكلاب نحيفة طويلة الأجساد والأرجل تخوض
في مياه مجبوزة وسط الرحبة ثم تستمع ببعده
شسديد وتقترب أحيانا من الزوايا المظلمة في
أركان الرحبة حيث بالإمكان تمييز صفائح
القمامة . بقعة الضوء الوحيدة كانت معلقة عبر
نافذة علوية ترتفع بمستوى نصف طابق عن
نوافذ الطابق الأعلى المستطيلة المتجاورة المستقرة
في فواصلها باتساقات متشابهة تشكل قسمها
المقوسمة خطا منحينا بارزا في الخشب قرب حافة
كورنيش السطح المقرنسة . تشغل النوافذ المظلمة
تلك واجهات ثلاثة برونزات مستطيلة متجاورة
تبدو أنها تحبس ثلاث غرف علوية . كذلك أطفئت
نوافذ الطابق الأرضي المظلمة على الرحبة في جانبي
الباب . يبقى مصباح في طرف قضيب مقوس
أهل الباب الذي يتراجع داخل عقد مذهب من
الأجر كتل الفرس يتدرج من مستوى الجدار
ويتحد بوزرات متعارضة الأجرات ويرتكز على
ضلعين من المداميك المسماة المستديرة الحافات
يوضح الضوء فيها مسامات داكنة . وفي منتصف
العقد تبرز زهرة منتظمة من الأجر الدائري وسط
زخرفة من النجوم الصغيرة المتأسكة في حشوات
بارزة . كان اختلاف ربازة واجهة البوابة يتنوع
مستويات السطوح ويوزع الظلال أسفل حافات

شعة بين كومات من التراب عبر الأنهر حتى الثلاثي تسماء ولا اسرف على روى التي التدمجت مع الإبرة التصاعدة
من التلويب المظلمة في صلحات الأنهر المظلمة بأوراق الأشجار الكثيلة التي تصير خلييا يرافق روى في تجوالها خيالات
الحياة الكلية بين الدلال المظلمة .

التصاعد المتناسقة ، طول النساء في حفات الرقص الديني ، أشباح الصغار الساحرات في القابر ، للصوم .

حتى إذا كانت روى تير ديا فسيقا بين خاتلين متهمين سمعت الهمس الخنوق للأرواح الأخرى المدفونة
سرا في الأسس العريضة فلقد امكتها فخر اجراس السمفوتتجول حول ناموسيات وأسر الإباء والأجداد وتزقرب امهاد
الأطفال والفرشة الإهبات ، فلما نهضت الأجرات عند المسح لايقاد التنانير وخيز العجين اسرعت الأرواح النافذة لاستقراها
في العرائب وتجاوبت الجدود الخافية وفي أكوام الحبوب والقمح وفي فروع الأنهار وزيان الخل وقوارير ماء الورد . يغفل
ذلك الليل الغامض في راسي ، كما اخفى دجه لي وأبرواخولي في مفرق من العاشرة والسنوات البائنة التي نلت حين خلوت
خارج الربيع إلى داخل الأزقة والغرف المستطيلة الواطئة كاسطيلات شمالية ، عندما حيات نفسي للدراسة المتوسطة في
مدارس المدينة .

آخر وجه لامي كان وجهاً غير واضح أتت على ملامحه الأشعة النقية للشمس : لاح مصاصا بأوراق العنب يخرق
فواصلها يريق الشمس السريع فيلوج الصخرة القاسية في شفتها العظيمة بصيغة قشور (الديرم) وخفزة سفلة الوشم
الفتنة من أسفل حنكها عبر جفينا متدبة بين التدين على شكل صلبان دقيقة خضراء تخطط بلون الجلد التي المصيح
يعبر الياس وصايون (الزرق) ظلالا تحت أفيه مع الخطيب من حطمتها مع الصب البكر الغامض واللحمر من التوهج المبسات
للصوم الغوام في أصابع اليد التي ترفق التقي .

امس ذلك الوجه المتألق كوقع شمس . سفلت في الماء . تسفل ليرة (التيق) من شجرة السدر الشائكة ولير مستوى
السطح الهادي للماء لم تظهر عليه لاية وهي في ارتعاشها تردد ذلك الوقع الكثيب القصير وتلك القنرات التي تنفخ حويل
'بولع السقوط وتناهز عاجزة من التعلق جامدة في الفراغ الساخن . وبعد أن فلتت تماما ذلك الوجه المضر فاجأتني
وجوه نسوة أخرى ، وجوه هائلة ومقشاة باللحمر ، صباحة وفانسية ، متوردة ومعتمة ، وجوه تدمج علامها وتلصق
كأخفاف الثعالب من نافذة قطار سريع ، فلتت فيها لاية المني الأخرى للامومة التي حاولت السبوة أن يفرسه على لحن
ويقرنه في جسدي القاصر من الاستجابات السريعة .

كل ذلك البيت الذي يجبر أبواها على أن تتحسس
الأجر المربع المرصوف دون صوت ينفض السكون
الذي يحل ، (خشب الخرس) ، وبضربها كان
ينتقل في شحوب الأروقة المتحدة بأعمدة
أسطوانية ذات تيجان كنواقيس مقلوقة مزخرفة
بموشورات ومضلعات تختفي في ظل السقف
الذي يرتكز على هذه التيجان . وحل هذه
الأعمدة تحمل مقوف أروقة الطابق العلوي في
ثلاث جهات وتثبت إليها أفريزا مطلا مشغولا
بأعمدة حديدية ذات تنويجات هندسية وزخرفية
من الأشكال البيضاوية المتكررة الملونة حلزونية
لصق محاور عمودية ، يلتقي الأفريز بأعمدة
خشبية في الأركان التي تنكسر فيها إلى جهة
مفارقة . بينما تطل على الأفاء في الجهة الشمالية
نوافذ طويلة منزلة عموديا على فواصلها الجانبية .

انتهى الرواق بدليل قصير معتم ، وعثر
الرجل فيه على أول درجة لسلج غير متسع بين
حائطين يتبع طائراهما الجص الهش بقبب خشنة
السطح تأخذ في التفتت والانهار كالنبا استندت
يد الرجل الصاعد فضطت عليها . وتتسع
أحدى الدرجات فيما يشبه راحة مستطيلة تعد
الأسمنت الذي يباط أرضها وينتهي عندها
النصف الأول من السلج ، وقد اعطى قدم
الرجل وهو يستدير فيها بسطح جسم خفيف
أقلت من حافة الرخبة ونحاه في هتمة الدرجات

أظلمت الأروقة السفلى وأوصلت فيها الأبواب
والنوافذ أو تركت دون غلق كي تشير إلى حجرة
الحياة إلى مكان آخر من المنزل . نور مصباح
الفساء لا يمس إلا حافات الأفريز النائية قليلا
ويصر جزء قليل منه أشكال الحديد دون أن
يكشف في الرواق العلوي شيئا من المجهولات
المظلمة فيه .

أموه قاسية رهيبة ، فجاءني ارتعش . كما فلتت تلك اليد العتيق الذي جلبته معي في دمي ، وتسمم دمي بالهتف
اللاذ .

هادر هادو . مكيف في هذا التزل ، هادو من يستلقي بين لرايين على فراش واسع تحيطه رقاقات السرير المتعاسية
ويشم رائحة الثياب وطن الطفاف والوسادة المشوة بأشكال أصوات مديدة غامضة ومبهمة ، هادو موضوع على موازين من
خرف ولي أتية مفارقة ، بغرنى تحت جذور أشجار الزمان المظلمة على نهر الحفر يخرقها مجراه بصموية ، تعلق حولي موازين
هواد جامد تلمع كالنصال سكان مظلوة تهلل على الاستلقاء في الفرد الطويح على تراب غصب متعاسك تحت الزهار حمره
كتلها تردد حمرها في يرق الشمس بين السط ويغرف حول لمد جسدي جالس ساكن رهيبة مرحلة لمنطق البصاة
فيه خيط من هذه الرحلة الغربية القلدة يقطع جسمي إلى نصفين ويحشوني بالفلو .

ولي داخل قبر تلمست حول التراب الناعم منتقرا ما توفقه الطائفة من فودم الزواج التي ستعطيني ما كنتسته
من حياة قوية سابقة وتصب في طغي مصبرات الانساني المخللة وتنبخ في جسمي الطيل النضرة المقلوبة لجميع المولى مخبرات
وجسدي بمثلك تجارب الحيات العديدة ، تمرها وتطمعها الجنون وعدم استقرارها ، وحتى لو دمر جسدي تدنوا كالا
فإن الحياة المظرة فيه لن تفل من الاثبات والتناقض وتستمر دوشي في توليد الرغبات الجنونة والظواف في شعاب لير معدة ،
طرق شديدة التخرج ، كقول الحبر الاقدم ، اجنني فيها جالسا يهبة على صخرة أو تل طين ، سائر في درب لرايين متو بين
التكيل نهد حوائط راحته مشطحة بالسعف أربع الفواويس البايحة عن حلفات رقص الظلمان بين جلوج التكيل التتصبية ،
اجنني في سواك مختلف تكون جميع الاشياء فيه والفة لكل ما متوازنة ومتداخلة ، معشورا في طغي على يدان لاصع ورسوم
الزهار في زهرات ذات عرى وبصور التساء الردييات الكفاني والمثل وقد رشت امتناكن بوشم المخللة المقلم ، قابعا بين
الاراك على حصر متينة الميعان ، متظلا في سيرة على التراب المتصفر يخطب الطعام في المهرم في معنى لكثيرات الحاجة
الوخرة ، متبديا في حرة لطار ليلى يجري في صحراء متوسدا حذالي وحيطتي في بنايات المخلات النائية ، اجنني على السفن
والابلام في جراديق التمر ، في المخلات الطويلة الكوصفة الأسرة دون حواجز يسمع فيها الخفيف واصوات البطون ، في الغنادق
الثريرة ، المدات العامة ، الساحات ونقاطات الطرق مراديب الدور ، دور القسيما واللاسي .

حيالي تلك التي انطلم في خيط رفيع ، فللحرز لونا لعية كثيرة كل صباح ، وكان لهاد الموضوع في اللغة الطلع
الغضة المبردة في الظل رائحة الحياة .

وهي تقيس بخطوات أرجلها الممتدة الطويلة
للمتحملة المساحات المتدرجة بالنور ، وتسحب
خلفها ظلالا طويلة .

يستمر السلم الرئيسي في الصعود ولكن
الرجل تراجع لفسحة السلم المتصلة بأيوان
مستطيل يحفه جدارا حجريين من الجانبين ،
ويخترق نور الفناء التوافذ المشبكة التي تحجز
الايوان مجزا الى عديد من النقب على أجر أرض
الايوان غير المقروشة . طفي النور الذي تفجر
من مصباح الايوان المحاصر بالأنين . الغرفة الى
اليمين : مرآة في خزانة ثياب عالية وسرير
عريض وعوارض خشبية في السقف المرتفع
وأشياء أخرى لا ترى بمعونة الضوء النافذ من
الايوان .

غرفة اليسار : أجساد صغيرة تستلقي على
الأرض دون نظام ، يسيطر عليها سلطان من
إغياب يشل حركتها في وضع مستقر على الظهر
يجعل الوجوه باتجاه السقف مباشرة أو بانحراف
قليل للجانب . شرع الرجل الباب بأكمله فاعتل
النور خطافا ذا ثلاثة رؤوس حادة معقوفة يركز
في مجلس من جسور السقف الخشبية المتعاززة
على قطع خشبية متراصة طوليا . استمر هذا

هابط الحافات المتوازية ، ونهبت القفزة المفاجئة
الرجل لدمية في ركن الرحبة ، والسبحة دقيقة
الحرز سوداء معلقة يسبحار داخل طاقة مرتفعة
لليمين تعلو الرحبة ، منها ينحرف السلم
لليسار ، وقد تقشط الجص من الجدران وظهرت
السطوح المحدبة للأجرام المستطيلة المرتكزة
بعقادة متضاربة ابتداء من السقف وحتى الخط
المتكسر للسلم الذي كان يعدد زمن ارتدئه قسبي
الرجل بين درجة ودرجه بنقالات قصيرة جدا ،
لقله ارتفاع الدرجات ، ويبدو أن الرجل كان
يقيس ارتفاع هذه النقالات دون أن ينظر للحافات
التي تعاقب قديميه ، إذ أنه يتطلع للفتحة
المستطيلة حيث سيحتاج عقادة آخر السلم .
وهنا أصبح واضحا صدور أصوات مكتومة
لا تتسق في تنابها ، كتناوب طويل محتوق أو
ابن ، من تجاوب عميق . وشاهد الرجل كرة
صغيرة (الجسم الذي اقتنف في رحبة السلم)
تستقر على بلاطات الخوص الكريمة التي تتصل
فواصلها الدقيقة . بمحيطات متداخلة يحصر
أصفرها ثقب البالوعة في وسطه . ومع أن
الطاقم العلوي لا يرتفع الا خمسة أو ستة أمتار
لكنه ليس بالإمكان التأكيد من صدور الأبن
المحتوق عن قطيع الحيوانات المتقلبة في الأسفل

ثم كانت راحة الحياة تثبت من أولي العذاب المفاد بقيام الطوفان المقدوس ومن سلال الجريد الملونة التي تحتوي
على قديمة متوازية ، ثم انفتحت الحياة في مآجذ الرجال والنساء ، أشتاق بالجدد من رحم القديم ، عطيات الوضع ،
موسيقى أبواق العرس والختان ، الضياء الساجنة وعروق الإغصاء المتصرة ، الجلوس في شمس الشتاء . لم أجبرت
بقسوة على شم روائح الحياة الجديدة ، ولم تكن روائح طيبة بل شديدة العنوة ، لا غو في ألفه بل محض صجيج وصراخ
واتين وأكدا من الأجساد التي يسيطر عليها نوم نجيل كالود ، ولم يشطر خيط الرحبة المحببة جسمي الى نصفين بل حزنه
الرجات الضئيلة المفاجئة ، لقد كشفت الأسرار ..

« أبحث عن مكانك »

الويل لي إن كان له سيكون ملاذ في التعرف والصور والواقع .

« أين مكانك ؟ »

كانت تتوالى الرحلة عند كل غروب شمس فأبحث عن مكاني .

« أبحث عن مكانك »

بلدك كانت نناديني الأوراق اليابسة وضفادع الانهيار وصراخ المحيطان ، وناديتي ببلدك التيران المشتقة في جبهات
المدنية حين وصلتها أول مرة أجعل صرة ليأبى وأخر ما رأيت في بيتي السابق كان خنجرا معلقا وسابح سوداء ولهايازلما
ل رأس فتية .

أصبحت تتلاميذ الرجاء الحية ومتداخلا بتبدل الليل والنهار ، مجزعا للصدى وعاكسا للنور ، خاضعا لتنظر
والمشاهدة ، متهما بوطاة الموارث ، دائرا مير معرات مظلمة ذات نوافذ موهدة متكررة في وحدات هندسية تتلقى وتتداخل
كمتاهة خشبية عزلت فيها نياما عن أصوات العالم ، وسادع الفرصة لحواشي كي تستطيل وتأخذ كل الاتجاهات كدورق ماء
يتدلق فهو يستطيل ويتفرع وتفرز عنه زيادات طائشة تأخذ كل اتجاه ، بسرعة لا وافية تتوالد وتشاطر ، أنا لا أعرف ماهي
حواشي التي أطلقتها أمامي كإغلاب القدرية ، حواشي هجينة لطرية .

أصمك الآن في وضوح ذلك الشعور المبهم الذي يمتلكني كلما ارتفعت بي السلام ونظرت من الأفق للأسفل : يهولني
ورم الأرض تحت أجلي ويثقل القرار الأسفل قرابية ، الرقية في الاكتشاف والعربة .

للاسفل ، وبدلاً من أن يواصل الرجل اتجاهه فيصعد سلماً ينهي الرواق ، انصرف نحو إيوان مستطيل واسع آخر ، قوام جدرانها بأبواب لغرفتين على الجانبين ونوافذ طويلة متقابلة مظلمة وساكنة .

في منتصف الرواق الشرقي اجتاز الرجل ممراً آخر بين حجرتين ، سائراً للأبواب الشمالية بدورة أخرى . في الرواق الخارجي وكان يفتح الغرف التي اغفلها بضغط خفيف من يده ، غرف خالية واسمة ، « مقوف خشبية شاهقة ، بلاطات منقورة وجدران خشبية أو آجرية ذات طاقات مفروزة بالمسامير المعوجة والمصابيح المظلمة أو ضعيفة النور » ، وغرف أخرى مفروشة بأبسطة وتحتوي على مرايا كبيرة وأسرّة حديدية واسعة مرتبة ذات أغطية ووسائد مطرزة ، اطارات صور وارتاك ولسال خبزبان وملابس معلقة .

عندما كان الرجل يتوجهاً نحو الإيوان الجنوبي ، ظهر في نهاية الرواق جسد أسود لامرأة ضخمة أسفل الدرج في الركن وثابت على الرجل :

— لماذا تضيء المصابيح ؟

توجه الرجل إليها مسرعاً وهو يصيح :

الوضع المختلط قليلاً ، في الفترة التي كان الرجل يفتح فيها الباب لا يظهر أية رغبة في اندارة زر الكهرباء أو التجول بين السيقان النحيفة المكشوفة والأجساد المستقرة المرقشة بأشكال ضوئية اكتسبتها من تقوي النوافذ التي تفصل الغرفة عن الإيوان ، في ذلك الوضع الذي يجعل أعينها : « نصف المفتوحة » مركزة على التسواه الخفيف وظله الطويل الذي يصير عوارض السقف ، أما تلك الرؤوس المنحرفة فهي تميل عن محور الحائط (وتتنفس بصعوبة في صفر حاد بطيء وطويل) ، وغير الأطفال فالغرفة المتسعة كانت خالية من الأثاث ، لذا اتضح في ليض الضوء الخارجي القليل عرى الجدران والنوافذ المقسمة إلى ضلوف مستطيلة عديدة مشبكة ومزججة ثم أقسامها العليا . وفيما كان الباب يستقر مغلقة لاحظ الرجل قشوراً جافة تنتثر في رقعة كبيرة أمام باب الغرفة . وانحنى لتلقط القشور ويتفحصها : « قشور ثمار النعام » .

سار الرجل في الرواق الغربي الذي اضامه باتجاه الضلع الجنوبي ، واجتاز ممراً ضيقاً بين حجرتين مفلقتين ومظلمتين ، وكان يرمم كرات مطاطية صغيرة يفلت بعضها من حديد الاغريز ويستقط

اسك بعفونة العرات الرطبة المثلثة المؤدية الى دوراب المياه والتي تنتهي بأحذية الصمامات المعلقة ذات السكوف الواطئة والجدران المتحصرة الخضراء الخالية من النوافذ ، تنحدر داخلها الاكسبات النحاسية والاعمال والاشغال الخشبية ذات الاسنان الطويلة وليف التعليل ومثاق « اللون خاوه » وعلب إزالة الشعر والاحراض الاستمسية .

اسك بالار الصراصير على الاجر والخشب ، كثر صباغ الابواب ، وباتار الاعلام على البلاط الفاتح وباتار الاصابع على الاغريز .

اسك بروائع الفاتح والبول ، بروائع الثياب الملوونة والازياء المتهاة من الجدران والسكوف ، الخشب المتبل ، الاجساد البشرية .

ها انا اسك بوجه اسود مفلوف بفلوف سوداء تسفل على الكتفين . تكس ازال لوبها خلفها . ازال الدرجات وظن الاحذية المتخلف على حالها . لاحظت رجلاها المموسستان في جوارب سوداء مثلية الى خلق .

في الصنف كانت تشي حافية ، تترج كبط حلقه بدخان زيتي . اول من مررت حين دخلت الكنيسة كانت « عوفه » . قالت :

— الست اين عوفاه ؟

ولم تكن اعرف من هي عوفاه .

قلت : نعم ..

تكرر باستمرار عن امرأة اسمها عوفاه . انها تكلم باستمرار وفتنت انها الوحيدة التي تستمع اليها حتى ممالي . لا يبدو انها تهتم ، ولنا اراها الان كما رايتها « ول مرة » امرأة خفيفة من مئات السنين . فطرة سوداء مشبعة بروائع حادة : روائح الادوية العطية ودماء الخوالة وحقن الاقية والتبغ الذي يفسده عائلتها . حين القرب منها يسد وجهها على التماثل ؟ كعرقه فضلات يابسة او كليلتة بسوداء ذات سمات مسدودة فلا يحرق او يتنفس ، يبيى بلا دموع ، كانت عوفه يبيى باستمرار في بقاياها . ولعلها كنت لعق انجساعها ، على الاغريز .

تطلعت النسوة للرجل بصحبة الامراة السوداء
بحركات احتماء خفيفة .

وقالت (عوفه) : - هذا ابن عواشه .
رفيقتي عواشه من زمان راح .

تخلت امراة عن كرسيها للرجل وجلست على
بساط الأرض . وكان كرسيها اسود واطنا دا
مسند مرتفع فارغ . كن صبيح نسوة يتفرقن
حول منضدة واطنة اقتعدنهما طفل مرفوع الثياب
حتى منتصف ظهره .

قالت امراة : - لقد احسست بدخول أحد .
قال الرجل : - ان كلابا في الاسفل . باب
العوش مشرع .

قالت عوفه : - دعها . دعها . فقط لاتصعد
لفوق .

قالت امراة : - أبواب غرفنا مفتوحة .
قالت عوفه : - ستجدونها على الاسرة .

- لقد نسيت تلك الغرفة فوق . هل انتم فوق
فيها ؟

ثم وهو يتقدم قال كذلك : - لقد نسيت
الغرفة تلك تماما .

ثم قال : - امي عوفه . كيف حالك . هل
تراني عيناك بوضوح ؟ أنا ابن عواشه .

صاحت الامراة السوداء : - ابن عواشه . ؟
يا ابن عواشه الناصر . تعال هنا لأراك يا كافر .

قبلته بشفتيهما الضخمتين اللامعتين ببسل
اللعب وهي تقول بانهاك :

- ابن عواشه . . اين كنت كل هذا لوقت
. . تعال فوق عن البرد .

- ليس الوقت باردا .

استمرت في الكلام وهي تقوده من يده ، وبينما
يستمر المسلم في العروج الضيق للسطح ،
نقلتها في منتصفه رحبة عند اليمين الى غرفة
مضادة ، مليئة بالنساء .

فلم يكن لي اول قدمي فراش لوحدي ، فارى ذلك الوجه القريب جدا من فيش تنموج طياه الرخوة باستمرار وتشكل
ظلالا فائقة وتجه نحوي متفرقا الواسع وديناه الفاتران ، حينذاك انجيل ذلك الجهد ذا المسامات الزاخرة بصره الهوام
والعراصر الحمراء فتترك طيه اثار ارجلها وشواربها ، ويقيب ارى تلك الآثار الدائقة كلها خرجت « عوفه » من مع
دورة الكياه وكانت تخبرني :

- لا شيء يخرج من بطني .

لم يكن لي غير يعرف محتويات غرفتها ، صناديق عديدة سوداء مقلدة ، حين فتحت احدها بعسوري رايت الادعية
والمساج وكتايب الجفيدة والادوية ، وحينما التفت رايت اثنائي الصغيرة التي لم تحركها يوما من اكتنتها ، مليئة
بالزبداء الخفيفة الصبوم والالوان وبالمدبايس او المسامير والخرز وبالوريق الطوية وباتبغ والرماد والادوية والخيط
وباشياء عجيولة اخرى .

وغير راسينا القريبين كان يتقل شلال من الاصوات الساكنة الواخزة ، على وسادة ممشوة بالتوايح ويصرخ
الوردون الطلي المستبعد وباحتضارات الكائنات التالية : شخير يبي وتهديدات امي وصرير الابواب واذان كل فجر وصياح
الدبكة ونباح الكلاب ومهمات المجاز ثم كسر الميدان في التتور وانظام العجين بالراحات المساهرة ، بحة الانهيات
الزكومات الحماي والمتخفات بفازات الكرات والجلجل ومادالانها السوداء ، اهازيع جامعي الثمر وعلقات الاجسام
العارية لئلا الاهار المنقلة بالمشاش ، الهلال والدرابندوالطويل ، الولاام المشارية وطققات البشاد القديمة ، صليل
النحاس الدم ، انسحاق الحنطة والرز في الجدران ونخل الطحن بالتناخل ودوران الرعي الصغيرة المنفرة ، صليل
الاسود والقلائد والافراط والملاخل ، لطم الصدور ، وقع القباقيب الخشبية ، صرير الهدهد ، الادعية والتلاوات والاهازيع
كان فمنا القريبان يتكلمان صمبا باستمرار ، فهما الصم كلفني من سم الجرذان والقرمز ولبقات السم ومن
القليل والنساء ، وكنت اتدفع في الكلام من بولي المعوي ومن الدروس الجديمة ومن الطلاب الربيلين من زمالي الذين
لفدوا معي للدراسة في متوسطة المدينة .

في الاصبحة الشترية كن يبحث من البقع الشمسية في العوش ويقعين ناعسات ، ثم ليذا للذات النهار ، الطبخ
وكس العوش ورشه ورتيق الثياب وغسلها ، ثم الاستحمام والانضمام لاحدى حانات النسوة امام الابواب الخارجية على
جانر الزقاق او حاسوب عجائس الفاتحة والعداء وذبارة لافرحة ومشارة الاعراس وللقند الجراني في بيوت باردة

القصة العراقية الحديثة

بقلم : محمد مستجاب

اليأس المضحكة لاستدرا عطف القراء واعجابهم وتأثراتهم السريعة المباشرة لكتاباتهم لهم في الحقيقة تزييف متشبه للهموم الواقعية كمدرسه أصيلة تتبن يصدق هموم الإنسان (٢) هذه المحاولات هي التي أدت - بقواها وضغوطها الى التيه الواسع الذي تشتمت داخله القصة العراقية وما طويلا ، لا نستطيع ان تجمع خلايا كيانها رغم المحاولات البطولية الخلافة التي قام بها جيل وفؤاد التكرى .

لكن بهذه تشيكوف (دعوني استخدم هذا التمييز) تكاد تكون قد توقفت تماما في السنين ، حيث ظهر موسى كويدي وموفق حضر ومحمد حضير والربيعي وادمون صبري وحضير عبد الأمير ، أدول (باد) لأن بقايا المديحة تظهر أحيانا في هذه المناوشات الفرعية بين أبطال قصص حديثة وبين أبطال تشيكوف لكنها لا تزيد عن مناوشات لا يلبث الكاتب أن يركز جهده ليحصد أبطاله ويصنع تفرده .

في مجموعة موفق حضر (مرجح في فردوس صفر) نجد الشموخ بالشلل والاحباط يطغى على أبطال المجموعة القصصية ، حيث يصبح النعز عن الحل هو الحل ، فالدوار يضغط على الرموس ودقات اللل تفتت السعرات الحرارية لكيان الفرد . هذا التفتت الذي يصبح في حد ذاته معبرا رئيسيا لفهم معظم القضايا الخاصة او الصامة ، حيث تترك الأمور تنساب في سلبية لزجة من خلال التعود المؤلم للواقع ، وتعقد قصة (الصافيير) أضيق وأرقى ما في المجموعة ، رغم عدم قدرة الكاتب الشاب على المخاطرة باستخدامات لفظية حديثة أو اضافات تكنيكية خشية أن تصبح عبثا على أسلوبه الذي ظل محافظا على أنشأته الهادئة .

في الطريق من بيروت الى بغداد - الصيف الماضي - وفي سيارة مصابة بالتواء في الصدغ الأيمن ، التقيت بشمساب يوناني مرح ساخر يتمشق الأدب ، سألته عن القصة القصيرة في اليونان فقال وهو يضحك : لقد ذبح تشيكوف كتاب القصة في اليونان حتى الخمسينات ، وأنا متأكد أنه قد مد المديحة حتى كادت أن تشمل العالم ...

ورغم علم ميل الى تصميم الأحكام ، فاني التعبير ظل مسيطرا على ذهني خلال الفتحة التي قضيتها في العراق ، وقد صاحبت بعض الزملاء العراقيين بمدى تسلط هذا التعبير على خلال قراءاتي لهم ، الا أنهم تحفظوا في قبول ذلك الحكم (اليوناني) وان لم يحتفظوا في مناقشته ...

ان الكثير من الأطباء والمحامين والمدرسين وصغار الموظفين قد تهشمت شخصياتهم والنسخة وهي تواجه مصيرها محاوله ان تميز عن فئتها الصمودة (١) ولا يمكن لنا الا ان نكرر ما رددته نقادنا كثيرا من اصايه القصة العربية - عموما - بهذا السرطان التشيكوفي ، حتى أنها في محاولتها القفز فوق أسوار تشيكوف سقطت البيض منها داخل مستعمرات أخرى لوباسان وشتينيك وهيمنجواي وفوكتير ، عدا قلائل في الوطن العربي ، هؤلاء الذين استلصقوا أن يصنعوا - ويقيموا - مستعمرات خاصة بهم ، بل أصبح لبعضهم معاطف يمكن أن يخرجوا من تحتها أبطالاً (ذوي إحاسيس خاصة جدا بهم) .

وبغض النظر عن الدخول في التفاصيل فان أرضية الأدب العراقي عانت من نفس المرحلة التي عانت منها - وفيها - أرضية الأدب المصري ، فان محاولات البيض التشتيت عن جمل وعلم قدرة واعية للخلق بأذيال التشيكوفية ومحاولتهم

تداعت اليهم موجة من الصغير ، خافتة ثم واضحة ، قالت امرأة :
- انها صفارة انذار .

فيما كان الصغير ينتقل في غرف المنزل ، انقطع التيار الكهربائي ، واختفت الغرفة في سواد تام اتصل بمنطقة الظلام المحيطة من الخارج ، والى الاوضاع الواضحة للنساء وبقيّة اشياء الغرفة .

ارتفع صوت امرأة من مكان ما : غارة وهمية .
ثم توالى الاشكال السابقة في الظهور بنور شمعة في يد عوفه يضيء لهما وجوها الداكن ، كانت تقول : - اعرف دائما أين أضع حاجياتي كان الخطاف يخترق حافة دائرة النور بشعبه الحادة ، وكانت تسمع اصوات مذبذبة وهدير طائرة قريب وسريع ، وترتمش الشمعة التي تستقر على المنضدة بظل اسود على الصبغة البنية الداكنة خشبها المشقوق طوليا يشقن متوازيين غائرين الى جانب ظل جسد الطفل الناقص من الرأس ، وعلى مسافة أخرى ، اختلاط غائم وضخم لبقع الأجساد السوداء التي ترتقي الجدران .

كان الظلام قد تجرع بعد انسحابه خلف الباب المفتوح ، في حين كانت النيران المحجوزة للطبخ تنسرب من الزاوية على توصيلات نحاس واضحة .

اظلت عوفه تحت المنضدة ، فقالت امرأة : - سقط شيء أمي عوفه ؟

قالت عوفه من الأسفل : - لا . ظننت أن هناك من يختبئ أسفل المنضدة .

ضحكت النسوة . قالت عوفه : - هل نحن بحاجة لنار ؟

قالت امرأة : - الوقت دافئ ولا حاجة لفنق الباب أيضا .

قالت عوفه : - اني أردت ثلثة اثواب وثلاثة سراويل .

ضحكت النسوة ، وهي تستمر في الكلام : - دفن اجسادكن . وستشرب شايًا بعد قليل .

قالت امرأة : - نحن بحاجة لكراسي أخرى نشترها من المزاد .

اقتربت عوفه من الشمعة وأحرقت أطراف عيدان من البخور .

النهدين وتحت الابن ، تحت التلياب الغرفة مفر الطبخ والنفاح ، مرسوة ذات اسنان بيضاء والصباح غشة واقطار دقيقة ، ذات اقسام لم تلمس عتبة الدار ولم تلمس الامان الساخنة ولا الرقة ، لم تدخل الظلمة بدون فانوس ، ولم تسمع لم ما قيل لها بصوت عال ، فتاة من القلي ، مشحونة بالظلم ، مسجودة وكاملة ، نظير باحتراس وتملك الشجاعة والصبر ، لها شعر منسرج لم تعبت به كشاشات النسيانين ولا ضفاف الفران ، لم تعرف الا رائحة الاذهار البرية ، تعلف من هجر قلب الصلاة والدعاء ، تعبد بيده وتقوم بيده ، لجلدها ملمس الحرير ، انماها بوقا الرحمة لم تسمع بها لم حليف الاشجار وخلق اجنحة الطيور ، فيها مسعود على جمر بارد وكلماتها ساخنة ذات نين ، انماها تسيل الشمع ، واحتا يديها بلا تقاطيع شريفة ، عينها لقطعا ماس ، عروس تساقط النجوم على نازسيتها كل مساء صلي ونفيس اشمتها فتعبد لقلبها تولده ، هناك نجمة بعيدة تحول ماضيها ونجمة تحوي ايامها القادمة ونجمة تعطف لدها الرقيقة ، ونجمة تستجيبها للابد . حملتها غربة افراس تدرج باجراس جانبية تشق امواج الليل وترسو عند الجدران ، ترسو باجراس ، لم تستمر باسواط مظلمة تكتفي الانشبية وتنتج الجراج ، جراج باجراس .

في مقبيل العدم خرجت من البوابة الرموية كي تلج عمرات متاحة خشبية ذات ابواب من المرايا ، كانت تلف امام كل مرة وتوجه اليها الاستلة :

اين امكنة ؟

- لا مكان لي .

- ما هو حلمك هذا المساء ؟

- لا شيء . لا شيء .

- ما هي ربيتك هذا المساء ؟

- نسيان ولادي ومرسى ، فرسى ونصلي ، افانتي وتقلي ، حبي وتبعتي .

- الصب الجارية ؟

- تعب وتفتي في الحب ولا تعرف لعب جدا لاتمسلا تكتفي بالظلمة والاخلاص .

- ما الذي يفرق بين الصديق والكاذب ؟

- الموت والكلالة .

قالت : - الليلة جمعة • يخور للغائبين
والغائبات •

قالت امرأة تجلس على الأرض : - أمسك
أحدهم شيئاً ؟

ولم يكن أحد يملك ما يسكنه بعد ، إنما تلك
بولة الطفل القريب من الشمعة وقد تعرج خيط
السائل المتجمع حولها دون أن يلحظه أحد ، وقد
من شقي المنصدة •

صاحت امرأة بالطفل : - فعلتها يا جرو ؟
قالت عوفه بصوت واطي : - كان يجب أن
نحضر اقداحاً لذلك •

ضحكوا ، وانحنيت عوفه فقبلت الطفل بـ
ليخديه : إنه زوجي الصغير •

ضحكوا بصخب ، قال الرجل : - إنك لم
تفكري • لا زلت بذلك الحجم •

قالت عوفه : - ولوني ، ألم يتغير لوني ؟
ضحكت النسوة ، واخلت عوفه تتكلم : -
اتصدقون إنه كان في زوج كالخليب •

قال الرجل : - لا نصلق •
ولكنها تدفقت بالكلام : - كنا اثنين • ولم
يترك لي غير هذا البيت الكبير كي أتذكره • قال
إنني أتركه لك ملجأ وقبرا في نهايتك يا عوفه •
قال لو أن الأموات يدفنون في البيوت التي
كانوا يسكنونها • قال إنه ربح البيت في لعبه
قمار واحدة •

ثم اخذت تتكلم أيضاً : - ما زلت أذكر أننا
معا كصغورين سكنا عشر دور أو عشرين قبل
أن يربح هذا البيت • كنت اغسسل الملابس
وأجمع الفضلات مقابل أن ننام ونأكل • لا تسألوني
كيف عرفته • ما زلت تذكر أنه كان يملك خمسة
أسنان ذهبية في مقدمة فكه الأعلى ومثلها في فكه
الأسفل •

وفتحت عوفه فمها الأسود ، ثم استمرت في
الكلام : - ثم من الذهب ، وكان بلون الخليب •
كان يدخل في صارك لا أعرف عنها شيئاً ولا أراه
خلالها عدة أيام • ثم غاب كالنجمة • كان يعرف
كل شئائم الدنيا وكل حلوة الدنيا وكل

- ما شكل رجب ؟

- كان أمشب شعري بأشباح من الحديد المنصهر ، كان صبيحة الإنسان ومطلعة الإصابع ، تنطبع لأربعة الحياة
في جسدي •

- ماذا ترين ؟

- وجهي للظلود ، وجهي للثقب قتي •

- ماذا تذكرين ؟

- الإشجار وأشباح الطيور والشبب الندي وطوق النمر ، وجه عشرين ، الطوامم والأوشحة ، الأفرشة النظيفة •

- ماذا تقول المرأة لزوجها ؟

- أتي لك ، أتي لك بشاي وطراوتي وجهي حين تعرض حين نطيق حين تعطر •

- ماذا قال الزوج ؟

- كل المدح الجميلة •

- ما هي أحبتيك الآتية ؟

- ما يستدني وما يفرني بالبقاء •

- ماذا في قلبك ؟

- كل سكوت العالم ، كل خوف العالم ، لا قلب لي •

- من أنت ؟

- لا أعرف ، لا أعلم ، بلا لسان واستثنى من جليد وحليبي يصب في بقتي •

- إن تتكلمين ؟

- إن يحضر وإن يغيب ، إن يعلم وإن لا يعلم •

- أين أنت الآن ؟

- في كل مكان ، لا في مكان ، لا مكان لي •

وفي لخبها داخل متاحة المرأة ، في سموات مصدوعة متشعبة باتوار باهرة ، ثم في سموات عممة رطبة ، كانت تلك
المرأة التي جعل اسمها قد هزمت وصجزت من الحركة •

وما أتيا قد ثلاثت ونفسخت ولم اشر عليها في هذه الغرفة الصغيرة الموزلة داخل القل الأسود ، بين وجوه
نسوة سيج بلون الرماد أو الشمع • ثلاثت في الكلمة كذلك مع وجه « عوفه » التسلط ، كما لم تعرف على وجهي وعمر
مظنري أيضا في تيار الجرى القاتم المصنخ بالبطور •

كما يستمر صوت مظم صعب النفاذ ، يستغرق
زحنا غير محسوب بدقة كي ينتشر ويسمع :

- عرفت كثيرين غيركن - رجالا ونساء -
سألن ابن عواشه هذا -

تركوا متاعهم ورائحتهم دون أن اعرف أين
سيجدون راحتهم هذه الأيام - كانوا يسكنون
الفرف السفلي والفرف العليا ، وفي الصيف كنت
أفرش ثلاثين أو أربعين سريرا على السطح -

ثم اخذ الصوت الغنى يقطع مسافات شاسعة
كي يصل :

- تستمن بليلكن ونهاركن - كل شيء زائل -
بنسائي ، زائل كالثلج - ولا يبقى اثر - لن
ترحلن - اريد ان أتمتع برائحتكن طويلا - كن
قرب قلبي الثالث - قلب عوفه - انفن فتوتى
الذابلة - انا القبيحة الواحصة - انا الهرمة
القد - - -

فيما يفرق الظلام ، كان صسوت يبتعد في
غور لا يرى ويفقد نبرته الانسانية السابقة ،
كما ان كل شيء تلاشى في العتة -

مفاسدها - كنا نبيت أحيانا في العراء - هكذا
تماما - اذكر اننا في ليلة صيف تينا على أحد
الارصفة ولم تكن لوحدا - هناك آخرون - لم
اعرف حتى ذلك الوقت كم هي الحياة طيبة في
العراء - فوقك النجوم وتحبك الأرض وليس
لديك ما تخاف فقدانه أو ستره - كان ينام نصف
عريان وكنت انا مستورة -

ضحكوا بدون حماس ، وكان الفضاء المعتم
خارج الغرفة يفرق بأصوات عنيفة ، وكانت
عوفه تتكلم :

- هذه مدافع - - - مجازات وارصفة وجسور
وسطوح - كنا ننتقل باستمرار ، ولم تكن نعمل
شيئا قبيحا - الأعمال الدنيئة تحدث خلف
الجدران - كان أحدنا يعرف الآخر -

توالت عوفه وبقية الاشخاص واشياء الغرفة ،
دفعة واحدة ، حين انطلقت الشسعة كجاة - ولم
ينر الطباخ شيئا في الزاوية - تضحك النسوة
من امكنة مجهولة وكان هناك من يصدر الحركات ،

الفنون التشكيلية

في

البلاد العربية

(عدد خاص)

تمد « المجلة » لاصدار عدد خاص بالفنون التشكيلية

في البلاد العربية ، وهي ترحب بنشر ما يصلها من صور

ودراسات تعرض لوضع الفنون التشكيلية في كل قطر عربي ،

وتحدد ملامحها واتجاهاتها واهم مدارسها وأبرز روادها -

القصة العراقية الحديثة

بقلم : محمد مستجاب

البائسة المضحكة لاستدراغ عطف القراء واعجابهم وتأثراتهم السريعة المباشرة لكتاباتهم لهم في الحقيقة تزييف متشبه للهموم الواقعية كمدرسه أصيلة تتبن يصدق هموم الإنسان (٢) هذه المحاولات هي التي أدت - بقواها وضغوطها الى التيه الواسع الذي تشتمت داخله القصة العراقية وما طويلا ، لا نستطيع ان تجمع خلايا كيانهما رغم المحاولات البطولية الخلافة التي قام بها جيلان وفؤاد التكرى .

لكن بهذه تشيكوف (دعوني استخدم هذا التعبير) نكاد نكون قد توقفنا تماما في العشرينات ، حيث ظهر موسى كويدي وموفق حضر ومحمد حضير والربيعي وادمون صبري وحضير عبد الأمير ، اول (نداد) لأن بقايا المديحة تظهر أحيانا في هذه المناوشات الفرعية بين أبطال قصص حديثة وبين أبطال تشيكوف لكنها لا تزيد عن مناوشات لا يلبث الكاتب أن يركز جهده ليحصد أبطاله ويصنع تفرده .

ففي مجموعة موفق حضر (مرج في فردوس صفر) نجد الشموخ بالشلل والاحباط يطغى على أبطال المجموعة القصصية ، حيث يصبح النعز عن الحل هو الحل ، فالدوار يضغط على الرؤوس ودقات اللبل تقطع السعرات الحرارية لكيان الفرد . هذا التفتت الذي يصبح في حد ذاته معبرا رئيسيا لفهم معظم القضايا الخاصة او الصامة ، حيث تترك الأمور تنساب في سلبية لزجة من خلال التعود المؤلم للواقع ، وتعتمد قصة (الصافيير) أفضج وأرقى ما في المجموعة ، رغم عدم قدرة الكاتب الشاب على المخاطرة باستخدامات لفظية حديثة أو اضافات تكنيكية خشية أن تصبح عبثا على أسلوبه الذي ظل محافظا على أنشأته الهادئة .

في الطريق من بيروت الى بغداد - الصيف الماضي - وفي سيارة مصابة بالتواء في الصدغ الأيمن ، التقيت بشمساب يوناني مرح ساخر يتمشق الأدب ، سألته عن القصة القصيرة في اليونان فقال وهو يضحك : لقد ذبح تشيكوف كتاب القصة في اليونان حتى الخمسينات ، وأنا متأكد أنه قد مد المديحة حتى كادت أن تشمل العالم ...

ورغم علم ميل الى تصميم الأحكام ، فاني التعبير ظل مسيطرا على ذهني خلال الفترة التي قضيتها في العراق ، وقد صاحبت بعض الزملاء العراقيين بمدى تسلط هذا التعبير على خلال قراءاتي لهم ، الا أنهم تحفظوا في قبول ذلك الحكم (اليوناني) وان لم يحتفظوا في مناقشته ...

ان الكثير من الأطباء والمحامين والمدرسين وصغار الموظفين قد تهشمت شخصياتهم وانسجعت وهي تواجه مصيرها محاوله ان تمير عن فئتها الصمودة (١) ولا يمكن لنا الا ان نكرر ما رددته نقادنا كثيرا من اصابه القصة العربية - عموما - بهذا السرطان التشيكوفي ، حتى أنها في محاولتها القفز فوق أسوار تشيكوف سقطت البيض منها داخل مستعمرات أخرى لوباسان وشتينيك وهينجواي وفوكتير ، عدا قلائل في الوطن العربي ، هؤلاء الذين استلصقوا أن يصنعوا - ويقيموا - مستعمرات خاصة بهم ، بل أصبح لبعضهم معاطف يمكن أن يخرجوا من تحتها أبطالاً (ذوي إحاسيس خاصة جدا بهم) .

وبغض النظر عن الدخول في التفاصيل فان أرضية الأدب العراقي عانت من نفس المرحلة التي عانت منها - وفيها - أرضية الأدب المصري ، فان محاولات البيض التشتيت عن جمل وعلم قدرة واعية للخلق بأذيال التشيكوفية ومحاولتهم

لكن عبد الرحمن الربيعي في مجموعاته المتتالية (السيف والسيفينه ، الظل في الرأس ، وجوه من رحله انتص) يمارس حزنه الخاص جدا من خلال أبطال منبطعين على الأرض مستسلمين لهزيمة ، حيث يبدون بعمدة على مواجهته لكن بادوت والمجهره بلمه لا يستطيعون - بهذه الادوات والأجهزة - أن يحددوا الأجله أو يعرفوا ما يريدون ، ويظهره سرديه - مصبودة - يحاول الربيعي أن يحدد حالنا - قراء - وأن يجهد أصابع إبطاله التي يترنوا بصناعتهم على قلوبنا .

وينافس أدمون صبري في مجموعته (عندما تكون الحياة رحيصه) أشياء يعوي وبإدراك ، ويلقي بأساسه - العراقي - أو العربي ، لوفود للأحداث ، وقودا رحيصا لوتور يصح ويصنع هذا الصوت العالي الذي ينزع عن الداء عيويه الفن الدنيئة التي تصنع للفن عبقريته ، أن الوعي والادراك محسوسان على الداء لا به ما حول معظم فصوص المجموعة الى افكار تناقض لا أحاسيس تحس وتذكر .

وفي (اعوام الظما) لحسود الجميل : نجد رصانه انطد وسيطرة اللاب على لفته ، وتكاد تكون موضوعات المجموعة هي هذا انتبه الزهيب الذي يفصل المدينة عن التريف ، مما يدكرنا دور قراءة المجموعة بكتابة الشاب زهير الشايب (الطاردون) ، مبشاعرية حزينه يصيح الكآب افراده الربيعين في المدينة (دوز رحيه) حيث تتحول ضحاه الى مجرود وقع مهموم والمدينة تفرسهم في بطة أو في سرعة - مستوعبا خلال كل ذلك معاناته الشخصية لقضايا الفرد العراقي المعاصر .

وإذا تحيينا جانبنا تلك للمجموعات التي اخترناها ، وحاولنا التعرض لبعضها فانه لا بد لي أن أتعرض لقصة نجيب المانع المنشورة في مجلة الكلمة (سبتمبر ١٩٦٩ تحت عنوان (الدفن) ، والقصة تحكي - ببساطة حلوة ساخرة - أنه أثناء قيام البطل بأجازته (الريفية) وردت اليه برقية من بغداد من جاره يقول فيها (مات كلبنا ، ونوو والدفن غدا) ، وقد سافر البطل لحضور جناز كلب جاره ، فلم يجد الكلب قد مات ، ولكنه تعرض لمحنة ساخرة وقاسية إذ أن ابن الجار - وفي وجود محكمين - دخل معه في مناظرة لتحديد أي منهما الأذكى ، ومن خلال هذا الحدث يتسدها عالم نجيب المانع المرقق في المصارقة واللمحات الذاكرة والذي يشع الحزن من خلفيته في فن راق وهادئ وهامس وصادق .

لما انني يجب ان أنوه بقصة محمد خضير (التسميع) المنشورة في العدد الرابع من مجله الاخلاص ، إذ يحرك محمد خضير إمرأه جني وينزلها من فوق السطح لكي تقام مندمجة في احتفال (عاشوراء) ، ويحرك معها عالها الخاص كله (وصف لنا المهرجان الذي الكبري بدل دقه (مما يدكرنا قصيدتك قاسم في روايته : أيام الانسان السبيح) حيث تخرج لربلاء يدخل الاسم والتمردات والتضارعات الدينية ، ويصل بالمرء الحليل الى ازمته التي دامت بينه وبين عذها ادرجي العواصل واصبحت البصه التروا في تلك سماء وبحرك دري ، واد بالمرء : (حررت راسها الترخز على حافة الدله ، دلت المرأة الخليل ليرة ملغوه بالسواد يستند عليها الراس بصورة مائه ، ودن الراس تقاعه محترقه اجواب يعي وسفها يتورد سماء غير أن السلون العجيب الذي يطعمه يوحي بأن الخريف سيأتي عليه لذلك ودون أن يحرق راسها راقت الاضطر التالف وهو ينف على يلف امر حتر احتني حلف طهرها ، وادها يستشرف ذلك الاتواء العبيح للاضطر اول مرة . وحدات المياه الصافية المتدفعه من فواصل امرئ تسيل بحميمها الناعم وانتظرت امرأة الخليل ان يعرفها بئر المرمر ثانية بلذته الغريبة وتوجهه (صوم)

من ليحتم خضير هي هذه القصة قدم لنا الحياة لنا في حركتها الدالية المستمرة المنته القاسية في لغة سيرة متفردة ومريجة حيث نواجه لحظة الميلاد الخشنة ذات المعاناة الخاصة .

أما موسى كزیدی فاني حائر تماما معه ، أحيانا يلتب ما أفهمه وما يفهمه الآخرون ، وأحيانا يلجأ الى هذه التهويمات المبالغ في اغرابها وغموضها ، ففي قصة : طقوس العائله (عدد مايو ١٩٦٩ من الآداب البيروتية) تأخذ هكذا الجزء :

(كانا في نقطة لتجمع الحبول ، ودخلا ضا خلال الحركة ووجدا أنهما بسبيل وضع غير مالوف بدأ يتشكل ببطء عبر أصوات تضج ومصابيح صغيرة مثبتة في بضع مثلثات خشبية مرفوعة ينظمها سلك كهربائي طويل .

— هل تهذا ؟

— انها لا تهذا . ان أصداها التيقية في الريح تظل تخاصم أسماعنا حتى النوم . اننا نحلم بها . فالليل هنا وخلال هذه الأيام لا حدود له ، أبيض رغم سواد منتشر ودافئ في أمكنة ضاجة تكاد أن تحل في الرعوس .

- والزموس ؟

- تهرب بينما يسيل الدم خيوطاً غليظة .

- لم أشهدكما من قبل .

- تعال معي . .

وسارا معا ، وحولهما كانت بعض الزموس حليقة بلحم تحت الأصواء الساعفة من مصاييح سيطرة ثم بطيشه وسط المراتي والشموع المتوقدة وقد صبغت على شغل دائري وهي محبوبة موى منات من الصبيان) .

ان موسى يريدني جعل من الموموس موضوعه المفضل ، وزعم ان الموموس والاياهام قد عطيتك - لغاري احساساً ما ، او محصلة احساسيس دون فهم - احيانا ، إلا ان موسى يريدني - ويجزأه ايضا لا افعهما - يسليتي الاثني : الاحاسيس واهمهم ، وقد جرتي الحديث غمز موسى ليريدني - في بغداد - ان طرق موضوع اعاده صياغة انفسه نفي تسامير هذا الارتباط المختص المجهد أدنى يعاصرنا ، وفي رايس - وهذا اللام موجه الى محمد ابراهيم ميروك غفدنا - ان اعاده صياغة بلغة يجب الا نلون ايدا على حساب قدرتنا على العطاء ، لا بد ان نفهم الجزئيات الصغيرة التي تعطينا الاحساس اخر بالتكوين الكلي ، ان الموموس - واهبهم - الجزئيات الصغيرة هو طمس كامل وقائم للتكوين الكلي ، انني الطرق الثاني في المعاداة ، اللاتب طرف أول ، العلاقة بيننا سواء اكانت حسية او حسية هي التي تصنع للكتابة - وجهد الكتابة قيمتها .

ان الاغتراب وممارسته في الكتابة وما يتبع ذلك من ضغوط الحلم على رؤانا وتأثيره على علاقتنا بالاشياء موضوعات معضلة لدى التتبرين ، لكن موسى كريدني غير قادر على أن يوصل لنا قضاياء حيث تتحول قصصه الى تهويمات لا تون لها ولا راتعة ولا طم ايضا . . رغم أن موسى كريدني في مجبوته " اصوات في المدينة - بيروت) إعطانا انطبعا (واضعنا) بأنه صاحب الباع الأكبر الى محاولات التجديد والتجديد الشكلي

ان قضية الموضوع - اذا كان للموضوع قضية - يطرحها محمد كامل عارف في آقاصيصه ففي قصته (ثلاث قصص من ليزا البولندية - مجلته الكلية - آذار ١٩٦٩) نجد الايقاع الهائلي الذي يكتف العلامة - الواضحة - بين البطل ، وبين البطلة ، بين العراقي الشرقي والبولندية الاوربية ابسارده ، التي فهم امورها بوجه احسن محتكف ومناقص لماهيمنا لنفس الاشياء ، كما انها - قضية الموضوع - تظهر - يوضح في موضوعات خضير عبد الامير (الرحيل - عودة الرجل المهزوم) - حيث لمعتي - ونحس - ونعاني من حسنة الحسانية الفاتكة لدى ليطاله من ضغوط الصراع الطبقي ، فالوت والسلطة والاستبعاد والادماء في احضان الفرق بين ما يريد وما تستطيع ، عناصر راتعة وجديرة بالكتابة عنها - مهما كتب عنها من قبل - وخضير عبد الامير قد جعل ذلك قضيتة الشخصية حيث من خسلالها قد اوضح تفردنا واوصل لنا قضاياء ومعاناته المزوجة بمعاناة أبطاله المختارين بعناية من بين الطبقة الكادحة في العراق .

ان ما تعيش فيه القصة العراقية هو نفسه ما تعيش فيه القصة المصرية ، حيث يكاد يكون انوسك الاجتماعي واحدا ، حتى ردود الفعل الناتجة عن اهزيمه يونيو تكاد تكون واحدة ، ان النكسة التي واجهناها جميعا أصبحت انصت الحمراء التي تشع بالمؤسوعات والاضطال والاساليب والاشكال ، حيث اضع لنا أنه من الممكن أن (نرى جيدا) وان (نفهم جيدا) وان (نفوس في واقعنا جيدا) وان نحاول أن نتذكر أن أسهل أنواع الموم هو الموم على الظهور ، حيث لا اجهاد وايضا لا تقدم ، وفي الوقت الذي يستسهل فيه بعض القصاصين الموم على الظهور ، فان آخرين - قليلين - يفوصون في الاعماق ، ويجاهدون للظفر ، ويجاهدون لكي يشعروا بالظفر ، ويجاهدون لكي يوصلوا لنا معاناتهم . . . بكل اشكال الفن القصصي العظيم .

وهؤلاء - الذين يفوصون في الاعماق - جدير بنا أن نحتمي بهم وأن نشعرهم دائما اننا نشعر بهم .

الإعدام

بقلم: زكريا تامر

أحدنا لم يخاطبه ، فاحتاط الحارس ، ودنا منه ،
وسأله بحدة : « لماذا تقف هنا ؟ » .

قال الولد : « انظر » .

قال الحارس : « الى أي شيء تنظر ؟ الى
مطمم ؟ » .

فأقصر الولد بتبسُّب صغيرة الى عسر
المختار ، وقال : « انظر اليه » .

فقال الحارس متسائلاً بفضول : « أليس
خائفاً منه ؟ » .

فهز الولد رأسه بالنفي ، فقال الحارس
وقد ازداد فيضله : « الأولاد المهلبون يخافون من

المشوقين » .

ومد يده بحركة مفاجئة وانتزع الدمية من
الولد ، فصاح الولد بصوت رفيع متهدج :

« أعدّها الى .. أعدّها الى » .

فضحك الحارس وقال : « قبل يدي أولاً .
هيا قبلها . لا تريد تقبيل يدي ؟ » .

« — أعدّها الى .. أعدّها الى » .

فقال الحارس : « اسكت . لقد سودت
عقابيا لك على عدم احترامك للقوانين . هيسا

اركض والا سلخنت جلدك وحشوته قشاً » .

فلم يركض الولد إنما مشى بخطى متمهلة
حتى صار على مسافة من الحارس ثم توقف

وصاح : « سأحضر أخى ليضربك » .

فالتفت الحارس على الأرض والتقطط
حجراً ، وقلد به الولد وهو يقول : « وأحضر

أمك أيضاً » .

يتدل عسر المختار من أحوال المشقة ، منكس
الرأس ، مضطرب العينين ، مطمئناً ، صاعساً ،
وقوراً ، غير آبه للحارس المكلف بمراقبته والمسلح
ببنادقية .

وكانت الشمس المشرقة آنذاك قليلاً أصغر ،
فحاول عسر المختار البحث عن زسبب أخوئ سطح
النفس لسمائه الباردة ، فتخيل عصفوراً صغيراً
بجاناً يرفض الذهب صباعاً الى مدرسته مترقباً
تهطل . لا مطار كي تبلى رغبته الياس ، وتخيل
وردة بيضاء غافية على سرير حديدي ترتجف
مقرورة ولا تملك من المال ما يكفي لشراء مدفاة ،
وتخيل قطناً سجيناً في الصيدليات يعلم بامتلاك
عاصفه من أجنحة ، وتخيل غيوماً تركض في الأزقة
مفيرة الشباب وتتساجر مع الصغار وتحطم
بجاراتها زجاج النوافذ .

وعندئذ صاح الحارس مخاطباً عسر المختار :

« ما بك ؟ لماذا تبتمس ؟ أتسخر مني أم تفكر
بالنساء ؟ » .

فقول سؤاله بالصمت ، فأردف قائلاً بلهجة
متهمرة : « تكلم . لماذا لا تتكلم ؟ الى متى ستظل
ساکتاً ألم تسام ؟ لا تكن متعجباً فجندي لم يكن
خادماً للحد . أف ! يا له من عمل شاق يخلو من

التسلية ! » .

ومر في تلك اللحظة ولد صغير يحمل بنتاً من
شمع ، فتوقف عن السير ، وحقد بنحوه ورهبه

الى المشقة ، فصاح به الحارس بصوت خشن :

« امش . ممنوع الوقوف » .

لم يتحرك الولد من مكانه ، وبدأ عليه وكان



وصمتت الشيايب المفسولة المعلقة على شرفات
الأبنية بينما كان الحراس يزعق آمسرا :
« أقدام » .

وأضاف بصوت خافت حالي : « ولكن
كيف أقدامها ؟ سأطلق النار عليها . لا لا .
سأكبر عليها من الرصاصات . سأذبها .
لا لا . سأدبر قومي للبيع دجاجة أو خروف .
ماذا أفعل ؟ »

وحلق حيناً في البنت الصغيرة الشاحبة
ثم تهلل وجهه فرحاً ، وسارع إلى أحضار جبل ،
وربطه بأعواد المشنقة التي يتدلى منها عسر
المختار ، ثم سأل البنت بلهجة حانية : « ما هي
رغباتك الأخيرة ؟ ماذا ؟ تريدن مشاهدة فيلم
مضحك ؟ أتى اعتذر لعدم تمكنن من تلبية رغبتك
فساعة الموت لا تؤجل ويجب أن تجابه بخوف
ودون مزاح » .

وشد قلته وصرخ : « الموت للخونة » .
وحمل النمية ، ولف الجبل حول منعها ثم
تركها لتتهوى في الفراغ متارجحة بجوار عسر
المختار . ورغب عسر المختار في الصراخ غير أن
الدموع بللت حالاً وجهه المتجمد ولحيته الطويلة
البيضاء ، فها هو المصفور الصغير يتردد من
مدرسته لأنه لا يتقن سوى الغناء ، وها هي
القوم تمنع من السير في الشوارع العريضة لأن
ثيابها عتيقة مهترئة ، وها هو القطر يؤكل بدلا
من الحيز ، وها هي الوردة تلحق دما ، وها هو
عسر المختار يتنهد جبل مشنقته ويبدو نحسو
المقبرة بينما شمسوس الأرض تتوارى وتنطفئ
شمسا تلو شمس .

ففزع الولد متعاشيا الحجر ثم انطلق يعدو
مبتعداً .

وتنهذ الحارس ياسي ، وقال لعسر المختار :
« انه جيل ملعون لا يحترم أحداً . أعرف
لماذا أخذت النمية مع التي لست متزوجا ؟ » .
لم يجب عسر المختار ، فاضايق الحارس
قائلا : « اياك أن تظن اني سألتها بهيما فقط
صرت رجلا منذ زمان طويل » .
ثم خاطب نفسه بصوت مرتفع : « ماذا
سأفعل بها الآن ؟ » .

وفكر لحظات ثم صاح بنشوة وبعرج :
« سأحاكمها . لماذا لا أحاكمها ؟ » .
ورمق عسر المختار بنظرة حاتقة ، وقال له :
« أنت مخلىء اذا توهمت اني لا أصلح لإدارة
محكمة » .

ورمى النمية على الأرض صارما متجهمة
وصاح بصوت أجش : « محكمة » .
والتفت إلى عسر المختار ، وقال له محلولا :
« اياك والضحك والا شققتك » .

وقطب جبينه ، وقال للدميسة : « أنت
يا بنت متممة بـ .. لقد نسيت التفكير بالتممة -
حسنا . أنت متممة بارتكاب جريمة سأنبتك بها
فيما بعد فهي اعترق ولا تحاولي خداعي فانا
اتقن إطلاق النار . أنت لا تريدن الكلام؟ أفعل
ما يحلو لك ولكنك ستدفعين ثمن تحسديك
للمحكمة » .

وتطلع فيما حوله بعينين فاسيتين ، وقال
مخاطبا جمهورا خفيا : « الضجيج ممنوع » .

الخامس الدائم من حزنبران

بقلم: هاني الراهب

اجسادهم • دوى الطبول يربحها والمكان الضيق
عتمة ودخان ، وابتنسامة عازف الجيتار •
الموسيقى تنهز بين صليل وفحيح وعواء •
صوت القنى يصرخ وحشياً من جوف الصندوق
الأبكم • الصنوج لون زينا أصم ، والأذان
لا تنثقب : تمثلى ، ترمج بالطين ، ويربحها
صراخ الكهرياء من صراخ الحياة • الأصوات
ايضا تعبر اجسادهم • مزيدا من الصخب
والقرقرة • مزيدا من الحلول والتقصص
والنسيان •

القنى الأدنى يهد فمه نحو منخل الميكروفون
هو الذى يطلق سراحه الوحش ، ويده
مستمرتان في قفزة الصنوج • فجأة : تتلاشى
الموسيقى ويعود الضوء • تجسد دورنا الزمان
والبشر • هينان شاندرلان سدرنا في حلم هنى •
يد أبوسية توقفت في منتهى امتدادها • تنورة
موجزة تهوى فوق منتصف الفخذين • كتفان
عاريان تعلق بهما خيطا قميص فضية الابط
والكامل للبل وبعض الحاصرة تلعب في الضوء
الاشهب • بتظال اتشد على الردين والخصر
وتفشفق حول الساقين • شارلستون ١٩٧٠ •
سبح من الشعر الأشقر تفرق فوق الوجه
الوضئ • كهر من السنايل • مصرع الجسم
البشري آن تضاعمت الدورة الدموية وانبهبرت
العروق •

تقرنان على الجيتار • ضربات المعص على
الصنوج • الزر مرة أخرى • اللهب • القلمات
تخفق وتصفق • الميون حائلة وباسيطة
ومشدودة • الأيادي اجنحة واقواس • الجسد
منقوش ومهموم • هو سادر في حلم أو فائر في

عين طويلة خضراء • تخفق • تلعب دونما
وهج • لو كانت أكثر اتساما لشابهت عين
صندوق الدنيا • سحر في بؤرة ربيعية • عبر
شريط صغير ياتيها النور واللون والحرارة •
وحده الشاب ذو السالفين المتهدلين يعمر
السر • يستطيع انترزاغ الشريط أن يشاء • او
بضغط بسبابته على زر اشهب فيتوقف كل
شيء • عندئذ تخبى العين وتصر الى بقعة رمادية
مستطيلة • ولكن لماذا الضغط ؟ سيلتفت
العازفون وتقول امينهم : دع الصندوق يعمل
ان العانة ادق وأصفى •

النور واللون والحرارة ، والأصوات ايضا •
الصندوق اللامع يحطم على حافة •
عصرية متلامعة • يمرج بالاسرار والتكنولوجيا •
اله ونسى صاغته أنامل القرن العشرين • يتسكتم
على أكديس من النوتات الموسيقية • شدة
اصبح ويصغر النغم • « افتح يا سمسم » •
بالرمز لا بالكلمات • المجد للكهرياء والعالم
الجديد ، فالحضارة كلها لأجل فرح الانسان •

صندوق دنيا ، لكن الصور في الخارج •
صور من لحم ودم وصوبات • تنحل في الشعاع
الموسيقى للعين الطويلة الخضراء في سمة امتار
مربعة • تتلاصق وتفرق • تسبح في يم
الأصوات • تمد اجنحة وسيقانا • ترتعش
مشلوحة الهامات الى الخلف ، ملتوية الجدوع •
تميل مع هتاق النحور •

ينطفئ الضوء فوق الرعوس • تشف
الاجساد • تستحيل الى اعمدة قائمة من دخان،
تنلوي وتدور ولا تتلاشى • ضباب من نقشات
السجائر يلهم بالايهام كضوء القمر • أيةخاطر
ورغبات ازدهم بها خيالهم القنى فارسوها في



حميا . يترنح ترنح المساطيل او ينفجر كشربان
جريح . شهى أو جميل أو الاثنان معا . نسيم
نافذ في أسوار السكون والملح والكلس . منطلق
يتلوى أو يدور حول ذاته . يمتزج فينفض عن
خلاياه غبارا وعيونا مرتبسة . ينفض نقلا .
التياب نهضها حمل وركام . يراوغ التصاقها به
ويدفعها . لحم النفس يسبح ويتعري . مطبة
ارمقتها الرغبات والتابوات . هاربا من غرف
النوم والتفكير يرتجل حياة وعافية . مشيحا
بوجهه من القباب والأبراج يقبع في حتم عينيه
المفلتتين . العيون تفسو . الأفواه تنفتح .
الأزياء تتبارى .

عشر أصابع كثيفات الشعر ينفرشن على
مؤخرتها ، ويداعها تشدان عليهن . يسحبنا الى
الحلف ، ويدفعنا الى الأمام . صورة ناقصة
للطبيعة البشرية ، زخرفاها بالرقص والتصورات
حركة تنسى سجعنا اليومى بدلا من سكون تذكره
كان الوجه الآخر للساعات انشودة تلف الأذناني ،
يقطعان حبالها بالتأرجح والاحتكاك .

شاب وفتاة يتركان طاولة وينديان في حشد
المرسج . تصف امتداداته لساعاتها ، قبل أن
يلفها بزنديه . يتعانقان يلتصقان . . . يبطه
يرقصان . رأسها فوق نحره ، ووجهه مغيب في
أشعر السكوب . السيقان فقط منفصلة ،
وهما جذع واحد . أحلهما يراقبون بابتسامة
يابسة . والوالدان تشدان فستانيهما الطويلين
على ساقيهما : صمت في الشغاف وكلمات في
العيون : تلك هي الحياة الجديدة ، في الزمان
الأول لم يكن ثمة شيء من هذا ، لكن الخائمين
يسرقان بنصريهما ولا بأس ، والمأذون أنهى عمله ،
لاركهما زوجين وبعد شعور يستكان معا .

الطفلة المتوجة في العارة والمدرسة تتسحرك
كقطعة برية . عينها حسدة ولكن لا تريان
بها حولهما . لعلها لو فوجئت لتطايرت العينان
شررا . قدمها تخبطان على الأرض والذراعان
جهودتان . فجأة وإذا هي امرأة . عالم مقم
عاصف . لا صديري المدرسة يتصوره .
ولا الكتب فوق الصدر ، ولا نظرات الكبار البهمة
الوقوف . سيقان عرق وارهاق . وإذا كانت
النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام .

العينان الشاردتان شاردتين ما تزلان .
والوجه الأبنم صار صفيحا . كل الحركات
والانفعالات لم يغيب من سينما الوجه . .
تسترسل النظرة في خط مستقيم ، ولا تصابع
شيئا . والجذع ينثنى وينتصب ، ينثنى
وينتصب ، ينثنى وينتصب . شيء ما في ساحة
الوجه المحرور طفا فوق سبة أمتار مربعة .
الحلقة لم تغلق تماما . بين الحين والحين تقطعها
نظرة متحررة نحو الطاولات المشبوبة : من تراه
يجثم هناك ويملك غيثن جاسوسيتين ؟ وحدها
تفصح عن الخوف . وحدها تفكر بالقد .
وحدها ترقص .

دومينيك الفرنسية الطوة مبتسمة دائما .
طويلة ورأسها يعلو على جميع الرؤوس . واثقة
من نفسها وترقص بأصالة . عينها تتألقان
بنشوة ساحرة . بين العين والحين تغفل منها
نظرة الى الجالسين : تعرف أين هي وماذا تفعل :

اللب للكباز والصغار ، الرقص ، وبعدئذ النوم ،
وفي الصباح العمل .

الكتفان المنبسودان يترنحان تحت رأس
مرتج . السترة الكحلية تملو وتنخفض ، تروح
وتجىء . الأجنان نصف مطبقة . الأصابع
تحنس الفراغ الضئيل كاصابع أصمى ، لعل
الرأس المتزهز أن يحمل صاحبه إلى أجواز
السماء ، لعل للنور أن يهبط إلى قلبه فيصيح :
الحق ، الحق . . تباركت الموسيقى . هناك
دالما ما هو أبعد . لحظة انتشار عبر العالم
وفوقه ، تجبل الحواس بالطين والنجوم .

أديب ومائدة جنيان . الصبا والجمال
وخفة النسيم ، رشيقان كازنابق . حاران
خافقان كلهب الشموع . سيدا المرسح .
يرقصان لنهاية العالم . يرقصان لرقص ما بعد
الرقص . عبر حركاتهما السحرية تتحول الدبكة
إلى جريك والجريك إلى دبكة . هاربان من أعين
الكراسي والطاولات . يخشيان المواجهة . كل
من لا يرقص سيقول كلاما . لن يصنفا . الرقص
وبعدئذ الطوفان . لن يخوضا معركة شبه أحد ،
حسبهما أن يعيشا . الآن عدوا يقصيد ميرة
حياتهما عليهما أن يتقدما نحو الموت ؟

ثم يلج من مدخل الكهف شاب كئيب الشعر
طلق المحيا . مينا ينبوع في هدوء الظهيرة .
شاربهاه الدقيقان محض رمز لفتوة البشر .
بجانبه الأيسر يتعلق قراب تملوه قبضة سيف .
وبمنقه يتعلق شال حريري مقصب ، يسدل
على منتصف الظهر ويتدلّى حتى الفخذين .
سترة سماوية اللون بأزوار معدنية كالفضة ،
جيبان على الصدر وآخران على الجانبين ،
عليهما أغلبية مزرة أيضا . نطاق جلدي منشد
على وسطه . ينطال محزم على الفخذين عريض
حول الساقين . سماوى اللون هو الآخر .
الحذاء خف عربي . لابد أنه نسي الخشونة في
مكان ما . فارس أطل من غيب حطين أو قرون
أوروبا الوسطى ، وكانت « الكرامة » آخر معركة
شهدها :

بدرو (بدر) مجد الدين ، هاوى جمجم
القطع الأثرية .

فجأة : تخفت الموسيقى وتلاشى . يتوقفون
من الحركة . لا أحد يريد أن يفادد المكان .
يتوقفون بشبات وصمود . لن يفرطوا بشبر واحد

من المرسح . الأبدان تنتظر بدء العمل ، ساعة
الصفر . والوجوه نافذة الصبر . العيون الشاردة
والباسمة والمحترقة تضطر الآن لرؤية الجدران
والطاولات والكراسي ، والمتفرجين . ينشئ فيها
نزق وعصبية . جدول انحبس مجراه فاحتقن . .
حلم رخي قطعتة الیقطة . عودة إلى العصال
المثقل والتمب .

قبل أن تعود الموسيقى إلى صليها تنسل
منى من بين الحشد . أكثر الوجوه براءة :

- بدرو ، كيف سننتقل ؟ أنقذنا ، يجب أن
نغير الجو . بعد قليل يصيبنا الملل .

- ميمى ! تجربة مذهشة مثيرة ! سننتقل
بالباص ! أسلوب شعبي رائع ، ستشهد أجسامنا
مثل العمال . تصوري ! لماذا لا نجرب مشاهرم
اليسوا بشرا مثلنا ؟ يا لهي ! هذه أخيرا ليلة
سعيدة . يجب أن يكون الآن أمام المدخل .
هيوأ أنفكم .

ينسحب . الشال المقصب يتطاير وراءه .

تصل الموسيقى وتعود منى . تعود الأجساد
السائكة إلى الحركة المستطيرة . الصال
الخارجي بهار . يسقط رمادا تدوسه الأقدام
المنهومة . لمسك الهياكل والألواح والكتب ،
تنشأ الشوارع والعمارات والجبال والأفق .
الخبز والسكّ في ستة أمثار مربعة . المساء
والهواء والتماسر . صبات الإنسان في

كهف العتيق . الصدور مفضوحة ومعرفة . قرع
الطبول انفجارات وصليل الصنوج أزيز رصاص . .
رفصات اغرقت هموم البشرية في قاع البحر
وأطافات مجرم الذاكرة .

يتقدم بدرو مثلكتنا . وجهه الوسيم معكر
وحاجباه مقلان .

- كل شيء جاهز ؟

- كل شيء . ولكن هذه البلهاء المربعة .

- آية بلهاء ؟

- هل جاء الباص ؟

- آية مربعة ؟

- فلاحه . ظننت التمثال عند الباب رجلا
وجعلت تستجليه . وبعدئذ تحولت إلى
وأمسكت ينطالي مكشرة من أسنانها بالبكاء :
يعطيك الهنا يا ولدى ، فرنكبن للاجئین الیتامی
ياكلون بيهم خبز .

الرسائل



وليد إخلاصي

بقلم: وليد إخلاصي

لا أعلم على وجه الدقة والتحديد متى وصلتني تلك الرسالة، ولما كنت من هزة الفصول الأربعة، لقد حصرت الزمن الذي قمر لهذه الرسالة ان تصل فيه ما بين نهاية الشتاء وبداية الربيع، ولما فضضتها كنت اجلس في غرفتي الممتعة استمتع بنور ضئيل وموسيقى صادرة عن مسجلة اختلطت فيها الوجوه فباتت تغطي بين فترة واخرى الحانا لا معنى لها، جعلتني اغرق واصحو في حلم عجيب مزيج.

« التراب الذي تحمل ذراته الضخمة ربح عاتية قادمة من كل اتجاه، التراب كان يصلنا فتحات وجهي فيما الوح في الفضاء بسيف عريض النصله، حتى اذا بدأت قوى تخور هدأت الريح فجأة فتلفت حوائى لأجد رؤوس اطفال مقطوعة تتناثر على الارض وسيبقى يقطر دما - فاصرخ واتراجع ثم احاول ان اهرب فلا اجد لنفسى مهرباً سوى كوخ، فاطرق باباه... ثم اصبحوا واقفل المسجلة، واعدت الى الرسالة التي لبثت زمناً طويلاً دون قراءة، واقفج فيما تقرأ عيناى.

« انت يا قاتل الاطفال، كيف ابيحت لنفسك قطف الرؤوس ورأسك في خطر؟ »

● عضو اتحاد الكتاب العرب

● من مواليد الاسكندرية في ٢٧ آذار (مايو) ١٩٣٥

● حاصل على درجة البكالوريوس في العلوم الزراعية ؛
ودبلوم الدراسات العليا من جامعة الاسكندرية .

● يعمل في هيئة تسويق الفلفل ، ويصاير في الاقتصاد الزراعي بجامعة حلب .

● صدرت له :

قصص (مجموعة قصصية) دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٢ .

ـ العالم من قبل ومن بعد (مسرحيتان) دار الفن الحديث العالي دمشق ١٩٦٦ .

ـ شتاء البحر الياوس (رواية) دار هودات للنشر ، بيروت ١٩٦٥ .

ـ دماء في الصبح الابهر (مجموعة قصصية) دار مكتبة الشهاب بطب ١٩٦٨ .

ـ احسان السيدة الجميلة (رواية) دار الاجيال ، دمشق ١٩٦٩ .

ـ زمن الهجرات القصيرة (مجموعة قصصية) حركة فتح ، ١٩٧٠ .

ـ الايام التي نساها (مسرحية) قدمها مسرح الشهاب بطب ١٩٦٩ .

ـ الطين (مجموعة قصصية) دار هودات للنشر (تحت الطبع) .

« قد يبدو على يا سيدى انى اقتل الوقت بالتسلية ، ولكنى احذر انى جاد فيما اقول » .
كيف تسمح لنفسك بالتعال صفه سقراط وتفتح نفسك بانك شهيد الحسنة وما انت الا تافه تستحق عقوبة قاسية ، لم يعن الوقت لتطيقها .
انتظر منى رسالة جديدة ، واحذر من ان يطلع احد على ما يصلك منى » .

ونار الهم فى راسى ، يقول بانى تافه ، ومن هو حتى يقيم الناس من وراء حجاب . حرخت فى الفرقة :

— ان كنت رجلا فاطهر نفسك .

الرسالة التى يقول انها الرابعة

وهى فى الحقيقة الثالثة :

اعطينى السيدة الصغيرة التى تقطن بقربى ،
والتي كثيرا ما كنت اشتهيها فى وجدتي ، اعطينى
مثقلا صغيرا فيما تقول :

— وضع فى شين الباب وهو لك .

وعندما عسى كحومان على ثوبها الضيق
وتلتصقان طريقا عند ثدييها ، وكأنما شعرت
باللس متليسا بالجريمة فابتسمت حسب الأصول
وأغلقت الباب ، فلمت نفسى على كشف مشاعرى
بصورة فجأة ، وفيما احاول وضع المفتاح فى ثقب
باب البيت الذى بدا لى لأول مرة وسخا ولا يطلق
كانت عيناي تقرأ الرسالة .

« رسالتى الثالثة لم تعط مردودها كما يجب ،
وهذه ظاهرة لم تعجبني وقد خلعت عندي أبشع
الآثار . اكرر فاقول ان حياتك يجب ان يوضع لها
حد فهي غير مجدية » . ولحسن حظك فاني أخبرك
بين امرين . ان تنتهر أو تنفذ فيك حكم الاعدام .
امامك اسبوع واحد للاختيار . »

اسبوع واحد ! تذكرت الآن ، بعد اسبوع
سأحتفل مع اصدقائى بعيد ميلادى . لا بد انة
واحد من اصدقائى يحب المداعبات المرحمة ،
وتذكرت امر الرسالة الثالثة التى لم تصلنى ،
فعدت لتوى أنقر باب الجارة الشهية ، ولم يطل

لم تكن الرسالة مذيلة بتوقيع ، ولكن الذى
اسقط السبجارة من فمى هو ذلك الترابط ما بين
الحلم والرسالة . بعد قليل تحسنت رقبتي
وتساملت :

— كيف عرف كاتب الرسالة ما يدور فى ذهنى
قبل ان يدور ذلك الشئ فى ذهنى ؟

الرسالة الثانية :

قبل ان اتسلم الرسالة الثانية بأيام زرت
صديقا لى اتى بطيه رغم حداثة سنه ورسالته :
« هل ياتى الجنون فجأة ؟ »

— يفترض فى الجنون السبب المادى والملموس

— اعيش حياة عادية ، وحياتى مقسمة ما بين
الوظيفة والمقهى والبيت ، وفى المقهى كما تعرف
أحاديث رفيقا اسوياء يقرأون الجرائد بانتظام ،
وتتحدث فى هوامش الأحداث فلا تنصب . وفى
البيت استمع الى الموسيقى وأنا فى هواجس محددة
ولا ازم نفسى بكتابة الرسائل الكثيرة ، ولكنى
مع كل ذلك أجسد نفسى مدفوعا لرؤية احلام
مفجعة ، وقد أكتفى .

ورن جرس الهاتف فى العيادة فعدت الى
التي لم احده عن الرسالة الغريبة . وعندما
التفت الى من جديد قلت له :

— هل ابدو لك سويا ؟

« سويا ! أنت اعقل من سقراط »

والذى اذهلنى فعلا عندما تسلمت الرسالة
الثانية ، انى غرقت لشوان عديده فى حلم آخر .

« كانوا ينادوننى بسقراط فيما اجلس على
كرسى قديم ويبدى كاسى السم . وتحسنت لميق
المقتولة كعناقيد عنب غير ناضجة . ثم بتسمت فى
وجه فتاة صبية المهيئين كهلة الشعر وقلت لها
قبل ان أتجرع البسم . من أجلك اموت . ثم
صحوت . »

وقلت لنفسى :

— لا بد أن هذه الرسالة تكلمة الاولى فالحظ
الذى كتب به العنوان لا يختلف عن سابقيه
وجعلت أقرأ بكل حواسى .



يستمره بعد الآن لأسباب كثيرة ، أولها أن البساط
ما كنت يبعثه في شيء ، وثانيها أن الرجل لم يعد
له شيء ، وثالثها أن الغائب قد قتل على حدود
الأرض التي احتلتها . . . كان يشاطرني البيت
والعمل ، ولكنه رجل فجأة بعد أن ترك لي رسالة
وداع وبساطه الأحمر الذي جلست عليه أفكر في
الرسائل الثلاث التي شددت حياتي إليها ، وبالرغم
من أنني ما كنت مقتنعا تماما بجديتها فقد بدأت
أحس بالخطر يحوطني من كل جانب .

ليس أمامي سوى أسبوع واحد ، لذا فإن
الفكرة التي طرأت علي كانت تتعلق بوضع خطة
أتعرف بواسطتها علي جميع أنواع خطوط
اصدقائي فاعثر عن طريقها علي الفاعل الثقيل
الظل الذي خيم علي وجودي كالرطوبة . بعد قليل
احسست بالملل القائم فافلحت عن الفكرة
السببية ، فالفاعل لن يكون حتما من بين اصدقائي
الذين سيحتفلون بعيد ميلادي بعد أسبوع . وأنا
بدوري لن أهاب أوراقا مجهولة المرسل غير مذيلة
بتوقيع . وأغفوت علي البساط فرأيت صديقي
الذي استشهد يلوح لي بيده فيما يقف على الشاطئ .

انتظاري فقد أطلت الصبية التي يبدو أنها عادت
لتوها من عمل المطبخ ، وقالت لي « حرم »
- نعم . .

- أنت تعلمين أن الرسالة الثالثة لم تصلني .
قبل أن تتكلم استدارت عيناها العسلتان ،
ثم عثفت بصوت حاد :

- رسالة ؟ أية رسالة !

- الرسالة الثالثة وأخشي أن تكون مازالت
عالقة بشق الباب .

فلم تلبث أن تمتد « وقع » ثم اخضت وراء
الباب المفلق . .

يا لحماقتي أضعت آخر فرصة لي في أن أكسب
ود المرأة التي أريد . وانكفات علي نفسي أحامها :
خوف من مجهول ، حاقة لا حدود لها ، استسلام
خطر الوهم الذي يخلفه فراغ عايت . وشرعت
أفكر في تمزيق الرسالة إلا أن فكرة طارئة تبنت
لي فيما أرتب الرسائل الثلاث على الديوان مفترشا
البساط الأحمر الذي تركه عندي صديق ولن

الآخر من نهر صغير تجرى السماء فيه دون توقف
• • علمت انه يناديني ، فحاولت ان أحمل ساقى
على التحرك لكن حذائى كان حديدى الثقيل فلم
استطع ان أتحرك •

لثلاثة أيام لم تصلنى فيها رسالة

شغلت بأعمال اضافية فى وظيفتى دوت على
تعويضاً مغرياً ، وكنت أعود الى البيت فى ساعة
متأخرة فلا أفعل شيئاً سوى النوم ، وبعد مرور
أيام أربعة أحضر الأذن يريد الصباح فوجدت
رسالة فميزت خطها الذى أصبح مألوفاً لدى من
بين عشرات الكتب والرسائل ، فاختلطت الرسالة
من بين الأوراق • وسارعت الى ركن فى الغرفة
يختبئ ، وراء خزانة حديدية وجعلت ألثم الأسطر •

« بعد أربعة أيام تنتهى المهلة ، أرى انك لم
تتخذ بعد قرارك هل تظن أن الأعمال أو التجاها
سيمعطى نتائجه • • لقد ثبت لنا خلال إهمالك فى
كسب المال انه مهما حاولت الهرب فإن أيامك
تفودك الى اللحظات الحاسمة • »

من هو الذى يفيد من موتى ؟ لم أملك شيئاً ضرورياً
لأحد ، لم أخط رأياً فى حياتى يزعج انساناً أو
يناقض رأياً آخر ، مسالم كحمل وديع ، محبوب
من رؤسائى ، مطيع وطيب ، وعندما نادونى
الصديق ليحارب تأملت ، وحين بلغنى نبأ موته
بكيت فعوطنى طبيعياً •

الرسالة القصصية •

« لأنك طبيعى الى حد لا يطاق فاننا قررنا ،
بمجرد أن تمت محاكمتك وأدانتك ، قتلك •
نستحدد الطريقة يوم غد عند مدخل المدينة
الشمالى قرب الجسر الذى جف نهري »

واظلت ألثم فى حروف الرسالة كما لم
أفعل من قبل ، وضعتها بالقرب من الرسائل
الثلاث السابقة ، يا الهى • وكأنى رأيت مثل هذا
الخط من قبل ، الجبر أعرفه • وطريقة التوقيط
المائلة لحرف الباء • جلست على البساط الأحمر
وحصرت تفكيرى فلم أهتم الى حل • قدأ يوم
ميلادى ولن أماند الأصدقاء الذين سيجمعون
فى منزلى وسأفقد توازنى من السكر وسأسى
وسأخرف الرسائل المربعة بشموع كعكة العيد

وسأهتف من كل أعماقى « أنا لا أخاف أحداً » .
ورنت فى أذنى كلمات الصديق الذى مات ، كانت
تختلط بصوره يتحرك فى الغرفة نرقاً يقول لى
« يجب ان نفعل شيئاً فالذين يموتون هم الذى
يعيشون فعلاً » • ونظرت الى البساط أحمسه
بعنان كما لم أفعل من قبل وكانى عاقر تعانى
طفلاً لا يحلم به •

الرسالة التى لم تأت

توقعت صباح ذلك اليوم ان أجد رسالة
الرحمة تحت الباب ، ولكن انظارى حتى الظير
لم يفد شيئاً • وابتدأ القلق ينتاب حواسى
ألمت • ان صاحب الرسائل جاد ولم يعد الأمر
مجرد مزاح ، وخطرت لى فى ثوان فكرة الانتحار
ثم تلاشت لتحل محلها فكرة جديدة سرعان
ما أصبحت ثابتة • أردت ملابسى وتوجهت نحو
المدخل الشمالى للمدينة وقد قررت ان أحمسى
ذلك العايب بأرواح الناس ، سأقول له انى
لا أخاف الموت وسأقنعه كذلك بمخف عدالته •

وهى اللحظة التى انكالت فيها على حافة الجسر
الذى جف من تحت النهر ، جعلت أحمقى فى الماء
الذى كان من الممكن ان يجرى فتظهر صورتى
فيه • استمرضت كل حياتى ، مرت أيام عمرى
أمامى متلاحقة بثبات لا يطاق فاعضمت عيني شيئاً
من الماء الذى لم يعد يوجد • كان الأفق خالياً ،
ولم يحضر أحد • حسناً فانى سأنتظر حتى
ساعة الغيب ولن يضرنى الانتظار فانى أزداد
قوة لمجابهة التحدى • بعد قليل جعلت ألسنى
بالكتابة على رمل مجرى النهر القديم ، رسمت
طيوراً وأسماكاً ، خططت مدناً مسورة ، كنت
أستمتع كطفل فيما أكتب أسماء أصدقائى
الذين ينتظرون عودتى ليده الاحتفال • حزنت
فيما أكتب اسم الصديق الذى مات ، كتبت
بالخط العريض « حياتى طبيعياً وعادته » وتاملت
ما كتبت بسرور فالغيب الذى يقترب عكس ألوانا
جميلة على الأشياء المكتوبة على الرمل • فجأة
توقفت مذهولاً ، ليست الصفا فى يدي وأنا
أحمق فى الكلمات التى رسمتها بيدي ، الخط
مألوف والنقط المائلة لحروف الباء ، والحقيقة
أصبحت مائلة أمامى بوضوح رغم ان الشمس
كانت قد غابت تماماً •

لم أجد انساناً طبيعياً ، هل جئتم ؟

اطلالة على القصة القصيرة في سورية خلال ربع قرن

بقلم : حيدر حيدر

في البدء لابد لي من القول : انني لست ناقدًا . ورغم انني حاولت مجرباً فيما مضى أن اسير بعض الخطوات في هذا الدرب إلا أنني توقفت .

ليس مبالغا ذلك القول : أن في أعماق كل ناقد فنانا خالفاً يسمونه بأنه فاشل . لكن عكس المقولة يمكن أن يكون صحيحاً أيضاً .

انني اؤمن بأن عملية النقد هي عملية خلق، بينها وبين الآخر الفني وشائج قديمة . كنا أؤمن أكثر بأن الكاتب الأصيل يتحرك في أعماقه الناقد والمهاجر والروائي والمسرحة والفيلسوف والسياسي ، وهو بهذا المعنى يحتسب هممه ومطبات هذا العصر بنسب متفاوتة ، وفي جنيح هذه الأبعاد إذ يتحرك فيكل زخم أصالته وبكل الضيق والوشوش والعنق دون أن يسف أو يهلي . فثمة مستوى معين يمكن لمسيرته تجاوزاً بالرائز الموضوعي لا يهبط الكاتب الأصيل إلى مادونه ، غير أنه في فن ما يتجلى أكثر ويتجاوز هذا الرائز ، وفي هذا التجاوز الفد يحتار هويته: شاعراً أو روائياً أو مسرحياً أو ناقدًا . . الخ .

هل كان على أن استوق هذه المقدمة وهل هي مقنعة وهل ستجور لي التقص في دراستي هذه عن القصة القصيرة في سورية والتي حملتني مشقتها مجلة « المجلة » في طردها الخاص عن القصة القصيرة في الوطن العربي ؟

لست أدري سوى انني قبلت المهمة اسهاماً مني في محاولة كسر حلقة من الطوق الاقليمي المضروب على الثقافة في وطننا العربي .

مع ندرة من الدراسات ومحدوديتها حول القصة وغياب الناقد الأدبي المتخصص غيباً شبه كثي في القطر السوري ، ليس منهلاً بقدر دراسة متكاملة حول هذا الموضوع .

ان ذلك سيكون ضربة من الجسافة التي تعتمد بالدرجة الأولى على قراءة التؤلف من الانتاج وبعض المراحل الضعيفة القديمة وبخاصة النتاج المراحل الأولى من ذلك كالمسلسل



حيدر حيدر

- من مواليد ١٩٣٦ .
- تخرج في معهد دار المعلمين بحلب عام ١٩٥٤ ، عمل بمنطقاً مطعاً في الزيف .
- انتقل الى مدينة طرطوس عام ١٩٦٢ لدراسة اللغة العربية في القسم الاسكندري من مدرستها الثانوية .
- طبعها للجدية في عام ١٩٦٢ وامضى فيها ضابطاً اربع سنوات ثم بعدها الى عمله في وزارة التربية .
- صدرت مجموعته القصصية الاولى « حكايا النورس المهاجر » من وزارة الثقافة عام ١٩٦٨ .
- صدرت هذا العام مجموعته القصصية الثانية « الوصف » من اتحاد الكتاب العرب .
- يعمل حالياً في اتحاد الكتاب العرب منتدباً من وزارة التربية .

الأربعينات حتى مطلع الستينات ، وملاحظة الواقع الأدبي من خلال التمسك اليومي مع الأدباء .

سيكون تصفا لو بدانا بتقسيم زمني لأجل القصة القصيرة في سورية وذلك لسبب أساسي : أن قسما من أجيال أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات ما يزال مستمرا في الكتابة ولو كان ذلك بوهن .

لكن سيكون عادلا لو قلنا أن هذه الأجيال المتناحرة حاولت وتحاول أن تؤسس لهذا الفن الجديد على الأدب العربي ، دون أن يكون هذا التأسيس معزولا عن تطور ونمو القصة القصيرة في الوطن العربي والعالم .

من حيث النشوء والتقاليد الحضارية والأصول الأساسية المرتكزة على أرض مهيمنة سابقة ، تبدو القصة القصيرة كالمسرح رغم أنها أرسخ قديما منه في سورية .

فعلى مدى ربع قرن تقريبا ما يزال هذا الفن الجديد منعزلا متائلا من الصعب منحه هوية متميزة عن القصة في الوطن العربي والعالم ، كما أنه لم يمتلك بمقد مكتبة يمكن تصنيفها والعودة إليها على عكس هوية ومكتبة الشعر المتنامية والمميزة .

ولعل هذا يعود أساسا إلى أن ثقافة العرب الحضارية الأولى بدأت بالضمحل .

لهذا يمكن القول - مع الاحتفاظ باستثنائات نادرة - أن البدء في كتابة القصة القصيرة كان في ملامحه العامة نزوعا تجريبيا اكتسب في كثير من الأحيان طابعا هامشيا ومؤقتا . وقد غلب هذا النزوع التصوري الخاطئ من سهولة تناول هذا الفن والمنساحات التي كانت متوفرة في الصحف والمجلات الكثيرة التي كانت تصدر في سورية طيلة الخمسينات ، أضيف إلى هذه العوامل عامل المنافسة والتوكيد الذاتي وحجب الشهرة .

إن الانقطاع والصمت والتحول نحو دروب أخرى فيما بعد ، أحدث خلا في ذلك الإزدهار الشكلي والكمي على الأقل ، والذي كان نغما في مرحلة الخمسينات . وهما كانت الصوامير الذاتية والموضوعية التي صنعت هذا الانحسار مقلصة تلك القفزة بداية اصطفاة نوعي ، فالنقطة التي كان الانطلاق منها وهي التجريبية والهواة تظل صحيحة بل ويؤكدنا هذا الانحسار والتوقف .

بدأت القصة القصيرة السورية في الأربعينات باسماء لم يبق منها في مطلع الستينات غير عبد السلام العجيلي أحمد الرواد الأوائل التي

انتهى إلى أدب الرحلات والتجارب الشخصية التي عاشها أو راقبها خلال تجواله كسائح في العالم . أما لماذا انطلق اسم قواد الشباب ونصيب الاختيار وعلى حتى ومحمد النجار وميشيل عفلق وسلي كيالي ومظفر سلطان ، العيسل الأول للقصة القصيرة في سورية فإن الأسباب يمكن تلخيصها بالعوامل التالية :

١ - أن القصة القصيرة كانت في حياتهم شيئا طارئا أقرب إلى الهواية منه إلى الاحتراف .

٢ - العامل الوظيفي الذي امتص وقتهم وربما كان قواد الشباب واحدا من أبرز الضحايا للوظيفة .

٣ - لأن كتابة القصة القصيرة لم تكن أصيلة في أعماقهم اختاروا مجالات أخرى في الحياة سياسية أو صحفية أو وظيفية يؤمن لهم مجالا أفضل ماديا ومعنويا .

٤ - الشعور بلا جدوى هذا الفن .

٥ - الإحساس بالتصور في مجال الإبداع . أن هذه العوامل المقيمة لم تكن وقفا عليهم ، فثمة أجيال تلهم من كتاب القصة القصيرة صمتوا فيما بعد للأسباب نفسها مضافا إليها بعض العوامل الأخرى .

غير أن هذه الطليعة الأولى رغم قلة تأثيرها وقصورها عن تأسيس مدرسة محلية بالعنى التاريخي والأدبي ، إلا أنها قد وضعت بعض الصور على طريق القصة القصيرة التي لم تازدهرت فيما بعد .

ما هي التأثيرات العربية والعالية التي لعبت دورها في قصص هذه الطليعة ؟

وضمن أي اتجاه فني كانت تتحرك قصصهم ؟

يقول قواد الشباب : « لم يكن لي استاذ في القصة العربية . أحببت ألف ليلة وليلة في سن المراهقة وأول الشباب وأحببت رسالة الغفران لم تقف لأفرا توفيق الحكيم . وقد يكون لي بين الغربيين استلا من أمثال : دوهايل وأثال فرانس ، وستاندال وأندريه جيد وموبسان وغوركي ودستوفسكي وموراك والأسطورة الإغريقية وأحب سارتر » ويذكر لسبب الاختيار أسماء أخرى منها : سرفانتس وبيزل باك ودانتي وتولستوي وطه حسين وتشيفوف وغاليري وهمنغواي ومورو » .

ويقول عبد السلام العجيلي : « التنوع فيما كتبه ليس مقتلا . قلنا أغرف من منابع كثيرة في الحياة » فقد نشأت في جو البادية الغنية بأحاسيسها والغريبة في تقاليدها وعشت

والحب الفاضل والحجاب والدفاع عن الشرف والفقر والتيسين بين أخلاق الشرق والغرب والتقبل - كانت مجموعها متميزة بحس أخلاقي بورجوازي مسالم - وكان محمد النجار في مجموعته « في قصور دمشق » و « همسات بردي » الاستثناء الوحيد في تلك المرحلة الذي خرق تلك الأخلاقية المسالمة بقصص جنسية قال عنها شاكر مصطفى في دراسته « القصة في سورية » : « لقد كان نشر قصصه في كتاب فضيحة - فقد كانت له بين جماهير المتأدبين هزة - ولقد هوجمت قصصه يمثل العنف الذي تهاجم به الفضائح » .

لكن تلك الجراة في قصص النجار كانت على حساب الشكل المعنى الرديء الذي كان سائدا في تلك المرحلة .

في الحقبة التي تلت منذ صدور مجلة «النقاد» الأسبوعية في تشرين الثاني عام ١٩٤٨ حتى توقفت في عام ١٩٥٨ بقيت القصة القصيرة مناخا فسيحا لا مثيل له في التجريب والكم والهوية والتنافس .

وخلال أسماء قلائل من ذلك الطوفان المعصي لم يستطع أحد أن يقنع الآخرين أو نفسه بأنه متميز وأنه سيستمر .

لقد كانت القضية على ما يبدو من خلال أكثر ما كتب خلال السنوات العشر قضية آنية وطنية أحيانا - قضية عنصر الإصالة والنضال من أجل الاستثمار والتطور الجسدي مفقودان فيها .

فاذا أخذنا كلمة البوت : « لولا تلك القلة من الناس الذين تجتمع لديهم الحساسية الغدة والقدرة الغدة على الكلمات لانحطت قدرتنا لا على التعبير وحسب بل على أن نعبر شيئا سوى المشاعر الجافية » على أنها جوهرية فسنستكون مضطرين إلى إخراج وتنحية الكثير من أولئك الفاعلين للحساسية والقدرة الغدة الذين على ما يبدو كانوا بحاجة إلى ثقافة وتجربة وموهبة ولغة لم يحتاجها منذ البدء .

إن القدرات الواهية والسطحية والسريعة وغير المنظمة والتي لم تتمثل في مخبر النفس ، إلى جانب ضحالة التجارب الذاتية التي عاشها الكثير من كتاب القصة في محيطهم الضيق ، أفرزت خلال سنوات الخمسينات قصصا وقصصين متماثلين في الأسلوب والفلسفة والمضمون . لقد كانوا استمرارية وليس المتميزين بالشباب والعجلى والتجار وناسا للأسماء العادية الأخرى التي عبرت كنجوم مسيف في سماء القصة السورية . إن هذه المسألة تفسر

في أجواء المدينة المعقدة الحياة المزدهمة المواقف . ودرست العلم وهويت الأدب كما أتى مارست السياسة سلما وحربا (اشترك العجيل في حرب فلسطين ١٩٤٨) . وتنقلت في أرجاء المسالم الواسعة فتوفر لي من كل ذلك ذخيرة من التجارب والدلالات والأفكار ما أعانني على كتابة قصص متباعدة المرامي والأمكنة والمواضيع أنني لم أتكلم على قصاص أو رواية بعينه وقد يكون اثر في كل من قرأت له . أنا أدب بلدة انفراد لكتاب قصص العرب القديمة الأدبية منها والشعبية ولقصص المغامرات المترجمة حتى البوليسية منها .

إن الحديث عن التأثير قد لا يختلف كثيرا بينهم جميعا وهو ينوس بين التراث العربي والقراءات الأجنبية ، وهذا التماثل يستصعبم في به في التجربة والأسلوب واللغة . ولعل اغتراب الشباب والعجلى قد أطماعها بعض التمايز عن الآخرين . فقد قدمت تجربة الغربية والرحيل اضافها ذات نكهة خاصة ومثيرة في «تاريخ جرح» للؤاد الشباب « والحب والنفس » « والخيال والنساء » لعبد السلام العجيلي .

في تلك المرحلة التأسيسية كان الاتجاه الفني هو الواقعية التي تنحدر حول حادثة ويطلب يفرزها الكاتب من الحياة الاجتماعية اليومية ، وكانت القصة القصيرة في عصرها الذهبي الكلاسيكي ، بداية ففقدت فصاحا فخالة تحمل الصراع ، وغالبا ما تكون النهاية مأساوية . وكان الولوج بالتيار الواقعي في القصة يصل إلى حدود دمج العامة بالفصيح أو التقسيم للنص بأنها واقعية جرت حوادثها فعلا وإبطاها ما زالوا أحياء ، وكان الكتاب في تلك المرحلة يعتقدون بأن أقصى الجودة والتمايز والإبداع ينجلي في القدرة على التقاط صورة أو حكاية شعبية أو أبعاد القارئ عن طريق التبسيط والحوار العامي بواقعية قصصهم . منسند الأربعينات حتى مطلع الستينات - باستثناءات متفرقة - كان هذا الاتجاه الساذج هو المسيطر ، ولهذا فإن تلك المراحل من تاريخ القصة القصيرة في سورية قدمت نماذج قصصية متمسكة بقصصين مختلفين إلى حد كبير .

كانت ثقافة العجيل وتجربته البيئية نافذة وعي اضافت بعض قصصه بالأسطورة والتحليل النفسي ، كذلك أتاح الاغتراب للؤاد الشباب أن يقدم بعض القصص التحليلية ، ولكن ذلك ظل داخل الإطار الفني الواحد المتكرر الذي يعتمد الرد والتسجيل والأسباب والاستبطان والوصف . كما تميزت تلك القصص وفي مراحل تالية بنموضوعات متشابهة تقريبا من التقاليد والزواج

التجارية. والتمثال بين مجموعة لا بأس بكثرتها
من كُتّاب القصة بحيث يصعب التمييز بينها
وخاتمة من الأسلوب واللغة والبناء الفني العام .

كانت « الإنتقاد » متبرا حرا ومبدئا موسميا
يشبه سوق المزيد أو عكاظ وأخسر ما كانت
تسمى إليه أو تفكر فيه هو عنصر الاستطفاة ،
وكان حيادها الفني انعكاسا لحيادها السياسي ،
فكما كانت تنشر قصصا وديثة لكتاب من الدرجة
الخالصة وقصصا لكتاب من الدرجة الأولى ،
كذلك كانت تنشر لكتاب يمثلون أقصى اليمين
واقصى اليسار .

يقول ماثيو آرنولد : « ما ليس بمتع هو
الذي لا يضيف أى شيء الى معرفتنا . هو ذلك
الذى يتم تصوره في أذهانهم ويتم عرضه في تفكيرك .
هو عرض عام غير محكم . واه بدلا من ان يكون
خاصا محكما ثابت الأركان » .

فإذا ما طبقنا هذه الكلمة المركزية والعيقة
على نتاج القصة القصيرة في سورية خلال تلك
الحقبة من الزمن ، فسنكون مضطرين بلا ندم
الى اعدام تسعة اعشار النتاج القصصى الذى
كان يبينه وبين الاضافة والامتناع والاحكام مئات
السنوات الضوئية . ان بعض الكتابات النقدية
التي نشرت في كتيبات أو في الصحف والمجلات
والتي اشتملت على الميزة في التفصيل
واللاموضومية ، كانت منطقيا انتقالية انتقدت
من ذلك الركام القصصى المفكك والمقلد ولتتسم
بسداجة وحيانا بتبلد ذهني واضح .

كانت الواقعية كثير في البسده مرحلة
انتقالية من الرومانسية ، لكن السرد على
الرومانسية المعرطة بواقعية جافة وشكلية واكثر
اغراطا تتمثل على نحو ساذج في معظم القصص
القصيرة في سورية في حقبة الخمسينات .

ومع أن احدى كتابات القصة القصيرة في
سورية وهي قمر كيلاني تقول في محاولة رد على
الواقعية الكلاسيكية : « في العصر الحديث
تحطم مفهوم القصة القصيرة ومفهوم الرواية
من حيث اشتمالها على الحوادث والعقيدة
والمفاجآت والحل وما شابه من مقومات القصة
أو مئصر الرواية . تحطم هذا المفهوم مع لتسلي
المنهم من الأدب الوجودي والاعقلاني على تيار
الوعي والدواعي كما يعتمد التساخي النفسي
والرجوع الى اعماق النفس الانسانية في كوهها
وزواياها الغامضة حتى غلت معه القصة أو
الرواية نوعا من التجسرة النفسية لا أكثر
لا ترتبط بالأحداث ولا تعتمد العقدة ولا تهتم
بالخاتمة » .

الا ان هذا التصريح يظل في مجال التجريد
والامنية الكامنة في اعماق نفس الكاتبة ، وتظل
قصصها اقصر وأجلب من ان تحقق النسبة
المعقولة من القصة للنفسية أو قصة تبار الوعي .
لقد كان قسم كبير من كتب القصة القصيرة وفي
تلك المرحلة بالذات مهووسا بالاطلاق الموارعظ
والاحكام والكلمات الارشادية التي استقها من
خلال بعض قراءاته أو من خلال مشاعره
الداخلية ، لكن الندرة من هؤلاء استطاع ان
يجسد في قصصه شيئا من هذه الموارعظ
والاحكام .

في القصة أو الرواية أو المسرحية أو اى فن
آخر ليس صعبا على كاتب يتمتع بثقافة وسطى ،
مع ادراك اولى لواقع المجتمع ، أن يعبر عن أزمة
هذا الواقع وأزمة انسانيته ، وأن يحلل المشكلات
الأساسية فيه ويرسدها . ان السؤال ليس في
معرفة الخطأ والصواب وإنما السؤال هو : كيف
نتحدث من هذا الخطأ وهذا الصواب ؟ وهذا
السؤال ليس قانونا على الإطلاق في العملية
الأدبية . ان القضية الفنية في الأسلوب واللغة
والبناء مطروحة هنا بحددة وهي مشتبكة بشكل
عضوي مع المضمون . لم أنها التي تفسايز في
النهاية بين كاتب وآخر في عصر واحد .

ان قصصا بطروفا ومستمرها حتي الآن في
الكتابة هو صعب كيالي يقول : « أنا كاتب
واقعي وأجد الواقع أمتع من أى خيال وأبحث
على العجب . والقصص مهما يكن نوعها يجب ان
تكون قطعة ، جزءا دافئا نابضا من الحياة .
والبراعة في ان يجعل القاص (الكل) يترأى من
خلال هذا الجزء » .

ويقول عن الواقعية التي ينتمى اليها بانها :
« واقعية الدجشة وهي إعادة استكشاف العالم
هي رؤية جديدة للعالم ! رؤية يعنى طفل » .
ان هذا الاطلاق يذكرنا بالاطلاقيات الأخرى
من حيث الرغبة التجريدية الكامنة والتي لم
تخرج الى الضوء . فتعبير واقعية الدجشة
وإعادة استكشاف العالم تعنى إعادة صياغة
الواقع بطريقة جديدة وتقديم قصص أبعد
ما تكون عن النسخ الواقعي لما هو قائم . وإذا
كان الفن يهدف فيما يهدف اليه الى النضال
الحاد ضد البؤس وبؤس ومروارة الوجود الانساني
بحثا عن الضياء والخصب والفرح ، فما الذي
ستنجنه في تقليدنا الفني للواقع ضمن المعامل
الفني أكثر من التكريس الفجر للبؤس والرارة
للقائمين في وجهه » .

ان اللجوء الى الانتماء العضوي بالواقع
لنقله فقط واستعمال اللغة الدارجة والغسل
الجوانب الواقعية أيضا من حياة الانسان كالحلم

والأسطورة وتيار الشعور واللاشعور وخركة الزمن ، هذه الجوانب المحرصة بفعالية في حياة وواقع الإنسان نسيانها والتخافي منها لا يقدم لنا أكثر من لوحة منقولة من الحياة بدقة وإمالة، لكنها لوحة ناقصة مع الأسف .

تقول نالاي سلوت : « هناك نوعان من الواقع والواقعية بالنسبة للكاتب . الواقع الذي يعيش فيه ويراه الناس جميعا منذ الوهلة الأولى وهذا الواقع هو الذي تعيش فيه الحياة اليومية . وهو أيضا الذي درستته واستخدمته وعبرت عنه مرارا بالأشكال الأدبية المطروقة . وهذا الواقع اليوم مجال الصحافة ويعتمد التعبير عنه على الوثائق والتحقيق الصحفي ولكن هذا الواقع ليس المجال الذي تعمل فيه طاقة القصص الشخصية . فواقع القصص هو ما لم يعرف بعد ، وهو بالتالي لا يمكن التعبير عنه بالأشكال المطروقة والمعروفة بل يقتضي ابتداء طرق جديدة للتعبير وأشكال وقوالب فنية جديدة . أن الفن كما يقول بول كلي : لا يربينا ما هو منظور بل يجعل ما لا نراه منظوراً » .

إن مدرسة تشيخوف وغوركي وزولا في عصرها كانت واقعية مبدعة مليئة بالصراحة والنبيذ الإنساني النابعين من أعماق الكاتب الذي كان يضيف و يكتشف ، إلا أن هذه المدرسة وهي تنقل من أرضها إلى أرض أخرى بدأت تفقد حرارتها ونبيضا وتحول إلى واقعية ذاتية مفرطة ، بليدة وسالجة . لقد كانت الواقعية في معظم القصص السورية بلا أصالة ولا مرتكزات ثقافية . وكانت الوجهة مجسدة بشكل يدعو إلى الرثاء .

إن عشرات القصص التي تقرأها لياسين رفاعية ونائد سميد وفارس زرزور وعادل أبو شنب وسلمي الحفار الكبرى ونصر الدين البهرة وجان الكسان وجورج سالم واسكندر لوقا وعادل سلوم ، في تلك المرحلة القصصية كعبا تفقر إلى ما أسماه « أدنولد » الإضافة والتأيز والإحكام . وهي تقليد مشوه لمدرسة تشيخوف وغوركي وزولا وتتناول موضوعات عادية ذات أثر أدبي قليل الأهمية .

كان عنصر الإبداع شبه مفقود في عدد كبير من القصص ، هذا العنصر الذي شجع وانبتق بشكل واضح عندما ظهرت قصص محمد حيدر وذكريا تامر ومصطفى الحلاج وسعيد حورانية وغادة السمان وصديقي اسماعيل .

إن التحليل والمراقبة الدقيقة للنوعية الفنية لنتاج القصة القصيرة في تلك المرحلة يفضيان إلى نقطة جوهرية هي : أن الموروث

القصص السابق كان شحلا وفقرًا ، وإن الذين تحدثوا باعتزاز ذاتي عن أن كل كاتب هو مدرسة قائمة بذاتها وهم يعنون أنفسهم بطريقة لا مباشرة . كما يصرح القاص نزار مؤيد العظم باسمهم ، معلنا ذلك تحت ستار لافتة فيها الكثير من الكبرياء غير المقنع : الموهبة والإصالة . هؤلاء ربما كانوا في الطرف الآخر المناقض تماما ليس من شك أن الموهبة والإصالة أساسان جوهريان في صلية الخلق الفني ، ولكن أن يكون أي كاتب وخلال مدة قصيرة من عمره الأدبي ، مدرسة مستقلة وهو مغرور في تقليده الأبرز لتشيخوف أو غوركي أو زولا أو غيرهم من العالمين ، فهذه موضوع غير منطقية لا تنفع حتى أولئك الكتاب ذوي الظلال الكبيرة .

فإن جانب الإصالة والموهبة توجد أمور أخرى أساسية هي الأخرى إذا لم يحترها الكاتب تظل موهبته وإصالته غيبا في صيف فائض بعد لكنه لا يمنع مطرا ، وفي مقنعة هذه الأمور الوعي العميق للجدور التاريخية والنفسية لواقعهم وللإنسان داخل هذا الواقع التاريخي في الماضي والحاضر ، وعلاقة هذا الواقع والإنسان القوميين بالواقع والإنسان في العالم ، بمعنى آخر فهم واستيعاب الوجود البشري ومحررات هذا الوجود ضمن مراحل تاريخية باطالها الاقتصادية ، والسياسية ، والنفسية والثقافية ، فهما واستيعابا عميقا واضحا مركزا . وهذا الفهم والاستيعاب هو حجر المسن لصلق الموهبة وخلق كشوفات جديدة شديدة الذاكرة شديدة التركيز والكثافة ، كما أنه يعدد بدقة الفرق الجوهري بين أدب عميق خالد وأدب سطحي آني . وبهذا المعنى يقول كولردج : « أن الفكر

العميق لا يصل إليه إلا رجل عميق الشعور وأن كل الحقائق هي نوع من : لكشف والاكتفاء » . لقد كانت تلك المرحلة الخطرة من حياة القصة القصيرة في سورية وثائق لا يزال عسدد كبير من كتاب تلك المرحلة يروون ويتباهون بها ، تفقر إلى هذا الفهم والاستيعاب الشمولي والعميق ، وكلمة البوت تصح تقريبا من أن : « بعض الذكريات المستمدة من القراءة والحياة تصبح في بعض الأذهان مفعمة بالقيم العاطفية ويستقل الكاتب هذه الذكريات جميعا فإذا بما يكتبه يكتب الحدة على حساب الوضوح » . ففي قصص كتاب تلك المرحلة الكثير من الذاتية والذكريات الشخصية التي تتسم ببعض عاطفي ذي طابع تراكمي مشحون بالأمم والحزن الفرديين بحيث لا يتغذى إلى الحزن العام الذي ينبغي أن يحسه القاريء . وهكذا كانت الكثير من القصص تدور حول مدارات عاطفية

مذهب الواقعية الاشتراكية الذي أخذ به أدباء الاتحاد السوفياتي والدور الاشتراكية الأخرى والذى انتقل إلى الأدباء في سورية يحتم الانتماء السياسي ، هذا هذا المذهب صليفا ومحاصرا وعاجزا: عن تأطير حتى الأدباء الماركسيين أنفسهم ، ومع أن نشوء الرابطة يعتبر انعكاسا مباشرة وكان يمكن أن يوجه ضد حكم البورجوازية الحامض في سورية ويحس التناقض السري الذي كان قائما بين الكثير من الأدباء وبين الطبقة البورجوازية الرجعية ، إلا أن التخوين الفردي والداي وحالة الفصام التي نادت حاميه بين أتباعه الأدباء وبين الشعب وصاحبه الأساسية ، ورسوخ الروح الإغريقية ، والتشرد السياسي بين الأدباء ، فسهم ، كل هذه العوامل جعلت من الرابطة مجرد ذكرى فيما بعد .

لقد حفلت تلك المرحلة بقصص جماهيرية وملتزمه لسعيد حورانية وفارس زوزور وحسيب كيالي واستند لوقا ونصر الدين البصرة وانفه الأدلي وعبد العزيز هلال ووليد مدفعي وجورج سالم .

وكانت تلك القصص نوعا من الارتداد اللاشعوري ضد تيار الانفداع الذاتي والصلمت المير بين الكاتب والسلطة . الصمت الذي كان يجعل الخضم واللامبالاة معا .

لم يكن قضية الشكل الفني في هذه القصص ظلت قائمة كسائل موضوع عنف المواجهه للسلطة والاحلاق البورجوازية الرجعية مطروحا في ميدان القصة في سورية .

في النصف الثاني من الخمسينات ومطالع الستينات بدأت قصص محمد حيدر وذكريا تامر ووليد اخلاصي ومصطفى الحلاج الذي فاز بالجائزة الأولى لمسابقة «النقاد» عن قصته «كل الرجال الا هذه» تظهر كظاهرة جديدة في أسلوب القصة ، وتنامي تطور العجيب وسعيد حورانية الذي فاز بالجائزة الثانية لمسابقة النقاد عن قصته غير المتمتزة طبقا «الطفل يصرخ في الظلام» .

فيظهر هذه المجموعة المتميزة وبخاصة محمد حيدر وذكريا تامر ووليد اخلاصي بدأت القصة القصيرة انطافا فنيا يؤكد ما قالته ناتالي ساروت عن الواقع الذي لم يعرف بعد ، وتحطيم الاشكال المطروقة السابقة وظهور اللامرئي الى ساحة المرئي أو اللاشعوري الى الشعوري . كما بدأ يتوضع في بداية الستينات التمرد الواعي على الواقعي التجسيلية المفضة بالسرد المتسلسل للحادثة والوصف الانشائي الفج والمجل . وهكذا دخلت القصة القصيرة وبشكل فني وصالح عالم النفس الداخلي لتطل على أحرانه وقهره ووحشيته ، غير

واندفاعات نرجسية وعلاقات يومية هائبة لا تشد أحدا ولا تعني إلا شخص الكاتب . كما كان واضحا أن هناك اتفاقا لاشعوريا مبرما بالمحايدة من الأمور السياسية ، وتفاضيا عن السلطة الحاكمة وهي سلطة بورجوازية ذات ايدولوجيا دينية رجعية ، وكان توافرا مقصودا أو غير مقصود بين الكاتب والسلطة كان يتم في كثير من الأحيان على حساب الجراة والاحتجاج وفضح الطبقة البورجوازية الرجعية التي امتصت دم الشعب تحت ستار المفهوم الوطني المزيف .

لقد ظهرت بعض القصص الوطنية التي تجمد الحركة الوطنية المعادية للاستعمار وتجمد الثوار الذين قاوموا في الماضي الغزو الاستعماري ، وبعض القصص عن فلسطين في قصص العجيب وحسيب كيالي وعادل أبو شنب وسعيد حورانية وفارس زوزور وعبد العزيز هلال وفاضل السباعي . ولكن تلك القصص كانت تبدو يتيمة ومعزولة عن التيار العام الآخر . في أواسط الخمسينات تشكلت رابطة سميت (برابطة الكتاب السوريين) تدعو إلى ما سمته أدب الشعب (ردا على النظرية التي كانت سائدة آنذاك) الأدب للأدب أو الفن للفن) ، وقد دعا إلى هذا التجمع مجموعة الكتاب الماركسيين ومن أبرزهم : اليان دبراني وحسيب كيالي وسعيد حورانية وحنا مينه وصالح ذهني ومواهب كيالي وشوقي بغدادى ونصر الدين البصرة وفنرس زوزور . وقد ضمت بعض كتاب القصة الآخرين من غير الماركسيين .

طرح الرابطة لأول مرة موضوع الالتزام في الأدب ، وكان واضحا منذ البدء أن مفهوم الالتزام الذي طرحته هو ود مباشر على النزعة الذاتية والرومانسية التي كانت سائدة ، وقد قام فريق من كتاب القصة ببيان الرابطة وهذه الدعوة التي وسعت بأنها «جذائفة» تريد ربط الأدب بالسياسة مباشرة ، وهذا الربط التعسفي الذي يقتل حرية الأدب ويؤطره ضمن مفاهيم ضيقة الأدب أشعل منها .

ومع أن هذه الرابطة قد تحولت من اطارها الاقليمي إلى اطار قومي فسحيت فيما بعد (رابطة الكتاب العرب) وضمت عددا آخر من الكتاب ، إلا أن الهدف الذي سمت إليه وخاضت معارك أدبية لترسيخه لم يتروخ .

فخلال الممارسة خرق الكثير من الكتاب الماركسيين أنفسهم ، الاطار السياسي والاجتماعي للرابطة ، وظهر في انتاجهم عدد لا بأس به من القصص النفسية والذاتية ، وبدأ للكثيرين أن

هياة من لطم العالم الخارجي بقصص حادة شرسة مع قدر جيد من الفنية .
ان عالم الاخلاق القديم المسالم ، ودغدغة
طقوس المجتمع ، والحياتية البورجوازية الواحدة .
هذا العالم الذي كان يطبع ويسم قصص إلرغيل
الاول وما تلاه ، بدأ ينهار .

ففي قصص محمد حيدر وذكريا تامر ووليد
اخلاصى سوف نلاحظ بوضوح هجوما شرسا ضد
القيم التي تسود علما الانسان فيه مثل ومطمون
ومهدد ، كما نلاحظ بداية خرق حاد للمحرمات
بابعاها الدينية والجنسية الى جانب صرخة طبقية
مغلقة بالعداوب الداخلي . لقد ولد جيل يكتب
يغضب مبرر لانه بدأ يفهم ويستوعب المسألة
التاريخية الى جانب المسألة النفسية من خلال
التاريخ ، وكأنه رد غير مباشر ضد جيل كان
يعانى فتورا بورجوازيا وادعا .

ولم يكن هذا التحول الجديد والبداية
الجهريه . كانت القضية الفنية في أعمال هؤلاء
الكتاب متنايزة وفيها الكثير من الاحكام والدقة .
ان قصص محمد حيدر تضج برارة داخلية ،
ويتميز هذا الكاتب بحس زمنى ونفسى معاصرين
لا يمكنك الا ان تدبش وانت تقرأ به ولهم انه
قاس وعالم قصصه عالم مستوحش صحراوي
لا يكاد يقدم لك قطرة ماء .

ان عالمه هو عالم الملهودين والمثلهودين
والمثلهودين . عالم البشر الذين يبدو ان الاحكام
قد حيلت بهم خطأ في لحظة نزوة حمقاء ثم ولدوا
ونما غير متوافقين مع العالم .

فهو يقول في قصته (المتفرج) : « كنت طفلا
وكان هنالك أطفال كثيرون كانوا يلهون بالغاب
مختلفة يقدمها لهم آبائهم . أما أنا فكنت صغروما
من كل هذا . انكم تعرفون الانسان بأنه حيوان
بشاحك ولكن اسمعوا لى ان اقول لكم باننى امثل
نفسا صريحا لحكمتمك الباهية . فروحي لم تعرف
الضحك ، ولن تعرفه فى يوم » .

ان دمج القضية الطبقية بالجانب النفسى من
للانسان يتشكل فهما أصبق للوجود القومى
والوجود الانسانى ، ومحمد حيدر يقدم هذا الفهم
بفنية تتراوح بين الرمز والمباشرة بين المعنوية
المقلانية ، هذه العقلانية التي تقسد أحيانا جو
لقصة وتقلها الى جو المحاضرة والنقدية .

على النقيض من مجموعات كبيرة من كتاب
قصة الذين كانوا لا يزالوا في السابعة ، هذه
لمجموعة التي كانت تتقن التحدث عن فن القصة
لمدارس الأدبية والمروية والاصالة ومسوخنة
لياطمهم بالواقع ، بينما كانوا عاجزين عن تقديم
صمة مثيرة وفذة ومتميزة تترك في النفس ايقاعا

لا ينسى ، على النقيض من هؤلاء كانت قصص
محمد حيدر وذكريا تامر ووليد اخلاصى وعبد
السلام العجيل وسعيد حورانية قد بدأت ترسخ
اساسا متماسكا لبناء قصة قصيرة تخطت الواقعية
السردية الواضحة وتجاوزت الهوسم الشخصية
الصغيرة .

لانت قصص ذكريا تامر التي نشرها في
النقد وفي مجلة الاداب اللبنانية والتي ظهرت
فيما بعد بمجموعته الاولى «سهيل الجواد الابيض»
طاهرة جديدة متفردة في الاسلوب واللفظ
بشراسة حادة مزوجة بطمسولة غنائية ،
وبكثافة شديدة مع حساسية مرهفة يتشكل عالم
رؤيا تامر مزيجا من الواقع والرمز والحلم والحين
الرومانسى ودا على صلابته الواقع اليومى المشحون
بانتهز والبشاعة وفقدان البراة .

واذا كانت اجواء معظم القصص القصيرة في
المرحلة السابقة على ذكريا تامر تنسم بذلك الهدوء
المدغدغ للواقع والمسامح ، فان قصصه وقصص
محمد حيدر ووليد اخلاصى على وجه الخصوص
تجتاحها صرخات موحشة من قبل مخلوقات غير
متألانة مع وقتها ووجودها . مخلوقات هي في
التحليل الداخلى الشخص الثانى المقيم في اعماق
الكاتب والذي يرفض العالم الخارجى لان تكوينه
غير سوى .

يقول محي الدين محمد في دراسته عن
مبسولة ذكريا تامر وسهيل الجواد الابيض التي
نشرها في الاداب : « وكل شخصيات ذكريا تامر
تدلم باسمه وتعلن عن حبيبه وتحمل اسمعته
وذلك خطأ فني وقع فيه الكاتب وكانى به غير
مستطيع ان يعنى العارى بمنطق الايظال الغربى .
ان عنصر الواقع على المهرب والسلوك امبيح
والانهزامي والشدود متق عليه من نائبات رؤيا
تامر جميعا فلهذه يلصحن عن مجتمع مأوى به
من مسح متكررة بيطل يتيم واحد » . ثم يضيف :
« ان تشعه عن الاتساع باراء الاله بان تشعا
تنقص ابدته والاحاطة والصدق . فنصف الماساة
غير مدفونه في قلب السكاتب وهي في الحقيقه
مستورة تماما » .

لقد قدم ذكريا تامر قصصا قصيرة تنبى عن
موجهة لا مجال لانكارها وكانت تلك القصص حق
اواسط الستينات كالشجرة الخضراء الظليلة في
عالم صحراوي ، على الرغم من ان تلك القصص
تقسم علما مظلما يحتشد بالسادية والماسوشية
والكسل والتسكع الميئى والنقدان المتالى لعالم
يلهت البطل وراهم لكنه يظل سرايا .

وسع ان قصص ذكريا تامر تنسم بالفنانية
الدافئة وبذلك الالاحاح العار على الجانب الفايصى
والحرمان ، الا انه يهبط الحادثة أحيانا بكثير من

وأديب نحوي ونوفل أبو الهيجاء الكاتب الفلسطيني الذي هاجر من العراق واستوطن سورية • وفي بين النساء ظهر اسم ناديا خوست وملاحه الخاني وخديجة الشواتي (أم عصام) وانعام سائلة •

كان ظهور هاني الراهب مقرونا بجائزة «الآداب» عن روايته «المهزومون» كما اقترن اسم عبد الله عبيد بجائزة «سواره» عن قصته القصيرة «الرجيل والعريقة» • وإذا كانت قصص هاني الراهب القصيرة التي نشرها يصعد روايته في المجالات والصحف في سورية ولبنان والتي ضمتها مجموعته «المدينة الفاضلة» فيها بعد تمييز بأسلوب جديد وخاص زاخر بالمرارة والحزن والشفافية الشعرية ، وغير متائر بمدرسة أدبية محددة ، فإن قصص عبد الله عبد التي نشرت في أول مجموعة له « مات البنفسج » تتميز بأسلوب تشيخوفي متماسك فيه الكثير من الاحكام والدقة والكلاسيكية المتقنة •

ان كلمة وليد اخلاصي التالية يمكن ان تسلط الضوء على جانب هام من عوالم الكتلبي المينع في هذه المرحلة رغم ما في هذه الكلمة من (فانتازيا) مفرقة بالسودادية : «يقف الكاتب في بقعة تنبئه فيها قوى الرحيل وتزده حتمية الوجود • انه يحاصر كاسد في سبرك ، يريد ان يضي ، وهو في حرب مستمرة مع نفسه والآخرين • يهندس عوالم ثالثة فيقصد لبناء • تلك هي الغربة في أقصى أطوارها • ينظر الى الأشياء فإذا هي في غير موضعها فيعكف على كتابة قائمة الاحتجاج ضد : الكلب ، والنفاق ، والفقر ، والجوع ، وامتهان الكرامة ، وميوعة الفنون ، ولعصف المؤسسات الاجتماعية والسياسية ، وضجيج المدينة ، وانتصار السوق • وتسلب التفاهة واضطهاد الحقيقة • الى آخر القائمة المحتوية على عشرات الاحتجاجات الصارخة والباهظة ، والتي تتناثر قتل بين أسطر القصص » •

وليد اخلاصي مع زكريا تامر وعبد الله عبد وهاني الراهب وأديب نحوي لساذج مميزة ومختلفة تشكل دروبا واضحة في أرض القصة القصيرة الماصرة في سورية ، وهذه الدروب تلتقي وتفرق بنسب تحددها التجربة والثقافة والموهبة •

وإذا كانت قصص وليد وهاني وأديب نحوي متنوعة في العرض والمثالة ، فإن قصص عبد الله وزكريا تنسم بوحدة أسلوبية خاصة لا تلتقيها الأصالة •

يقول اليوت : «قد يضي نتساج الفنان في خطين على رسم بياني متخيل ، وأحد الخطين يمثل

الصفات والاتصال الذاتية والتكرارات وإميا الى توليد انفصالات أشد في نفس القاري» كما في قصته الطويلة «رحيل الى البحر» أو «سليمان الحليبي» حيث يتكرر مشهد التعذيب في الأولى ومشهد القتل ، وفي الثانية مشهد الموت البطيء المتكرر عن طريق بتر أعضاء الجسد عضوا أتر عضوا • وفي القسم الأكبر من قصصه تركز مفرط حول حضمون واحد يتكرر هو : الإنسان والسلطة • الإنسان البريء دائما والسلطة التي تطليه وتحاكمه وتقتله • وفي الشكل طريقة واحدة متماثلة في العرض ، تشبه طريقا مألوفاً واحداً سرت عليه آلاف المرات وفي نهايته تستصل الى مدينة تعرفها من قبل وهي : مدينة القتل والتعذيب • يقول «ماتيسن» مؤلف كتاب «اليوت الشاعر الناقدة» : «ان اليوت هو ذلك الفنان (جويس صنو له في هذا) الذي تمثل رغبته الحسافة في أن يبلغ بتعبيره الى أعظم اجادة يستطيعها ثم لا يكرر ذلك • وإذا رفض الشاعر والقصاص أن يعجبنا طويلا في إطار طريقة مفرقة من العرض فمسا ذلك الا لوعيهما التاريخي الذي معرفتهما يوسسائل فنية كثيرة تدفعهما الى أن لا يثلا قانعين بحدود طريقة واحدة • ان عالم زكريا تامر الذي يدهشك بمفاجآته الأولى والجزئية هو بكلية عالم ضيق ومحدود ومعاد • ويبدو في النهاية كملب لكرة القمم مؤطرا لجرمين تقطعه الكرة من الاول الى الثاني ومن الثاني الى الاول ولكن بحاولات جادة وبراعة قديمة في حركات اللعب •

بدأت لائحة الصمت • بغزاد الشايب • بعد مجموعته الوحيدة «تاريخ جرح» واستمر العجيب متطورا ومدهشا في بعض قصصه وخاصة «قناديل اشبيلية» و «كفن حمود» وضمت لائحة الصمت • محمد حيدر • بعد مجموعته «العالم المسجور» تبعه سعيد حورانية بعد مجموعاته الثلاث «وفي الناس المسرة» و «شتاء قاس آخر» و سنتان وتحترق الغاية • واستمر زكريا تامر الذي نشر مجموعته الجديدة عام ١٩٩٥ ، ربيع في الرماد ، كما صمت مصطفى الميلاج وهاجر آخرون من سورية الى لبنان والبلاد الأجنبية واتجه الكثير من كتاب القصة القصيرة الى الرواية أو الدراسات أو المسرح ، واستمر وليد اخلاصي وحسيب كيالي وجان الكيسان واسكندر لوقا وعبد العزيز هلال وقمر كيلاني وعادل أبو شنتب وجورج سالم ومراد السهاقي •

في أواسط الستينات بدأت مجموعة جديدة من كتاب القصة القصيرة تظهر لتعجب الى قافلة من تبقى واستمر كعبد الله عبد وهاني الراهب

بإنهاء المجتمع والإنسان • وبهذا المستوى يمكن أن نفهم علاقة الأجيال الأدبية عبر التاريخ.

وإذا كان العصر ككل قد طرح إشكالا حديثة في الأدب من غوركي حتى غرييه ومن طه حسين حتى نجيب محفوظ • فإن تطور المجتمع العربي من القبيلة إلى بداية مفهوم الدولة الحديثة فمنه بأن يفرز كتابا يدركون هذا التطور بشقيه العالمي والقومي •

ففضايا التخلف والتجزئة وإسرائيل والاشتراكية مطروحة بكل حدتها الآن على المستوى الاجتماعي والقومي • وعلاقة الإنسان بالسلطة والمؤسسات التربوية والأخلاقية • والحرية وعلاقة الفرد بالجماعة والإنسان بالثقافة والإنسان بالعالم • أيضا تتفاعل في أعماق الكاتب على المستوى الذاتي والموضوعي •

لقد أدى هضم وتمثل الأشكال الجديدة للقصة في العالم والوطن العربي • إلى خلق أساليب حديثة تستفيد من الأسطورة ويدرس علم النفس ومرح الواقع المرئي والظاهري بالعالم الباطني والاحلام والحوادث التاريخية القديمة وأسقاطها على العصر الحاضر • في القصة السورية • المصاحفية • كما أخذت هذه القصص تعتمد على الجوهر لا من الجسادة المروية محطلة التسلسل الزمني الذي كالم مرورا في القصة الواقعية السردية والتسجيلية • وظهر اعتناء واضع في اللغة القصصية التي اقتربت من الشعر إلى جانب قدر كبير من التكتيف والايحاتية المرمزة بعيدا عن المباشرة والتفريية التي كانت تطبع قصص جبل الأربعينات والخمسينات • وفي هذه القصص مواجهة قاسية وغاضبة لكل ما هو قائم وغير صحي من السياسة إلى الجنس إلى الدين إلى قضية الحرية حتى لتبدو أحيانا مسألة النشر غير ممكنة للقصص الصادمة التي لاتحمل المؤسسات الرسمية مسؤولية نشرها •

أخيرا لست أدري إن كنت قد قدمت في هذه الاطلالة السريعة فكرة واضحة عن نشوء وتطور القصة القصيرة في سورية خلال ما يقرب من ربع قرن • انني اعترف ان في دراستي قصورا وان بالامكان كتابة مجلد عن الموضوع نفسه • ومع ذلك فقد حاولت أن أبرز أساسيات الموضوع • وإن أتحدث بإيجاز عن نماذج من الكتاب • نماذج بارزة ومتميزة في حلقات التطور يمكن أن تكون في تاريخ القصة سوى علامات أساسية وعميقة •

لهذه الراعي الدائب في أحكام الصنعة إلى في تطوير أدواته من أجل اللحظة التي يحس فيها حقا أن لديه شيئا يقوله • والخط الثاني هو المسلك البشري المألوف في التطور أي حشده للتجربة وحضه لها واعنى بالتجربة تصانج المطالعة والتأمل والرغبات والاعتقادات المتنوعة والصلات والعلاقات والشهوة والمفاسدة • وبين الحين والحين يلتقي الخطان عند قمة عالية فنحصل على قطعة فذة رائعة • ومعنى هذا أن احتشاد التجربة قد يتطور ليكون مادة فنية وأن سنوات من الدأب على أحكام الصنعة قد هيأ أدوات ملائمة وعن هذا ينتج شيء ما لا يستطيع فيه التمييز بين الاداة والمادة • بين الشكل والمضمون •

إن الموروث القصصي منذ الأربعينات في سورية حتى الآن كان متعثرا في الجانب الأكبر منه • ومع أن التائر والانطباع المتبادل والحروف بين من سبق ومن تلا يمكن أن يكون قاعدة • إلا أنه في سورية وفي مجال القصة القصيرة يبدو وكأنه الاستثناء •

إن باستطاعتني أن أؤكد أن نسبة عالية من كتاب القصة في الستينات مثلا لم يقرأ ما كتبه السلف انطلاقا إما من الشهور بالأمور أو الاحساس بلا جدوى تلك الكتابات التي يؤسهم بأنها ساذجة وقديمة وغير معاصرة •

إن هذا الموقف السلبي نقص فادح لا يغطي حس الغرور والشعور بالتجاوز •

ولهذا فكتاب القصة القصيرة المعاصرون والتميزون في سورية يبدو تأثرهم بالقراءات الأجنبية واضحا رغم أن اهتماماتهم وأحاساساتهم ومرامي قصصهم وليدة المجتمع والإنسان العربي المعاصر •

إن فكرة التخطي للشكل والمضمون والتي يطرحها كتاب الستينات داخلية في قضية التطور التاريخي لكل مؤسسات المجتمع المادية والفنية • وإذا كان المضمون يفرض شكلا خاصا • أو أن هناك علاقة جدلية بينهما • فإن الإشكال الجديد للقصة القصيرة في سورية تسير وفق تطور تاريخي طبيعي •

وإذا كانت قصص الجيل والشباب أصيلة ومتميزة في زمنها • فمن الطبيعي أن تكون هناك مجموعة مماثلة في الأمالة والتمايز تغطي مرحلة جديدة تالية • وبذلك يظل خيط الابداع في جواره متصلا كحلقات في سلسلة لا تنتهي إلا

السفينة

بقلم: جبرا ابراهيم جبرا

- ١ -

كلما اقتربنا من السواحل ، سمعنا صياح النوارس .

صياح جاد يبلغتنا ، يشفق الفضاء . وإذا اسرّاب النّوّارِس تَهْوى الى البحر في اتجاهنا كالسهم ، ثم تنطلق عالية صاخبة ، لتبعثر وتحوم في دوائر منداحة ، على أجنحة بيضاء عريضة تنساب انسياباً ولا ترف ، ثم تنهوى من جديد ، تناراً من حركة لا جهد فيها ، تصل بين زرقة السماء وخضرة المياه ، كلها فرح بحريتها الصادحة .

في بغداد ، أيام صباي ، كنا نراقب النوارس في الأيام الربيعية على نهر دجلة تتراشق هكذا في رحاب الفضاء ، وتسف قرب الشيطان الكثرة حيث تلعب أو تسبح . أو نلقى لها غثات من طعام في ظل الشناشيل المشرقة ، فتخط مزاحمة عليها حط الكواصر ، ثم تنطلق متناثرة عنا الى مياه أخرى وصيبة آخرين .

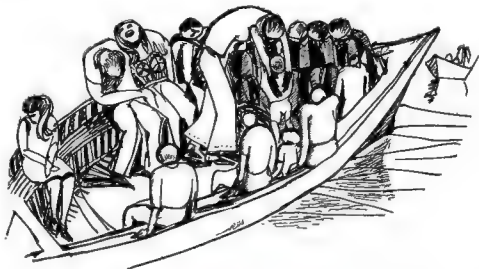
كنا أنا وأميليّا متكئين على الحاجز نرقب النوارس الأولى ، وهي تروى لي عن حياتها في بيروت ، عن زوجها الذي لم يطل ، وعن زوجها الذي أصر ، في نزوة جنونية ، على الترهّب في أحد أدبرة الجبل .

ما أسرع ما تصادق الناس على البحر ، وتوهم ان صداقتك هذه مستطول مدى العمر . الناس في السفينة يضحكون بسهولة ، ويمجدون بسهولة

« السفينة » عنوان رواية انتهى منها جبرا ابراهيم جبرا ، وستصوّر في أوامر هذه السنة في بيروت . والرواية الأخرى التي كتبها قبل هذه كانت بالانجليزية بعنوان « صيادون في شارع ضيق » Hunters in a Narrow Street وقد نشرت في لندن عام ١٩٦٠ .

اخترنا من « السفينة » هذين الفصلين اللذين نرجو ان يجد القارئ متعة في مطالعتهما ، رغم اجتزالهما من كيان الرواية المتداخل بعضه في بعض .

تقع حوادث القصة عام ١٩٦٤ ، وفيها روايتان مختلفتان . اما الرواية في كلا الفصلين التشويرين هنا ، فهو المهندس العراقي مصام السلطان ، الذي يلتقي على ظهر السفينة اليونانية هركيوليز ، وعلى غير توقع منه ، بلعى زوجها الدكتور فالح حبيب ، وكان له بلعى علاقة سابقة . كما يلتقى بالفلسطيني وديع صباغ ، تلميذ الفلسفة سابقاً ، والتاجر الآن في الكويت ، وبلغ تحت تأثير ذلك اللغز الذي يسجل بعضاً منه في قصته .



عطرها ، التفتت بها ، فالتفتت بي . دلت
 وجهي في شعرها الطويل الشدي ، وضجعت :
 « بالسياسة ؟ فضحكت : « لوديس ، وابتعدت
 عنها ، وهي تقول « عصام ، انت مغامر ، فقلت
 « ليحيى ! » قالت : « احذر من ورطة
 كبرى ! » فاضطربت يدي على يدها ثانية ، وقلت :
 « شكرًا للتصحية ! »

بعد العشاء كنا نشاهد فلما سينمايا ، أو
 نرقص ، وعشرات من الناس جالسون حول القاعة
 يرقبوننا واهمين بمتعة الفرجة . شوكت أبوسرة
 لم تفته حفلة رقص واحدة . كان يجلس في كرسى
 كبير على طرف من القاعة ويتفرج ، وأراه أحيانا
 ورأسه يتدل على صدره من النعاس ، فواقظته
 ضاحكا ...

في الاسكندرية نزلنا أنا واميليا إلى المدينة ،
 وركبنا عربة يجرها حصانان تشيطان ، ويسوقها
 حوذي يملق بمرح على كل ما نراه . أخذنا طوال
 الكورنيش إلى بلاجات تضيئ بالبحر والرياح
 والشمس والرياح تهب على الارصفة المظلة ، حيث
 تنتشر كراسي المقاهي ، باردة عطرة بعبق البحر .

وعندما نزلنا في أدراكليون ، في جزيرة كريت
 ذهبتا إلى كنوسوس ، وبرفقتنا فالح ولى ، ووديع
 وجاكين ، لنرى على الرابية المنخفضة قصر
 مينوس - ومتاحه المينوتر . ما أروع الصخور
 التي حتمتها ديدالس وهي ما زالت بخرايبها
 تصيد أشعة الشمس قرابة أربعة آلاف سنة

ويعترفون بسهولة ، ثم يتسبون كل شيء بسهولة .
 ما الذي يستطيع المرء فعله غير ذلك ، وهذه الجزر
 الاغريقية كالدرر الخضر ترصع البحر ، وهذا
 فرندو يحبل كرشه الكبير برشاقة الراقص على
 سلالم الباخرة ، واميليا تبدي لثدي نصفهدها ،
 وجاكين ، دوران تمشي ، ورداها كملفتي فأكبة
 محشوان في بنطلون أصفر شيق . هم ذلك الاخلمن
 الكث الشعر ، الكبير الأنف ، وديع عساف ،
 الذي ولا ريب سيفتصبها ذات ليلة في مقسم
 السفينة على مرأى من النجوم المتلألآت الكبار ؟
 لقد بداوا يظلمون من السرايب . أطفال يتصايحون
 باليونانية ، وطلاب مصريون يبتكون ، يبتكون
 باستمرار ، ثم ينصرفون إلى لعب الورق ويغضبون
 ويتساقطون ، ثم يهقهون إلى ما لا نهاية .

من كل مدخنة ينطلق الدخان أحيانا كجني
 صلاق يتصاهم ويتلوى ، ثم لا يبقى له أثر ، ككل
 جني . وقد ينطلق نفير السفينة في عواء غليظ
 فيجيبه نفير غليظ من سفينة أخرى . والركاب
 يلتفتلون الصور لبعضهم البعض ، عند زوارق
 النجاة المعلقة على الجوانب ، على درجات «البرج»
 على حواف بركة السباحة .

وأنا واميليا نتحدث . وتحدثن . وقد جعل كلانا
 يعرف الآخر ، وأنا أشغل نفسي بها عن لى ، بشء
 من الاصرار ، وكثير من اللؤم . لقد بدأنا نلعب
 لعبة العشاق - عشاق السرقات الملاح القصار .
 فإذا وضعت يدي على يدها ، أدارت كفها لتلامس
 كفّي . وإذا دوت منها ، دنت بخدها أكت لأتسقى

وتركتني وهي تضحك لتتضم الى وديع والآخرين
أما وديع فلم أكن أعرف مدى اهتمامه الحقيقي
بجاكلين . انه يفيض بالكلام من كل جانب ، فلا
تستطيع فرز الحقائق عن الشطحات فيما يقول ،
كانه يريد افراغ ما تجمع في ذهنه على دفقات
كبيرة ، ولا يأتي الى نهاية . « ما الذي متفصل
بجاكلين عنكما تنتهي السفرة ؟ » سألته .

فقال : « أرجو أن أكون قد انتهيت منهما معا ،
كما لك مع فتاتك الإيطالية » . انهما تريد مني
احتماما ما عدت أستطيع مثله مع أحد ، امرأة كان
أم رجلا . »

- نرجسي ١

- غريب ! هذا ما قلته انا لجاكلين . قلت لها :
انت نرجسية ، أكبر نرجسية . تشتتهن نفسك
عن طريق مرآتي . فقالت : وحضرتك ؟ فقلت :
وأنا اشتبهك نرجسيا أيضا ، ولكن كمرأة لك .
أعني ، بلد لي أن أعكس شهوتك ، فاشتبهك ، أو
اشتبهك فاعكس لك الشهوة التي تفرق على
جسمك .

- الحسبة يا وديع ، بالنسبة اليك ، الكلمة
هي الجسد .

- وحلي هناك هو هو أطيب من ذلك يا عصام ؟
لماذا نعي لعيننا بالقراءة طيلة حياتنا ؟ وجاكلين
تطرب لذلك ؟ تريد أن تتعلم أسماء أعضاء
الجسد واحدا واحدا ، باللفات الثلاث ! من الشعر
الى التهديف الى البطن الى الفخذين . تتلفظ
أسماءها كتلفظ الأغاني . كأكال التفاح . كشرب
النبيذ . أسمع القرش اللذيذ تحت أشراسها .
وأشعر بالانسياب اللاهب حول لسانها . قلت
لها ذلك ، فقالت : لم أضحك في حياتي بقدر
ما ضحكك هذه الايام القلائل . أضحك لأنك
تتلذذ بنفخ خفاياي . لا خفاياي النفسية ، بل -
فقلت : قولها يا سيدي ، الجنسية ؟ قالت : طيب
الجنسية . ما كان بيبي وبين نفسي سرا مكتوما
لا أكاد أحدث به نفسي تعابته أنت ، وكأنك تهابت
طفلا بريئا . تجعل الحب لعبة ، والمضاجعة آكلة
تفاح . تصور ، جاكلين نطقت بذلك ! وهي تعلم
انها مستفطر يوم الأحد القادم لأن تعترف بـ
لها في الكنيسة . فيقول لها الكاهن : لمن قلت
ذلك ؟ تقول : لمربي على ظهر السفينة . فيقول :
عليك بتلاوة « السلام عليك » منه مرة ، و « يا أبا
الذي » منه مرة . واحذري العرب بعد اليوم ،
لأن ليس بينهم من يقنع بأمرأة واحدة .

اغلب الظن أن يوسف راض حداد ومحسود
شعبان الراشد ركب السفينة أيضا في بيروت ؟

خلت ، لتحفظ سر غرام شبيب وهيب ، وغيم
انفصاح خفاياها اليوم . . . تحدثنا عن اريادته
وغدورها بأبيها من أجل عشيقها القريب
ثيسيسوس ، وتحدثنا عن اكارس ، وتساءل
وديح : « ترى أين جزيرة اكارس التي وقع في
مياها بعد طرانه ؟ هل سمر بها ؟ »

قلت : « هارب آخر ! ولكن جناحيه خذلاء » .

قال : « اكارس من أبطال صباي : لم يخذله
جناحاها بقدر ما خذلته الشمس . . . »

وفي بيروس نزلنا أنا وأميلييا وحدنا ،
واستقلنا القطار الى أثينا ، وصعدنا الى
الأكروبوليس ونحن ننضح بالشرق ، والتقطت
صورا لأميلييا بين خرائب البارثون ، وأنا أقول
أن معجزة الجسر الأبيض هذه أروع ما يفي
الإنسان في ثلاثين قرنا من عمارة ، ولكان خرابته
الوهمية نفسها جزء من فنتته الهندسية . « اذن »
قالت لنشكر بحارة جنوى الذين قفوه بالمداغ !
« بل العثمانيين » ، قلت : « الذين لم يجسدوا
مكانا أفضل منه لتخزين متجزاتهم » .

بين الأعمدة الايونية لمحت لي والحب ، وتصلت
التقاط شعور لأميلييا تبدو فيها لي في الخلفية ،
وقد رفعت رأسها على ذلك العنق الشهي ، تأمل
« الكرياتيدات » ، وهن يجملن على رؤوسهن
سقف هيكل صغير . وهل كان ثمة ما يتسجم
مع أعمدة البارثون الشامخة أكثر من قوامها ؟
كنا نلب لعبة القط والفار ، سن وهي أو غير
وغي . كانت أميلييا تضطرب أحيانا اذا لمحت
الطبيب وزوجته على مقربة منا ، فكنت أضحك
من هذه الإيطالية التي ما كادت ترفعني حتى
باتت تريد احتكاري . أو هكذا حسيت . وأكثر
من مرة تحدثت عن لي ، وسألتني عن زوجها :
أجراح ناجح ؟ معروف في بغداد ؟ غني ؟ محبوب ؟
الأسئلة المألوفة التي تطرح دولنا تركيز كثير ،
لنتلقى أجوبة لا تتوخى الدقة .

« ألم تمل تلك الفتاة اللاصقة بك كالذباب ؟ »
سألتني لي مرة ، ونحن على أفراد . فقلت : « انها
مسلية ، تحدثني عن الحياة في بيروت التي
لا أعرف شيئا عنها . وهي جبيلة ، ألا توافقين ؟ »
« كذاب ، مراوغ ! »

قلت مستمتعا غيرتها : « أبدا . انها جميلة
وذكى . وتعرف الكثير عن حضارة البحر
المتوسط . » تحدثت مثل قالم ! ما كنت أعرف
أن الرجال يحبون الذكيات الى هذا الحد !

- قالم ؟ وهل يستلطفها هو أيضا ؟

- ساكبر رقيته ان فعل !

ولكننا جعلنا ننتبه لهما ، فيما أذكر ، بعد الإبحار من الإسكندرية ، ونحن تقترب من السيسواحل الأخرية ، إذ أبدى يوسف أسفه على أن التريت في كل ميناء نرسو فيه لن يكون طويلا بالقدر الذي نشتهي ، مع أن الهركيوليز ، وهي من سفن الزوارح البحرية الطويلة ، كانت بطيئة عن عمد تتيح للركاب الاستجمام والاسترخاء : النوم الطويل إذا أراد ، والأحاديث الطويلة إذا أراد ، والعلاقات الممتعة التي قد ينشدها والنفس في بسطتها بين امتداد البحر وغفلة السماء . يوسف ومحمود : دون كيخوتي وسانكو بانزا . هكذا خيل إلى أول الأمر ، إذا رأيتهما متلازمين . يوسف شاعر ، طويل القامة ، ضامر الوجه ، له لحية مدبية ، في عينيه بريق من لا يقطع بما يرى بعينية . ومحمود بدين قصير ، ذو نظارة غليظة ، يكركر بين الحين والحين بصوت غليظ يفر ويصر فوق صوت رفيقه الحالم الهادي ، وهو يكاد يركض وراءه . ولكن تبين أن من دأب محمود أن يستشهد بأبيات من الشعر في كل مناسبة ، في حين أن صاحبه لا يذكر إلا شعره هو . ولا يفعل ذلك إلا نادرا . يوسف لبناني . أما محمود ، فلم أستطع الحزم من أي بلد عربي هو . فقد كانت لهجته غليظة من المصرية ، و « الشامية » ، وقد حسيت دمشقيا ، وأبدتني وديع في ذلك . ولكن لما سأله أجدنا مباشرة : « من أي بلد الأخ محمود ؟ » أجاب : « أنا أسافر بلمسيه بأسيه » (وقد علمت فيما بعد أنه يحمل شهادة دكتوراه في اللغون من جامعة جنيف ، أن أهداني كتابا من تأليفه مقلوبعا ببيروت ، عنوانه « شرعية السلطة » بين الدستور والثورة » . وبالطبع لم يتح لي عندها أن أقرأ الكتاب ؟

هو الآخر أبدى إعجابا بلمسي . كأننا الإعجاب بلمسي أصبح رابطة تجمع فيما بيننا . ولكن خيل لي أيضا أن حوارا بدأ بينه وبين الدكتور فالح ينقطع ثم يستأنف ، معطيه سياسي يتناول أحوال الاقطار العربية . غير أنه لم يفغل من عدد من الفتيات كن قد ملأن السفينة على غير توقع منا ، عند مفادرتنا الإسكندرية ، معظمهن طالبات يونانيات ومصريات .

« مأساتي هي انني لم أتشبت يوما بامرأة » قال محمود : « أحبوني جميعا » جميلات ، ذميات ، سمر ، شقر ، هات ما عنده . تماما كما يقول الإنكليز : أي شيء عليه تنورة » صديق يوسف هو صانع الشعر ، وله أن يتدلل ما يشاء له بالدلال . أما أنا فستهلك الشعر ، والنساء في ذهبي شعر - عموما ، حر ، مقفى ، بلا قافية . كل شيء فيهن ، كما في الشعر ، صغر حلال .

ولكنني لا أتشبت بأى منهن تشبثا خاصا . يتصفني الجلد على المتابعة . عندما تتغير الدنيا بكل هؤلاء النساء ، أليس من السخف أن نركز على واحدة منهن دون غيرها ؟ في السياسة ، أو الفلسفة ، أنا أحادي . أما في غير ذلك ، فأوفر الجمع . ليشي كنت في السياسة كذلك ! ذقت منها . الآخرين ، كمن تجلد زوجته كل ليلة ، فلا يزداد الا تعلقا بها . أما المرأة .. أتدري انني لسنتين طويلة لم أكتب رسالة لامرأة ؟ السبب ؟ لأنني كنت أخشى أن أنا كتبت لامرأة ، أن أغازلها . أو تحسب هي أنني أغازلها . لا أنكر انني كتبت ما كنت أجد الغراء شديدا بذلك . فادلف يدى بعيدا عن الورقة ، لتلا تخط كلمة تكشفت عما في النفس ما ينبغي .. وأنا عندما أكتب ، على كل ، أفضل أن أدور وأحاور ليلبي الكثير على الصمت - على الاقول . ولكن ، لأعترف .. في المرة الأخيرة زلت قدمي أكثر من مرة . هناك عذوبة ما ، حلاوة ما حارة مشبعة ، تأتي ، إذ أبدأ بالكتابة ، كضلال يبدأ بالتساقط شيئا فشيئا حولي ، ويهدد - أو بالأحرى يعد - بأن يفترق من راسي حتى القدم . قد أباعد بين نفسي وبين الشلال ، يديره الطروب ولسانه الماجة على الجسد . وذلك بالتشبت بهويي ومعطى . ثم إراني أخاطب هذه التي أخشاهم قائلا ، لم لا أقسم الشلال واستحم في طوبه ؟ فالشلال يلعلل في هوائه . أريد أن أسستهم بك ، بكلماتك ، بيديك ، بشغيفك . أريدك تتهاوئين على وأنا صامد لدقاتك ، إلى آخره ، إلى آخره ..

لم يكن يسعني الا الضحك إذ أتخيل سانكو بانزا هذا وهو يسبح في شلالاته الشعرية ، قارء عاريا ورأسه المفلطح يهتز بينة ويسرة . ويهتز تهتز علوا وسفلا ، وهو يطرطش مياهه الحبيبة على بدنه المكور .. وكان يوسف يشحك مثلي ، ويستحس على المزيد . قال : « أتدري يا يوسف ، أعجبت مرة بسيدة شقر في بيروت . كانت تنظم الشعر بالفرنسية والعربية وتقرأ على ما تنظم ، وأنا لا أفهم من حرفا واحدا . فقلت لها يوما : قصائدك جميلة . ولكنك قصيدة أجمل منها كلها ، قصيدة أريدك أن تقرأها بملء جسدك ، من شمرق إلى قديمك . أريد لسانك يدير قصيدتك على لساني . ترى ما الذي ستقولين عندئذ ، وبأية لغة ستقولينه ؟ فقلت : وهل للقول عندئذ من ضرورة يا محمود ؟ قلت : يداك ويداي مستعبر وتثرثر وتبدع ، وفي تصديقك بيتا بيتا .. امصرك حصر السماء للأرض في ليللة مظلمة ، انتقب عن كل سر فيك ، وقد استخرجتك كلؤلة كبيرة من بين ثيابك .. »

« لا يا محمود ، تخنتها ! » قال يوسف :
- المزم ، هذا الذي حصل . اخرجت للؤلؤة
من محاربتها .
فقلت : « وانقطعت الشقره عن قسول
الشعر ؟ »

« لتلك انيلية على الاقل ! » وضحك محمود
ضحكته الصريرية ، والتفت حوله لينظر الى
سمقان الطالبات المستلقيات على ظهر السفينة ،
وأردف : « اللهم عونك ، اللهم سترك ! »

أما يوسف فلعله كان يروى شيئاً من شعره
حين سمعته يقول (مشيراً ولا رب الى لى ، دون
غيرها) :

« اللي ضحكته
ضحكة الشفة الشبية
والشبايا للؤلؤة
ضحكة الوعد بقيلة سكرى
ومضة الشبق الهبرية . . »

فى وسط ذلك الجو لحظت أن الذكور فالح
حسبب أقلنا كلامنا ، وأكثرنا عزلة - رغم
استحالتها - كان يتمشى وحده أو مع لى وفى يده
كتاب وأكثر من مرة رأيت حالسا فى الظل الى
مائدة صغيرة ، والكأس أمامه ، وهو يكتب . مع
به الناس ولا يراهم . وعندما تكون لى بن جمع
من الركاب تتحدث ، أو تستلقى على افراد فى
كرسى قماشى ، يستقرتها السوداء الكبيرة ، وتقرأ
ولكن النوارس كثيرة ، تهوى من حيث لا تدري
على كل ما يمكن لها أن تنشب مناقرها فيه . فكانت
لمر ، مهما حاولت الانفراد ، محط المناقير النهمة
وأنا أقربها من بعيد ومن قريب . أقربها وإن لم
تكن هناك . تلمو فى مخيلتي دوران الشهوة
والحد ، والمرارة . واعلم كذلك أن زوجها يرى
كل شيء ، وهو يشرب ويطلق سائرا ، ويكتب .
ما الذى كان يكتبه فى تلك الساعات ؟

لم أدر الا فيما بعد ، فى النهاية ، عندما
قرأت بعض ما كتب ، ولكنه لم يفته أن يعلق
مع لى النوارس . « يجب أن تراها فى بحار
الشمال ، فى المياه الاسكتلندية . مصارمة
حارحة ، رهيبة . انها غرنا ببيضاء » فى المرات
كما تعلم ، يسمى الناس النوارس « تعيق الماء »
ولا أشك أنهم يعنون بذلك « تسبق الماء » .
النوارس تعيق . رغم بياضها الزاخم ، فانها
تتحمم ، وكلها تعيق ، على الفضلات ، على
القاذورات ، تحمم الغريبان على الجثث . انها
غرنا البحر . أكرهها . . »

كنت أكاد أخشى الحديث الى فالح ، إذ أبدو

معاً أشبه بفتى حالم يتحدث الى رجل تعبت
أظفاره من الانغراز فى الباف الواقع ، فى زوائد
المرض ، فى خلايا اللحم الانسانى ، حيث لا محل
للحلم ، أو هراء المواقف . (ذلك الهراء اللعين
الذى جرتني اليه لى جوا من جسديده ، وهو
تتظاهر بالجهل ، بالبسالة) « المواقف
يا عصام ؟ تضعك على ؟ تقصد الجنس ؟ أرجوك
حدثني عن الجنس ، واترك الحديث عن الحب
والهيام للأطفال . كيف أمورك الجنسية ؟ »
- زفت !

- حسنا . الآن فهمت ! لى ، اسمعت ما قال
عصام ؟ قال ان أموره الجنسية زلت . وصعد
الدم الى خدى لى بحمرة الحمر . ثم قالت :

« ألم تسمع بمشاكل المثقلين فى بغداد ؟ »
لم أستطع الا أن أقول ماكرأ : « المتزوجين
منهم أم غير المتزوجين ؟ »
قالت : « المتزوجين وغير المتزوجين ، سواء
بسواء . . . »

فتعق فالح على غير عادته . « بل المتزوجين ،
أكثر من غيرهم . »

وجرح بقايا كاسه جرعة واحدة . فقلت فى
نفسى : ضحك يا فالح غير طبعية . ترى كيف
أمورك الجنسية إنت ؟ كم مرة بلغت بلى ذلك
الحنيك (الزانج البتتى) بلغت أنا بها مرات عديدة ؟

- ٢ -

عندما أخذنى وديع عساف الى قمرة والليل
قد كان يتنصف لم أرد أنه يريد أن يفاجئني
سر من أسرارهم . كنا قد قضينا معظم المساء
فى الرقص . انزلنى الى قمرة ، التى يشاركه
فيها فرناندو غوميد ، وإذا فرناندو مضطجع على
فراشه الضيق ، يقرأ . فاعتذرنا له عن إزعاجه
غير أنه عبر عن سروره بنا بكم أسباني .

أخرج وديع اضماراً على شىء من الكبير .
فحسبت أنه يريد أن يطمئنى على خرائط أو
تخطيطات هندسية قد تهمنى ، لصالحه بأثنى
مهندس ، ولما فتم البورتولوى ، وحدته ملبسا
بأوراق سمينة كبيرة كلها خطوط والوان . وأخذ
ينشر أمامنا رسوما زنتية . لبضع لحظات وقلت
أمام أول صورة أقامها على الفرائش الضيق ،
مشدوها لا أعرف كيف استجب .

سألته وقد جلست على سريره :

- من رسمها ؟

- أنا .

— أنت ؟ أمدا ما تفعله عندما تدير ظهرك للاستيراد والتصدير ؟
— نعم .

وقبل أن أعلق على الصورة أخرج أخسرى ألبقتها على السابقة . ثم أخرى . ثم أخرى . جعل ينثر الرسوم ، وكلها على ورق ، ذات اليمين وذات الشمال . لقد كانت رسوما مربعة لا أزعج أنني فهمتها . تعج بالوجوه . وجسود مشطورة ، وجوه نائمة ، ميتة ، خضراء وحمراء وصفراء ، حولها أقمار وشمس ، وأصابع ملتوية يابسة ، وأيد كبيرة متخيفة الأصابع .

قال : « من عادتي أن أرسـم على ورق ، لأن حمل الصور الورقية سهل كلما احتجت إلى سفر » فقلت : « ولكن رسوماتك رهيبـة . من يعرفك من كلامك ، ودعائـاتك ، لأن يخطر له أن في ذهـك خواطر مـرعبة كهذه »
— « كوابيس ، أصبح من « خواطر » .

قالها وعلى شفـتي ابتسامة ، كأنه يهزأ بي ويفرندو . أو كأنه يضحك من نفسه . ثم أكمل : « ولذا ، فمن الصعب على المرء أن يعايش رسوما كهذه » .

— ولكنك تحملها معك أينما ذهبت ، وفـهم ذلك ؟

— نعم ، من قبيل حمل المرء ضليـبه أينما راح .

كأون فرندو صامتا طيلة الوقت ، يتأمل الصور ، وأخيرا نطق :

« هل هذا ممكن ؟ أنت غويا العرب ! هذه « أهوال الحرب » . — مرة أخرى . وإذا سمحت لي أن أقولها ، وفيها شيء من الجنون . لا ؟ »

فضحك وديع وقال : « الكثير من الجنون . ولكن الذين يرسمون الأنهار والجبال وحقول القمح قد يكونون أيضا على شيء من الجنون . والذين يرسمون الوجوه الجميلة ، والصداريات الكبيرة النهود الرشيقات الأفخاذ ، أيضا قد يكونون على شيء من الجنون . لا ؟ »

— هذا يدعو إلى شيء من الويسكى .

وأخرج فرندو من الدولاب الصغير زجاجة جديدة وأكواب بلاستيكية صب فيها الويسكى ، وقال : « لا أشربه إلا صافيا » .

قال وديع ، وأنا أتذوق اللذة الطيبة : « كلنا فينا شيء من الجنون . بأقدار متفاوتة ننسحب من الواقع الأزرق إلى عـالم خبيـه في الداخل ملء بكل ما تشتهي . وأحيانا بكل ما نرهـب . كالجنـاذيب » .

قلت : « ميكانيكية دفاعية لا بد منها ، للحفاظ

على عقلنا عندما نخرج من عالم المجاذيب ، ولو لحظت العالم الذي ننسحب إليه ، في نظري ، « قال فرندو . ربما كان أعمق حقيقة من عالم الواقع كنت هذا الصباح أتصفح مجلة « فوغ » في الصالون . عالم « خبيـه » ملء بكل ما تشتهي . أناث حريريات لذات ، وإسـمحات العيون ، عريضات الأفواه . أنا ، كما تعلمان ، أعمل في ملهى ليل ببيروت . أي أنني لست غريبا عن عالم الأنـاث . ولكن النساء هناك ، كما نراهن نحن وراء الكوابيس ، حاديات ، صلبات ، كالمسامير . كل شيء فيهن صبيغ وطلاء وشعر مستعار ، وتكالب على الليرة . أما عالم « فوغ » فإنه عالم الشبق المترف ، حيث الجنس أرفع من العهر . أو هكذا يبدو . أجمل خلق الله ، في أجمل الأوضاع ، بين الطنافس والزهور ، بين خرائب اليونان وإيطاليا ، ولبنان ، أو تحت أشجار انكترا الخضراء . — مرتديات أو شبه عاريات لا فرق . وقد تجاهلن أن افراهن ينثر فينا العهر والشهوة والفحش . انهن يلتهمن الرجال . — هؤلاء الحوريات الرقيقات ، دوتما عواطف . طريق مختصرة إلى الجنـد ، والوهم ، والاستباح من بين شدائي وحشى النهار . أعطنى نساء فوغ الوحيات ، وتخذ كل ما في الدنيا من واقع . اجنـون ؟ »

قال وديع : « إلى حد ما ، ربما . أو وهم ، على الأقل . والوهم تفرضه علينا الطبيعة نفسها فرضا . ما القوم ؟ انه انسحاب إلى الدواخل ، إلى الظلمات الطرية اللذيذة . فالوهم أخو النسيان . والنسيان بلسـم الجراح ، كما يقولون . — إلى أن تفاجئنا الكوابيس . وهنا بيت القصيد جزء كبير من الحضارة ما هو إلا تنظيم الوهم ، والتنمـع بالوهم ، والافتسـال بشلالات الوهم . ولكن تبقى الكوابيس . الكوابيس هي الحلقة الحقيقية في النهاية . النساء الحاديات ، الصلبات كالمسامير ، مضروبات بمئة مليون ، مرفوعات للقوق » .

فقلت : « يعنى رسوماتك هذه . وحياتي ، وحياتك . ولكن السؤال هو : حضارة الوهم هذه ، انهرت منها ، أم اليها ؟ »

— يبدو أننا مررنا بالدين ظلمتهم الطبيعة ، فلم نتج لنا إلا النذر القليل من الوهم . ألا ترى كيف أنتـه . أفرغ في هذه الصور كوابيس ، كما تفرغ القبة شحنتها ؟

— ولكن يبقى السؤال الذي يسأله الناس دائما : لماذا تفرض كوابيسك على الناس ؟ انهم ينتشون قليلا من النسيان ، قليلا من خـداع النفس .

— إذا لم يكن الفن متصلا بصحيم النفس ، فإنه

لن يتصل بفرايديسها . الفئسانون الذين يستجيبون دائما لما يريد الناس طراشوني . صباغون ، بغايا ، سمهم ما شئت . لا يعرفون تلبس السحب السوداء ، وما يتلوه من صواعق ورعود . من أطاروخصب . الصورة التي لا تنتهي من صواعق ورعود . من أطارو رخصب . الصورة التي لا تنتهي الى اخصاب في نفس المشاهد ، كيف يمكن أن تكون أكثر من ضحك على الذقون ؟ مصيبتنا اننا نحاول رفض الحضارة اذا كانت حضارة وهم ، ولكننا جزء من حضارة الفنتزة ، رغما عن أنفسنا . الى أن يفاجئنا الكابوس . ويتجسد أمامنا العدو الذي نتحائل عليه لكي ننساه أو ينسانا . فنعود راكضين في حلقنا المفرقة . الى بعض من وهم .

— ربما الى بعض من حقيقة ؟ انى ارفض . فأهرب ، لأبحث عن واقع اتكافأ معه .
— هل انت مستعد لأن تقتل ؟
— أقتل ؟ لا ارى للسؤال علاقة بالموضوع .
وبعد كل الذى رايت من قتل .
— إذن ، فأنت ايضا تؤثر الهرب من أجل الهرب .

الزعجنى بصراره ، وأنا أعلم اننى هارب ، واننى لا أريد القتل . وتذكرت عندها ما كنت دوما اتخوف من ذكره . ما فعله أبى وأنا طفل صغير القتل ؟ لعل وديع يفكر بفلسطين . بطل العدو . نيك . غير أنه عندهما ذكر القتل ، تكا فى جرحا من نوع آخر . لماذا قتل أبى جواد الجبلى وأنزل بحياتى لعنة ما زلت اغايتها ؟ تمرد . وقتل ، ثم عاش منفيا عنا . لكل قال : حسنا فعل . لقد رقم رومنا . لا بأس . ولكن الآلهة ظلت تطالب بالانتقام ، وعلى نحو مهين . فرفضت عليه الحياة بعيدا عنا ، وجعلت منه مجسود أسطورة . ولم تستنكف من أن تفقدنى المرأة الوحيدة التى أحبيت . وتبقينى معلقا بهما من بعيد . قلت :

أؤثر الهرب ، بمعنى ايجابى . هل هذا ممكن ؟ كالفائدة التى يتراجع ، لكى يعلم اشتاكة وتكيف خطته بالنسبة للظروف التى استجبت ، تهبوا لهجوم جديد . لست أدري . انك تخطط على الأمور . هل عرفت أنت القتل ؟

رفع أحد حاجبيه ، كما كان من دأبه أن يفعل وألقى الى نظرة غريبة . لم يجب على سؤال بل قال .

« تفقنا إذن . الأمور مخلوطة عليك ، وعلى ، وعلى كل من فى هذه السفينة ، فنلند الى قضية الجنون لما كان بعض حديثا بالعربية ، فقد اشغل

فرنندو نفسه بالتمتع فى الصور . يتناولها واحدة واحدة ويهز رأسه ، عن رضا أو غير رضا . وإذا هو يخطب بظاهر يده احداها ويقول بالانكليزية :

« عندما لا أفهم الصورة ، أتمتع بها . هذه مثلا لا أفهمها ، ولكننى أشعر انها تتغافل فى ولو عن غير حق . انها تؤذنى . ولكننى أتمتع بها . مأسوكى ؟ لم لا ، ان كنت أتمتع ؟ فقلت وأنا أتأمل اللوحة :

« تمتعنى ، أنا ، ذهنية صرف . أنا أتلهذ برؤية النسب والعلاقات والتقابل بين المخطوط والأجسام . انها الممتعة التى تجدها فى حل مسألة رياضية معقدة » .

« ولكن ، قال وديع : « ليس فى الفن من حلول . المسألة ، هى المهمة . أما الحل ، ففى العدد القادم الذى لن تستثريه . أنا أتمتع بما يعزقنى من الداخل . — بما يشعرنى بأننى أسير بيننا وشمالا فى وقت واحد . أتدري ؟ نحن ، مطمئنا كذلك الرجل الذى يحب امرأتين فى آن واحدة . احداها سمراء ، والأخرى شقراء » .

فضحك فرنندو ضحكته الضخمة : قائلا :

« ترتيب معقول ، اذا استطعت أن تدبر امرأك مع الاثنين » .

واقتصر وديع بـ « جرعة أخرى من الويسكى » : « هذا الرجل يرى فى كل منهما مشال الجبال الشهي . ويقرن بهما فى خلواته كل ما يقتنه فى المرأة من كلام وأحاسيس . ويرى نفسه متنقلا بينهما ، يقبل الواحدة ولصاحب الأخرى ما زال نديا على شفثيه . وهو يظن ان الواحدة لا تعرف الأخرى ، وأن لعيته سر من أسرارها . غير انه فى ساعة شيطانية من الجبال يراهما تتجسدان فى غزل غريب . تضحكه الفكرة وتقلقه ، ويصرفها عن ذهنه . وإذا هو يومها يكتشف انهما تفعلان ذلك بالضبط ، وانهما مساحتان شاذتان كاذبتان ، تعذبه كليتاهما لتسليتهما ولا تجد لذة حقيقية الا فى رفيقتها . . انه يرى نفسه يمار على كليتهما — من كليتهما من امرأة ! من امرأة يعشقها وكان يحسب انه يبعدها ويلفد بها عشيقته الأخرى . . وهكذا نحن نتمزق . . نتمزق باستمرار ، بين الأشياء التى نحبها ، أو نتوهم اننا نحبها ، والتى تحب نفسها وتمسك بمنطقة الخاص وشذوذها الخاص أكثر بكثير مما تأبه بها وبما نشتهي . حياتنا فى المجتمع مثل على ذلك . السلطة وتناقضاتها ، المال ، المقتنيات ، الزواج الأبناء : كلها ، تمزقنا ، تمزقنا باستمرار . ولى النهاية

نلجأ إلى عالم « فوخ » • لا ألم • لا تمزق • وحلم
قد يدوم بعض ساعة • •
فقلت

« فلا تطلق لحيتى إذن • •
« فلا ترهب » • قال فرندو •
واستمر وديع :

ترهب • أطلق لحيتك • لا بأس • قليل
من الجنون خير من الجنون المطلق الذى هو
نهاية الكثير من الناس • يولعون بالكى • كما
قال أحد الشعراء • ويموتون فى زوبعة من
الرعب •

وما الذى هناك بين الولادة والموت • سوى
زواجع من الرعب متلاحقة • منها الخنى ومنها
الظاهر • منها النفس ومنها الجسد • مع فترات
من الصحو كصحو الظهيرة فى الصحراء • سماء
لا تنتهى • أرض لا تنتهى • وصمت من • بأحلام
المصوفين • حتى تهب الزوبعة من جديد • لقد
احتاحتنى الزوبعة اليوم • فماددتنى الكوابيس •
الكوابيس التى أخشأها • فأتخلص منها برسمها
على الورق • اذا استطعت • يقولون إن الكابوس
للرجل امرأة شسقة تهاجمه فى الليل تريد
امتصاص حياته للذئب • فبى ما يرى • ولكن

للأذى لا أرى إلا مجازر بشرية أكافم لكى أنجو
منها • فلا أنجو إلا إلى أماكن كلها غرائب
وقاذورات • ما معنى النجاة على كل حال • إلى
أين نحسن فاروق ؟ أنا قد أهدر إلى حيلة
الرسوم التى لا أطلع إلا الأقبليين عليها • أو التكني •
على صمت يلازمى أياما بطولها • أغازل فيها
أفكارى • أنها أفكار تدور حول بلدى وحول
الصمت • صمت داخلى • أشبه ببلبل كرنى لا تجد
رحابه • صمت مغم • هائل • قبل سبعين
كثيرة كتبت شيئا عن أجراس الذاكرة وهى تتجلى
فى كهوف جوفية • صامتة صمت الزمن السحيق
الذى يلف تاريخ الإنسان • هذا التاريخ الصاخر
الهادر • صمت من • بالذكرى والرؤى • بأربعين
سنة من جلجلة الحناجر • أربعين ألف سنة
من الصياح والعشق والغضب • • والرؤى مهمة

مهما تكن غاشمة • • كم من الناس عبر الصور
أصروا على رؤاهم • بل قبلوا بالاستشهاد من
أجل ما يرون من رؤى • • أمس • والشمس على
وشك الغيب • عبرت بى إحدى تلك التجارب
الرؤية التى يكاد يكون الكلام عنها مستحيلا •
إنها لا توصف • غيوم متراكمة تاجبت فيها
ألوان الغروب كأنها لهب مندلمة وذهب مسفوح
كالسما فى صور تيبولو تمتلج فيها الدراما
لا بسبب مستبين • ولكن ما الذى تذكرت ورايت ؟
اشلالات من لذائذ • وبخارا من توق ومراع ؟
ربما • أوليس ذلك بالضبط سديا وعجبرا

وأشواء وبراكين • الصمت الباهر • صميم
أفراح عنيفة • ومأس انتهت وهى على وشك
أن تبدأ من جديد • الشيطان فى الداخل • وقبة
النفس • الشيطان المستقر فى البواطن السحيقة
أستقرار الآله • حيث الشيطان والآله لا يفرقان
ولا يسكان • ولا تطردهما صلوات أو قصائد •
وأربعون سنة من حياة تضطرم وتتصاعد وتتهافت
على أيديهما • والغيوم يمزقها الذهب المسفوح
والتيار المندلعة •

• كانت السفينة صاخبة بالموسيقى • كانوا
يرجون ويحيون • يتفجرون على الفروب •
يتنهون ويضحكون ويتنازلون • وأنا كالآله
ماخوذ بما أرى • وبمأس أوهوم • أحاور الله
والشيطان معا • قد تقولان إن المسألة
جنسية • على طريقة فرويد • المحرومون جنسيا
يتوهمون أنهم جبابرة الكون • أو حشرات • ولكن
المسألة ليست بهذه البساطة • لقد أصبحت
المسألة مع قضية حياتية • ضرورة من ضرورات
البقاء • أغنى • بعد أن يزعم المرء ما شاء له
الزعم • يبقى الوهم أمرا لا مبيد له عنه • كأنه
يقول : أرفع الوهم • تسدل الظلام • فليفسن
عتابا وميجانا • الغذاء كله وهم •

الطيئات كلها وهم • أرفع الوهم • تضمحل
التممة الأخيرة • ولا يبقى إلا الملح • يعيش بى
البرم • فأشعر على أود الاسترسال بالكلمات
إلى عالا نهاية وإن تكن صامتة • ولكن يعود
فينحسر • فتنتشر الكلمات فى حلقى • ثم تنقطع
ما هذا الذى ينتانى ؟ ما هذا الطيف الساحر
الشرير ؟ هل له نبض • وأسمان • وائد • ويدان
وساقان ؟ هل يقرش كعبة اللوز • كحبة
الفستق ؟ هل تتجاوب فيه الاصوات بالكلمات
كالأجراس ؟ هل يتصاعد ويتساقط بين ذروة
وحضيض ؟ هل يملأ الراحتين بالدراق والمغيب ؟
لعلها آكلوبة أخرى تأتبنى كفاكة عبر المسافات
والشواسم أضيفها إلى سلة ملأى بفواكه من كل
لون • وقصر الصمت تكتسمت فيه سلال كهله •
الموسم أخضب ما فلتنت !

• فى نفسى دائما ركضى على التلال • وسبح
طويل بين صخور الجبل • بل حتى على أمواج
بحرة طبريا • المسيح يلازمى • حاليا • كبحر
القندين • تقطر أصابعه الطويلة بالمخبرات • وهو
يكاد لا ينطق • ثم تأتى ساعات الصحو • ذلك
الصحو العريض • الفسيح حيث تبرز الناس
والأشياء محددة • صلبة • واضحة لدرجة
الأيذاء • ما الذى نحن فيه ؟ أى فردوس مجازين
هذا ؟ فى هذه الساعة بالذات • ونحن فى هذه
القمرة الصغيرة تتأهب للخروج إلى البحر ثانية
وقد أرعقتنا الفلسفات والأوهام • ربما كان

غيرنا - رحالة انكليزي ، أو فرنسي ، يقطع الربع الخالي مثلا ، يفامر بحياته في رمال البوادي ، محاولا السيطرة على لغة تصي على لسانه وحتجرته ، ويجد منعة في شرب حليب الناقة بعد أن يفسل وعاء الحليب ببولها • ما الذي تعرفه نحن عن صحارينا ، والقبائل المفتوحة للصحاري • من خلق الله ، والمخلقة دوننا ، عن البدو مثلا من أمتنا ، هؤلاء الذين يعيشون معالم الطريق وسط أوقيانوس الرمال بكومة من الحجارة كمن يعين مسار هذه السفينة على الموج بغليظة عائمة • هؤلاء المفامرون ، هل يبحثون عن النفط ؟ ربما • عن المعادن ؟ ربما • يمسحون ما أمهلته حتى الآن من أرض ليعينوا له خطوط طول وعرض شرقا وغربا على خريطة ؟ ربما • يخدعون أغراضا خفية لدولهم ؟ ربما • المهم هو أنهم يقدفون بأنفسهم في بوادي الجهول ليعودوا بها يمكن أن يعلم ، ويحدد ، وفي تلك الأثناء يكونوا قد قارعوا الشمس وعاشموا النجوم ، وقهروا الطقس ، وعاشوا على حفة من التمر ، وهراوا بعض عجيزتهم على رحال ابل لم تخلق لهم • ولا ريب ، ولا ريب أبدا ، أن بعضهم أيضا هارب من أمر ما • هارب من مجتمع لا يتسجم معه ، أو امرأة يفشى زواجها ، أو راحة تنخر قلبه كالسهم في لحمه والخشب • ولكن الهرب لديه نحر الأصعب والأشق - والأجدي • خمس سنوات تقضيها رحالة بين الأعراب يتعلم لهجة من لغة لن يقرأها ولن يكتبها • ويعود إلى لندن أو باريس عودة قائد مظفر من معارك نائية ، ليصف طلوع الفجر على خيمة مرعى سوداء ، وكيف تتلقى الحصى أولى الأشعة النفسية فتتوهج كاللآلئ ملقاة ورامعا ظللا زرقا طويلة • أنه يكتشف الإنسان في جوهره ، وقد اغتنى بالله ونفسه عن كل شيء إلا الأقل الأقل : كلمة جييلة واحدة تطربه ، وكلمة حارقة واحدة تلهيه • حيث الروعة تنبدي كل يوم ، حيث الحياة هي الشجاعة المتجددة ولا يبقى للجبان إلا موته المتكرر • وفي النهاية يكتب الرحالة كتابه وينشره ، ونقرأ نحن بلغته الأجنبية لنعرف شيئا جديدا عن أنفسنا ، لنعلم منه أين بعضنا منا •

تأول فرندو الزجاجية ، وصب لنا المزيد من الويسكي • كان وديع وهو يتكلم قد استلقى على فراشه • وقد قمت أنا عنه وجلست مع زميله على الفراش المقابل • والرسوم مبشرة عند أقدامنا • وأخذت تفكير هذا الفلسطيني يتضح لي شيئا فشيئا : حسبته يتقاضى نفسه أول الأمر ، ولكنه بالعكس ، كان منسجما مع اتجاه منطقة الكثيف •

قلت : « رغم كل هذا ، فإن مفامريك هؤلاء ، كما قلت ، هاربون نحر الأصعب والأشق ، والأجدي • صليح • ولكنهم هاربون • أنهم غريباء • في بلدكم ، وفي غير بلدكم • يكتشفون المجاهيل في الأماكن النائية لينسوا غربتهم • ليقتضوا عليها • ليعودوا مظفرين إلى عالم يريدون منه احتضانهم • ولكنهم ، ككل المفامرين ، ككل سندباد ، لن يبقوا في أحضان الناس طويلا • سيستبد بهم حس الغربة ، والشهوة في الهرب من جديد • »

- ولكن ألا ترى أن لهم مركزا يعودون إليه ويقاسون به ؟ هنري لا يارد يصود إلى المتحف البريطاني بالثيران المجتعة ، والسندباد يصود إلى بغداد محملا بالجوهر • فالغربة نفسها هي غربة عن مكان ، عن جذور • وهذا هو جوهر الأمر • الأرض • الأرض هي كل شيء • تعود إليها محملين باكتشافاتنا • ما دمنا معلقين من أهدابنا بالسحب الرافضة ، فأننا في فردوس المجانين هذا • لهب ، لهب باستمرار • وعلينا الآن أن نعود ، إلى الأرض • حتى لو اضطررنا فيما بعد إلى انطلاق جديد ، يجب أن تكون لنا تحت أقدامنا أرض صلبة ، نجها ، ونخاصها ونهجرها لشدة ما نجها ونخاصها ، لنعود إليها •

مقاطعتي في مذهبنا باتجاهه : « الأرض ؟ كان أبي قلابا • كي جنوب العراق • ذهب إلى بغداد وقتل فيها رجلا • مها • في وضع النهار • من أجل الأرض • طمته بخنجر ، من أجل الأرض • »

فادعشتني إذ قال : « اهرف ذلك • »

- تعرف ذلك ؟

منذ أكثر من ربع قرن ، اليس كذلك ؟

- قضية وانتهت •

- المهم هو أن الأرض بقيت لكم •

- القليل منها •

- وما أنت الآن •

- نعم ، اهرب منها ، ارفضها • ارفض ذلك الصراع الماحق ، الأسود ، العقيم •

- عجيب • يا عصام • أنا ، جيشا ذهبت ، ومهما توهجت ، فأنني ارفض باستمرار في اتجاه أرضي التي أحاطوها دوني بالف كيلو متر من الأسلاك الشائكة • ارفض نحوها وفي يدى قبيلة • وأنت ترفض أرضك ؟

- بعت معظمها • فرحا • ظمرا • غير نادم • فاقتربت مني ، وثبتت عينيه الجحراوين في عيني ، وقال :

« ما الذي انت حارب منه ، بالضبط ؟ »
فاجبته مياغتتا :

« من لى ؟ »

فسمكت . وسحب نفسها عميقا من لسيكارتة .
ثم نفت ليج اللسان من شفثيه الشهوانيتين ،
وأعاد : « من لى ؟ » ويعنها نهض من على الفراش
وانحنى فوق الصور المبعثرة ، وراح يجمعها
واحدة واحدة ، لا يقول شيئا ، وأنا ارقبه ،
مؤملا ، بعد أن اعترفت له بسرى بكلمتين ، ان
يكون في صمته إشارة الى تفكيره بأمرى ، بانقاذى
ولكنه ما ان احسم الصصور فى البورتوليو ،
واغلقت ، حتى قال :

— امرك منته .

— ماذا تعنى ؟

— اعنى ، عليك أن تاكل هوا وتسمكت .
لم يفهم فرنندو كلمائنا الاخيرة . ولكنه كان
يتبعنا بعينه ، كأنه يفقه بنظره لا يسمعه .
وأخيرا قال بانكليزيتة : « أه ، لى ؟ أتهمك
السيدة لى ؟ » تو باد ، تو باد

غير ان وديع بلى على اصراره . قال : « الأرض
الأرض هي السر في حياتك . مع لى أو بغير
لى . ستجرك الأرض عودة اليها من جديد ،
مهما فعلت ، أينما ذهبت . لى هي التراب ،
الزرع ، الماء . إنها الأرض ، مهما تصورت ،
ومهما فشلت فى الامساك بها . لست أدري لماذا ضحكك عندك . ضحكك
كل فلسفتها » .

لست أدري لماذا ضحكك عندك . ضحكك
عن نقاء ، عن فرح . كان لى فجأة تجسست
فى الغرفة وجلست على ركبتى ، كما كانت
تفعل فى لندن . « الأرض » ، قلت ، « تهلك
لأنك نزحت عنها مكرها . ألا ترى يا وديع ، أن
حرمائك ليس جنسيا ، بل « أرضى » ؟ المحرومون
من المرأة لا يكفون عن الحديث عنها . وانت
محروم من الأرض » .

فضحك وديع وأخذ بذراعى ، بعد أن ودعنا
فرنندو ، ليخرج بى من القصة الضيقة ، وهو
يقول : « ولكننى قضيت هذه السنين كلها
مصرًا على الزواج منها — أهنى ، الأرض — أجمع
الفلس إلى الفلس من أجلها ، من أجل نسور
عينها . أنا انتهت غربى ، أو كادت . لقد
نقلت أموالى إلى القدس ، واشترت أرضا واسعة
فى قرية . قرب الخليل . وشأترى أرضنا
فى بيت حنينا . وسأبنى بيتا كبيرا من حجر .
وأزرع البنندوة ، والتفاح . ولو أننى لست
فلاحا . سأطبق أحدث الطرق . سأعشم الصخر
وأفرش عليه ترابا من تربتنا المسعراء
الخصبة الجميلة سأستنبت الحجر وربك !
سأحفر بئرا ارتوازية . سأجمع قطرات

المطر ، سأجمع قطرات الندى ، ٠٠ آ . وسأزوج
حالمًا أوجع ، لكى أجمع بين المرأة والأرض . فى
العصر ، بعد ، شيء من متسع . أريد أن أنجب
عشرة أولاد قبل أن أبلغ الستين . سأبحث عن
امرأة عرف عنها انها منجبة . امرأة ما ، ربما
سأزور ، ولو الفجل . وسأرسم . سأرسم
كثيرا . سأرسم صخورنا وأشجار الزيتون ،
وجدران الحواكير ، وقروياتنا بفساتينهم الزرقاء
والبرتقالية و « حطائهم » البيضاء الصافية .
تعال زرني هناك ، والبس حذاء ضخما ، لانى
سأمشى بك فى الوعر ، والطين . طبعسا
سأزود نفسى بألف أسطوانة موسيقية . فيفالدى
وباخ وتلمان وجوسسكان دوبرى ، وبرامز ،
وسيبيلوس وسترافنسكى ، وموسيقى اليكترونية
حديثة . هذه حشيشتى وأنا من المنمنمين عليها
ولكننى سأعيش مع الأرض . مع التراب مع
الصخر ستزورنى هناك ، بعد سنتين . سأكتب
اليك رسائل طويلة . ليها غسرى بالسفر
فى الطائرات والسفن . لن أسافر يومئذ ، إلا
فى ربوع بلدى . وكلما جن البشر من جديد ،
زيت عشر شجرات أخرى . أنا أعرف اننى
لا أستطيع أن انقطع عن الدنيا . ولكننى سأحاول
الانقطاع عنها ، لأكون على صلة أشد بها .
سيعطونون فوق راسى ، هذا لا شك فيه .
وسأخفى فى بطنى بندقيتين وبضع قبائل .
ولكننى سأزور ، وأرسم ، وأرى عشرة أولاد ،
سيفضلون الى دوعة الحياة — وإن يضيقوا الى
مأسيا كذلك . ومن هناك سأعمل على تقريب
الساعة الخامسة .

« بوسعى والله أن أقف على قمة رابية من
روابينا ، بين الصنوبرات العتيقة ، فوق منحدرات
الدوال والتين والمشمش والزعرور ، أقف هناك
وأرفع يدى الى السماء كالمجنون وأصبح بأعلى
صوتى : أرضنى فى الإعلى !

سبحانك اللهم سبحانك على هذا
العطاء ، هذا الاندلاق اللهب سبحانك لكأس ثمانك
على أرض البشر ، هذه الحشرات التى تسربل بها
الهضاب والوهاد ، وتقبض عليها من شمسك
وأقمارك يعارن من غشاياه وقتنة وتور وصب !
ولكننى أعلم أن هناك من حولى صراخا من الدمار
والويل والجوع والظلم ، صراخا يشوش على
كل كلمة أقولها ، كصغير لعن يشوش على محطه
تريد أن تسمعها من المذيع . إذن ، سأزيد
من رفع صوتى ، سأشوق حنجرتى بالصياح ، لكر
يسمع كلمات الشكر . وكلمات الاحتجاج
كذلك .

« والآن يا عصام ، هذه السيدة البغدادية
الجميلة ، ما حكايتك معها ؟ »

معسكر الاعتقال الصحراوي رقم ١٢٥

بقلم : جليل القيسي

مثلنا ، نام البعض بسرعة ، ولرثر آخرون بحقد أصم ، وهلوس البعض بعيدا في موجات الحلم . لم يبق الكثير على انتهاء هذا المعتقل الذي عملنا فيه بنشال وحشي مع عدد مثل الكباشنة ، ومقطع المسامر ، ومنص ، والمطارق الثقيلة ، والأوتاد ، والأسلاك الشائكة ، أن هذا المعسكر قد مضى الكثير من طافئنا الجماعية . وفي داخل هذا السور الذي أقمناه على أنفسنا ، نجتز ذكريات كثيرة في عزلتنا ، ومن ثم نبصقها على الرمل .

إن دائرة الأسلاك المخيفة بنا كانت تحتوي على توارخ تسيل من الأفواه ، والأيدي المشققة ، والعيون الحزينة ، والتأوهات ، وتنساقط الى ذرات صغيرة من الرمل في هذا البحر الممتد من الصحراء . هنا لا يستطيع الإنسان أن يكتفى بمجرد الراحة العادية في أوقات الاستراحة ، إذ تجره الأحداث قسرا الى عوالم بعيدة ، وقريبة . نتذكر رفاقا لنسا في السلاح أنتحروا احتجاجا على المعاملة القاسية وبطرق شاذة . غرسوا رؤوسهم في برك مياه الواحات واختنقوا دون أن يطلقوا نامة واحدة . وآخرون ضربوا رؤوسهم بأحجار كلسية ونثروا مخهم على الحصى . وإذا أراد إنسان ما أن يعرف في أية بقعة نحن الآن ، يوسعه أن يقتني أكله يقع الدم الكرزية التي زردتها أقدامنا انحافية على الطرق . وثمة جثث طافية في برك المياه ، أن لم تلت عليها النسور ، أو الغربان فهي ثمة تطفو منتفخة .

عملية الانتحار الواحدة كانت بمثابة احتجاج؛

هذا المساء ، وإذا لم تكن الذاكرة ، أو التقدير الصحيح ، تكون قد أوشكتنا على إنجاز أكبر معسكر اعتقال في قلب الصحراء . ولجت سحابة من الحراب ، وأفواه البنادق ، وكلاب الحراسة ، عملنا في صنع معتقلات كثيرة ، وكالعادة طلبوا منّا أن نستمع في العمل بصوت الساعة النحاسية من الليتل مستغفيل بودة الصحراء . وثبت عسكري منجهم الوجه رقعة كبيرة على باب المعسكر ، عليها الكلمات التالية : معسكر الاعتقال الصحراوي رقم ١٢٥ .

قبل إجباري كاسير للعمل في هذا المعتقل ، عشا حاولت أن أذكر عدد المعتقلات التي عملت في صنعها . ربما الرقعة ، أو الرقم بانذرت جواب على تساؤلي . كنا أكثر من مائتي معتقل ، عسرة أمام مشات الحراب ، والصحراء اللامحدودة ، والشمس الحارقة ، وفيهم تحول بكر الأيام الى بديهة ، بأن الهروب أمر مستحيل . ولكن كان البعض منا مشحونا بثقة بسعة الصحراء ، أن هذا العذاب لن يطول . كنا ندفن الكثير من الأحلام ، والحدق ، والذكريات في العمل الشاق .

وبضياع آخر ملاحم الأفق ، استسلموا بآله بروجكترات الأضواء أنجزة التي غسلت بانوارها الحادة مسافة بعيدة من الصحراء . وحتى في الليالي كانت الصحراء مشتعلة نذكرنا بلهيب الشمس ، والمشرق ، وجلودنا الكاكائية ، وسجننا الكبير . أكلنا بصمت ، واستلقينا على الرمل الذي تبخرت حرارته . أشك أن يكون ثمة من يعرف ، أو عرف الصحراء ، ولفة الرمل



جيل القيس

- من مواليد عام ١٩٣٧
- خريج المراسلة الابتدائية فقط
- مؤلف في مصلحة توزيع المنتجات النفطية
- صدرت مجموعته القصصية الأولى (صهيل المارة حول العالم) اواخر عام ١٩٦٨ .
- تصدر له قريبا مجموعة مسرحيات من فصل واحد تحت عنوان (جيلنا عاد انتصروا الابواب) .

لقد وجدوا فيها بروتينية منتجة . ثلاث ساعات من الاستراحة انتهت مثل اصفر حلم . صعدت السلم المثبت على جدار الاسلاك الشائكة قلت في نفسي وأنا أتتبع حدود الضيق : ترى لم هذا الجدار العالي لماذا الخوف وحتى الطير لا يستطيع ان يجد طريقه في الصحراء !

لبحت إقفازي الخشن ، ويدات أسحب الأسلاك ، والفناء ، واقص ، وأطرق بوحشية متفحشا من "حدي" . وكالعادة انطلق التذمر الأخرس ، والسب المبطن ، والحقد ، والغمضة ، والأغاني المشحونة بالحقد ، وأتفنى بالوطن . وفجأة وسط الصبح سمعت جملة غريبة ذكرتني برفيق لي كان يعمل لصقي قبل أكثر من اسبوعين . تغيلته بقوة من خلال حاضِر المسكر ، والأضواء المنعكسة على الرمل ، وجدار الظلام البعيد . كان وجهه الجاف الذي تحول الى لون التين المحمص أكثر وحشة من غربتنا وعملنا ، كثيرا ما كان يفوض في لحمي مثل إبر الاسلاك ويسممني . والغريب انه كان يعمل بتركيز ذات مضيفة . حدث مرة ان سألته عن سبب اهتمامه الميت في العمل للأعداد ، أجابني بحزن :

— آه ، اعداء ؟! لا تظلمني . اريد ان اتسنى نفسي . اتنى عندما أتمم أتمام مثل الجنة ، و أحلم في الليل ..

كانت له قوة ارادة شادة ، بل عجيبة ، ولكن عواطفه كانت مخملية - وكان الوحيد يبتعد الذي يبكي أحيانا بصمت كلما أكثرنا الحديث عن الشمس والرمل . ذات مرة سألته عن السبب عندما

ورفضي للتسمية الرديئة ، وتأكيد قاطع بان الإجهاد على انفس عملية سهلة في وجه اليهودية . وكسرى ، كنا دائما نمشي أنفسنا بالخلوص ، والعودة ثانية الى الأيام البعيدة ، الى الدفء واللمح ، والدكريات ، أو ربما الى أيام أكثر تعاسة . لا ، لا يمكن أن تكون ثمة أيام أكثر سودا من تلك التي قصيناها ، أو التي سفضيها في الأسر ، وصنع معسكرات الإعتقال للفدوى . كان انتحار أوتك الرماح طوال تنقلنا ، يؤكد لنا ان الشعور بال شخصية عندهم . اقوى ، وأوضح من كل واحد منا .

لم أفكر في الانتحار . كل يوم شوق عارم للعودة ، وان في الحقيقة شجنت سلسلة الانتحارات الاحتجاجية الكثير من لحظاتي بحالة شعورية محمومة ، وجسدت لي من خلال كل ذاك الأبحاف ، والمعاملة اللانسانية ، ونسب الاتفاقيات الدولية ، ان قدرة الانسان على أن يفوز في هذه الدوامه هي أعلى درجات الحرية .

كنا نحاول أن نجد مبررات كثيرة لوجودنا في هذا القدر الميكانيكي الغريب ، وننتهي الى حقيقة بسيطة في النهاية ، وهي أننا اسرى . أجل ، عاربنا ببساطة ، ولكننا قتلنا . وهذه السخرة الإجبارية القاتلة هي ثمن الفشل . كنا كومة أزمة ، نصر على أنفسنا الحساب بوحشية ، ونفثنا عليها بتبريرات كثيرة . كنا نعمل بجهد مجرد ان نثبت للعدو باننا رجال ذوو ارادة صديدية وصبر صحراوي . وفي الانتحار كنا نؤكد مبلغ حينا ، وأصالتنا في عشق الحرية . صدرت اليها الأوامر بالعمل ، وزعت العدد .

كنا نعمل سوية ، أجاينى بصوت لا جرس فيه :
أرجوك .. أرجوك .

وبعد انهماك طويل في العمل قال : اعرف
كيف اتى على القبض ؟ كنا ثلاثة ، كان احدا
مطمونا في بطنه . وكان المفروض ان أحمله الى
مسافة معينة ، ورفيقي الآخر الى مسافة
أخرى . وهبل يجب ان اذكرك بالرمل في
الظهرة ؟ القيناه على الرمل - كان جرح بطنه
كبيرا . اعرف ماذا فعل رفيقي الثالث ؟ حفر
بثرا بطول قامة رفيقنا المطمون ، وألقاه فيها بعد
أن صوب طلقا ناريا على رأسه ، وقال : « ميرتاح
الى الأبد . » آه ، بدأت أنساه بعد كل ذلك
الذي رأيناه عبر تنقلنا في المعتقلات .

صمت ، وتصنع حائلة لا إهالية . وفجأة
انحدرت دموع صسيرة من عيني ، وغاص في
عوالم قريبة ، وقال :

- اعرف انه كان متزوجا .

وخلت انه سألني فيما اذا كنت متزوجا ،
اجبت بسرعة :

- كلا .. وانت ؟

توقف ، ومد بصره الى حيث حدود الضوء ،
وقال :

- نعم .

قلت :

- واطفال .

صر على أسنانه ، ومط عضلات وجهه ، ونزع
قفاز يده اليسرى ، وبحركة تشنجية قرب
أصابعه الطويلة أمام عيني ، وبحركة سريعة
وباردة ، يثرها جميعا بالمقص الذي كان يمسكه
بيده اليمنى . سقطت الأصابع مثل الحصو على
الأرض . وبحركة أكثر برودة تكس رأسه من
فوق السلم وراح يحدق فيها على الرمل . ولانى
رأيت عمليات انتحارية تفوق في رعبها هذا
الفعل ، اكتفيت بأن أطلقت أنه مخنوقة ، ووددت
بهمس :

- ماذا فعلت ؟ لماذا ؟

أعاد القفاز الى يده ، وقال ببرود .

- أجل ، خمسة .

- لماذا بترت أصابعك ؟

حرك رأسه ، وقال :

- لن أعمل بعد الآن .

نزل من على السلم ، والتقط الأصابع المختورة
بهدهو ، وذهب الى عسكري على مسطرة بضعة
أمتار من جدار المعتقل . ومن فوق السلم ،
وتحت الضوء رأيت الأصابع في كف العسكري
يعيث بها مثل الديدان . ارتعب العسكري ،
وانبثع يريق حاد من عينيه ، وقال بتلثم :

- اما هذا فمستحيل . انت مجنون .

- كلا .. أنا بكامل قوى العقلية . اننى لن
أعمل بعد الآن .

- لماذا بترت أصابعك ؟

- احتجاجا على هذه السفالة . اننى
بسيطة أسى حرب ولست عبدا .

نزع العسكري القفاز من يد رفيقي ، ولدفت
خيوط رفيعة من اللحم على الرمل . وقال
العسكري بهدول .

- يا هذه القسوة .

سقطت لا شعوريا على الأسلاك ، وبقيت رغم
انعراس الأبر في صفحة وجهي أثرصد . كان
بقية الرفاق يعملون بصمت ، لأن مراجعته
عسكري ، أو الدخول في حوار ، وتقديم
الاحتجاجات كانت من الأمور اليومية العادية .
ابتعد العسكري عن رفيقي ، وقال :

- انتظر ريثما نهيئ لك بعض الاسعافات .

واختفى بهرولا الى اقرب خيمة . نفضت
رأسى عندما جأني صوته قائلا :

- هل آت من مدينة (د) ؟

قلت وأنا أمط عنقى .

- كلا .. ولكننى أعرفها جيدا .. ماذا تريد ؟

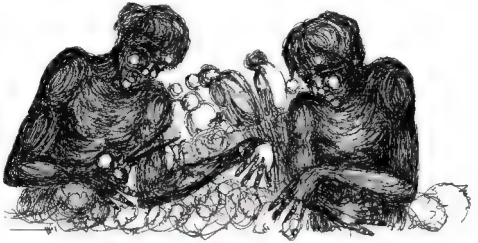
- هل تعرف منطقة (ك) ؟ انها مشهورة . ثمة
شارع فرعى في سوق الجزارين . الباب الثاني
هو بيتى .

- وماذا تريد ؟

- اقول ، اذا رجعت ، هناك أمام الباب تجد
امرأة عجوزا تجلس طوال النهار . امرأة تسبح
باستمرار . كثيرا ما تجلس مربعلة من النساء .
أخبرها اننى رحت أعالج أصابعى . كان منظرنا
غربيا ونحن نتبادل الكلام ، نا من فوق السلم ،
وهو على الرمل . قلت :

- والأطفال ؟

احتضنتى طويلا بعيني ، ورسم على وجهه



نعمل بعد كي نستطيع التمتع بتلك المعطلة التي
قيما كنا نعيشي موالم كثيرة ، ومثل دودة القز
التي لا تكتب من إنتاج خيوطها الحريرية ، كنا
نتنتج الذكريات ونقتات عليها بلدة .

نقلت السلم الى مكان آخر بعد ان انجزت ربط
الاسلاك ، وبدأت اعمل لصق رفيق آخر . منذ
مدة طويلة وأنا أنفادي العمل لصق هذا الإنسان،
وبالأخص في الآونة الأخيرة حيث ظهرت عليه
بؤادر شيزوفروينا واضحة . هو الآخر كان يعمل
بعد . قرب سلمه مني ، ودونما مقدمة ، قال
بصوت فرح :

- اعرف ، لقد رجعت من البيت لتوي .

- من البيت ؟

اعطاني وجهه ، وقال كمن يهذي :

- قطعت هذه الصحراء جريا ..

- متى ؟

أجابني بصوت مخنوق .

- اوه . متى .. كلكم تسألون متى . كان
باب المسكر متفوحا ، والاضواء خافته . زحفت
خارج السور لمسافة بعيدة ، ومن ثم نهضت ،
وجريت بقوة . ملأني شعور عميق بالفرح .

ابتسامه صغيرة ، وقال بعد أن اعطاني ظهره .
- ثمة خسائر في كل انتصار .. اعطيهم
هدية .

سار بخطوات واسعة صوب جدار الظلام ،
ورأيت يده التي بترت منها الأصابع نائمة فوق
نخذه . ابتعد كثير من حدود الضوء ، وطاردته
الاصوات الزاخرة بالوقوف . وأخيرا استمرنا
بالعمل بعد دقيقة حداد ، عندما شقت اصوات
الطغلات صمت الصحراء الكلسي .

لست وحدي الذي كلف ينقل التحبات ،
والأخبار ، وهذايا رمزية للرفاق الذين انتحروا
معى الآن العشرات محملين بأكثر من هدية
رمزية ، أو توصية . من يدي ، ربما ، أو هم
بدورهم سيسلمون تلك التوصايا للبعثي . كانت
العادة أن نستمع الى أكثر من محاضرة بعد كل
عملية انتحار ، أو خرق للقوانين ، حتى نطمنا
كثيرا من تلك الجمل الجاهزة ، والسخيفة .
وبانتهاء المحاضرة ، كنا نعود الى الصمت ،
والحدق ، والعمل وكأننا استمعنا الى هواء دثلاث
بعيدة ..

كان العمل الليلي أهون بكثير من عمل النهار.
وكنا نعيشي معطلة لا بأس بها لو مثلا انجزنا العمل
الثنوي بنا قبل الوقت المقرر له . لذا ، كنا

جريت بكل مандى من قوة . وفجأة طاردتني اصوات فزع ، وعويل ، ووقع أحذية . تخذرت في مكاني ، وظللت أراوح مثلما نفعل عادة في ساحة التدريب . راوحت طويلا ، ولمست احدى فيما اذا كنت اسير الى الامام ، او الى الخلف . شيء ما كان يشدني الى الرمل . توقف من الكلام ، وأطلق زفرة طويلة ، وبدأ من جديد بصوت راعشي : « زادت الاسواط ، ووقع الأرجل ، وغسلني نفس هذا الضوء اللعين . طاردني الضوء ، وكان يضحك ، ويصفعني - ولحق بي جندى ، كان يطول تارة ويقصر فجأة ويتحول الى شكل فار صحراوي . ثم طاردتني حراب حتى يباب البيت . رأيت والدتي جامدة تحتسي الشاي . شربنا معا ، وتكلمنا طويلا ، ثم استلقيت على سريري ، ورحمت دونما سبب أكثر من الضحك . وعندما صرخت على والدتي بقوة ، هطلت ، ووجدتني في المعتقل من جديد . بدأ يعمل . وأطلق ضحكة تشنجية . وبعد حوالي الساعة ، أخذ يكرر من التحديق في حدود اضواء البروجكترات ، ويقوم بحركات مجنونة ، ويضحك ، أو يلوح بيده . التفت الى وقال بفرح طفولي .

— انعرف أن خطيبتى جاءت لزيارتي .

قلت في نفسي : هل يحق لي أن أشوش الذكريات ، والإحلام على هذه الإنسان النوى يبدو أن شعور القلب عنده أسقى من كل شيء ، لقد هربت رافقا في السلاح انتحروا وهذا الإنسان من ضمنهم ، أن الاحساس لديهم أقوى بكثير من أن يستطيع الاحساس نفسه أن يتكشف . في الحرب ، أو في الأسر ، هل حقا توجد ثمة قوة تستطيع أن تمنع الإنسان من أن يستعرض ذكرياته ، وسقطاته ، وجهه ، وأوهامه ؟ في قلب هذا الرمل ، والرصاص ، والعذاب ، والاعمال الاجبارية الشاقة ، والانتحارات ، تعلمنا ان نحفظ بقليل من المخمرة للمستقبل . استمر رفيقي يترصده الضوء بشوق ، وقال بعد أن انتابته حالة تشنجية :

— انعرف ان خطيبتى جاءت لزيارتي !

— يبدو أنها تعبك كثيرا .

— بل تعبني .

أراح صدره على الاسلاك ، وقال .

— قد تعتقد أنني أكلب عليك . أقسم

كلا . .

— متى جاءت لزيارتك ؟

— قبل دقيقة واحدة فقط .

— وهل قابلتها ؟

— ليس بعد . أشارت لي من بعيد . هل تريد أن ترواها ؟

تكتس رأسي ، وبدأت بالعمل مرددا لنفسي : « حقا ، أي شيء يجوز في الحرب . » وأضاف بعد قليل :

— انها جميلة . هل يمكن انها صبغت شعرها بلون الرمل .

— أوه . . يمكن . . كل شيء يمكن .

— اتعرف . كثيرا ما أخاف من عينها .

— لماذا ؟

— مثل عيون اللذيق .

صمت ، ومد بصره بعيدا ، وتجمد في مكانه ، وابتسم ، ثم حرك يده المسكة بالكفاشة الكبيرة وراح يلوح بها كمن يودع مسافرا .

توقفت أنا الآخر من العمل ، وجعلت أترصد حركاته الهستيرية . وذهلت عندما رأيته يكرر من تحريك يده ، ويطلق فمضات مخنوقة . التفت الى ، وقال :

— هل رأيتها ؟ انها هناك . . هل استطيع الذهاب اليها .

— تعقل ، وأتركها هناك .

— لكنها تنتظرني .

— دعها تنتظر ، والا ستغيب الى الأبد .

— فإذا تقصد الى الأبد .

— أعني لو ذهبت اليها لقتلتها هناك .

قام بحركات فربية ، واضطرب كثيرا ، وقال بصوت مخنوق :

— لن أقتلها . سنجلس على الرمل . . فقط نتكلم مثلما كنا تفعل يوم كنت أدخل السجن لأكثر من شهر . . عملية بسيطة .

وبكر الدقائق انتابته هلوسة حادة ، وضرب جبينه على الاسلاك . لمحت نقاط صفيرة من الدم على وجهه . أردت أن ابتعد عنه ، غير أنه أمسك بكفي ، سحبني بقوة قائلا :

— هل رأيتها . يجب أن أقابلها .

مطحنه ، وأطلق زفرات طويلة ، وقال :

— تلك هي تشير لي . انظر . . انظر في اتجاه يدي .

نظرت في اتجاه يده ملاطفا ، رأيته يتربص تعليقا كبيرا يحاول أن يقترب من حدود الضوء . تنبست الحيسوان بدقة دخل حدود الضوء بخطوات وجلة ، ثم تراجع بخفة ، واستمر في تلك الحركة مدة طويلة . وجنت لشاعرية رؤى رفيقي المضطرب . كان ذيل الثعلب مكسوا بشعر



لجهد ان يؤكد لنا ان الهروب مستحيل .
تطايرت شرارات مجسونة من عيني رفيقي ،
واضطرب بشكل مجنون . قرب وجهه مني ،
وقال كمن يصلي :

— ماتت .. ماتت .

ظل جامدا في مكانه . شجسته على العمل .
أطلق كلمات كثيرة لا معنى لها . مد بصره الى
حدود الضوء ، وقال :

— ماتت .

ويحركه سرعة ، ووحشية وضع شفتي
الكماشة حول عنقه ورأى بضغطة عليها
بوحشية . تدفقت نافوره صغيرة من الدم من
فمه ، وتمزقت حنجرته ، وسقط من فوق
السلم ، وتلوى على الرمل . نهض بشغل ،
ودهب بخطوات ميتة ، وتعتمد بحركات حزينة
لصقت جثة الثعلب ومات .

وفي الساعة الثانية صباحا ، انتهينا من انجاز
المعتقل ، وصدرت الينا الأوامر أن نترافق على
مبعدة اعمار خارج المعتقل . تأملنا بصمت المعتقل
الذي عانينا كثيرا في بنائه ، واسترجعنا بعضا
من ذكرياتنا فيه . بحثت عن جثة رفيقي
والثعلب فلم أجدهما . ومن بعيد رأينا قافلة
صغيرة من الاسرى تدخل بخطوات رفيقه نطاق
الضوء . لمعت أجسادهم المحمصة العارية تحت
الاشواء ، رفعوا رؤوسهم بشموخ ، وتقدموا
بحركات ميتة وكأنهم مربوطون بمجلة . تبادلنا
نظرات طويلة . وفي الوقت الذي انطلقنا
بخطوات متخشرة للعمل في مكان آخر ، تقدموا
هم للدخول في المعتقل الجديد .

غزير وعلى نحو غير طبيعي . وكان يوسخ اي
حالم هنا ان يشبه ذلك الذيل انغزير الشعر
بشعر امرأة . اما اذا كان في أزمة رفيقي النفسية
فانه لا يتردد في تشبيهه بأي شيء . وسألني
بجرس نزع هل رأيتها ، ولجهد التخفيف من
هياجه ، قلت .

— تلك هي .

وتهيا للنزول من على السلم . لإقافته .
فضب . قلت .

— تصرف برجولة . دعها تأتي هنا بنفسها
وتسال عنك .

— لكننا تشيرني — تذكرني بالأيام الاولى
لتعارفنا .. سأخبر بقية الرفاق ، ربما هناك
اخرىات معها .

امسكنه من كتفه ، وصرخت عليه .

— تعقل .

— أرجوك دعني .

— لا تذهب .

صرخ بقوة .

— لماذا ؟ لماذا ؟

توقف من الصراخ ، وبعد لحظات شقت
أصوات سريعة صمت الصحراء ، ورأينا عسكريا
قمتا يسجل الثعلب من ذيله . التقى الحيوان
لصق جدار المعتقل . تمطت الأمتاق ، وتصور
الجميع ان احتجاجا آخر انتهى بالموت . ولدائق
تكونت الأبصار فوق الثعلب الميت على الرمل ،
وتطايرت التعليقات الساخرة ، والزمرة ،
والسخرية ، وبدأ العمل .

تعمد العسكري القاء الجثة وسط الضوء

الخيل والمقبرة والسلاسل

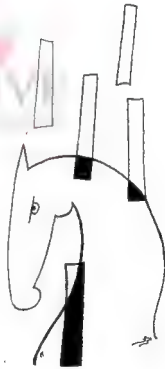
بقلم : غسان كنفاني

قال الطبيب لجدي : تحتاج الى رياضة كي تعيش ، قال جدي : هجوز ورياضة ؟
هذه هي الطريقة الوحيدة لتعيش ، اركب الخيل مثلاً .

لقد ركب الخيل كل معري ، وكففت عن ذلك منذ شهرين فقط .
عد الى ركوب الخيل ، اذا اردت ان تعيش .
في صباح اليوم التالي ركب جدي حصانا جمع به نصف حصن واطيه عنقه .

الجياذ جرت عربة الموت الى المقبرة وسرنا خلفها . سائق العربة رجل قصير له زوجة وست بنات ورواء ليليكي لحصانه الاسود . في الايام العادية يؤجر حصانه لحديقة الاطفال . في ايام الموت يسوق الحصان العربة الى المقبرة بخطوات جنائزية متزنة تدرب عليها طويلاً . وكلاء حديقة الاطفال يعيون الحصان ، لان خطوانه متزنة ورصينه لا تخيف الاطفال ولا تعرضهم للخطر .

صاحب الحصان تزوج ارملة جثة ساقها الى المقبرة . جاءته في الصباح سوداء ، وتحدثا عن الجنازة وعرف انه سيتزوجها ذات يوم . في الموكب راقبها من فوق وكانت الجثة في الصندوق المحكم الاغلاق وراعه . حين اصاح الصجلة الخشبية وضغ الحديد طوق الحديد



على الأرجوحة وأخذت ادفعها وهي تضحك .
الى فوق ، قالت . أكثر الى فوق . وضحكت .
أكثر . فوق . ضحكت . أكثر . أكثر . أكثر .
ثم صعدت ، وانتظرتها . لم تعد .

وجن جنون الحصان فاخذ يدوس على الأرض
ويصرها بقسوة . وخشيت أن يقتل الأطفال
الا أنني تذكرت أن الأطفال لا يموتون ، فصرقت
النظر عنه ، وأخذت انتظر أن تعود ليلى على
الأرجوحة . ولكنها لم تعد .

لم تعد ليلى

وهرب الحصان وأخذ يجمع مثل العلم على
التلال المحيطة بطلع الأولاد ، وقال لى بصهيل
مثل احتكاك سيفين . الطريق بين المقبرة وملعب
الأولاد ، بين ملعب الأولاد والمقبرة صارت مملة ،
ولقد اعتزمت أن اسلك ، بين الملعب والمقبرة ،
طريق التلال . هناك ألقى الفرس ، وهناك
تنجب المهور .
واختفى الأطفال .

عذب ماشيا الى البيت .

الحصان الذى رجع بجدى وقتله حرب هو الآخر
الى التلال .
وكذلك حصان القبار .

اهترأت الصخرة التى تنقل الموتى ، واكل
السوس عجلاتها .

لم يبق منها الا اطواق الحديد التى كانت
مثبتة من حدوات الخوافر المبرية .

وذاث يوم جاء رجل من التلال ، على حصان
بلا سرج ، وأخذ اطواق الحديد الباقية ، وصهروها
حدوات خوافر خيول من جديد .

لم يعد ثمة من يدفن الموتى ، وصاروا - قبل
أن يموتوا - يحفرون حفرا تتسع لأجسامهم
ويسقطون أنفسهم بها ، غالبا على التلال .

مهر . حصان وفرس . مهر آخر .

حدوة ، عجلة ، حدوة أخرى .

طفل ، رجل ، رجل آخر .

تلال .

تلال .

تلال .

المجر حولها ثم صب الماء البارد فوقه فاطبق
الظوق صلبا حول المجلة الخشبية ، واعتصرها
ولم يعد من الممكن فكها . وكانت تنظر اليه من
تحت وتنجب به فى خجل . فى الصباح شاهدت
الموظف يلف أوراق رجلها الميت كاسطوانة
ويحكم ربطها بالمطاط ويضعها فى الخزانة . انتهى
كل شيء . اعتصر المطاط الاسطوانة .

مهر ، حصان وفرس ، مهر آخر .

حصانه القديم مات . اخذوا حدوات حوافره ،
لم تكن دوائر مغلقة . حدوات مبراة لا تصلح .
صهروها وصبوا منها طوقا جديدا لمجلة خشبية
جديدة .

مشينا وراء العربية . كان القبار رجلا أعمى .
وكان المطر يقسل الحفرة المدة . وحين اسقطوا
النعش الثقيل غاص فى الوحل . وقال الدفان :
« لا عليكم ، سيخرج من الطرف الآخر » . كان
سور المقبرة مزروعا بالزجاج . امسكوا طالبا
يسرق مظاما يبيعها لاسأذته ويشترى خبرا
وحليبا .

عدنا ، وكانت ليلى تبكى ، وقالت : احسن اننى
انا التى مت . احسن اننى ميتة .

اتركنى اذرع فيك الحياة . اتركنى اضمك
عابرة الى عربى . طريقة رجيدة لتسرى
رعشة الحياة ، الت الميتة ، اتركنى ،
وتركنى .

وكان مندى عربية وحصان وزوجة ، وسيمير
مندى زوجة أخرى ، اسمها ليلى .

مهر ، حصان وفرس ، مهر آخر .

ولم اكن أعرف ان ليلى جاسوسة ، قتلت
زوجها لأدفعه ، ولتجنبنى ، وأحبها ، واتزوجها ،
وتتجسس على .

واخذتها الى بيتى .

اننى قيسار : أزوج الأرض جثث الرجال
واتزوج أرامهم . واكتشفت ليلى الحقيقة كلها ،
فانا أرى الموت ، فقط ، وسيلة للحياة . أراه
مهر ، وذلك كان كل ما أرادته ، وحين عرفته
أحبتنى حقا .

ويوما أخذتها الى حديقة الأطفال . وكان
الحصان ينقل حوافره برصاة العجوز فائد
الذاكرة . من وراء ظهور الأطفال وضعتها خلسة

ميخائيل والبجعة

بقلم : ادوار الخراط

بخشونها العارية والشيوخ الملتوية الدقيقة لها،
تصحو منه ، مهددة ، وتميل عليه . الستارة
على لافتة الشرفة لا تحجز عنه شغل الوعد
التي تلتصق عليه ، وحدها ، لا شيء آخر معها ،
من كلمة الشاة بين سطوح البيوت . حل الحب
هو هذا النداء الذي لا رد عليه أبدا ؟ ولا ينقطع
لا يملك ان يردده عنه ، ملحا ، يصحبه في
صحوته ونومه ، منذ أمد يبدو له قديما ، قديما ،
لا يبد له ؟ ولا تبدو له نهاية .

هل الحب هو عنه ألوحة ؟

في كل ليلة يموت ميتة صغيرة ، ويموت في
الصبح ، ميتا .

وطبعا ، ليس هذا بالأمر المسلي

قال لها : ما كنت أظن في نفسى هذا القدر
من المراهقة بعد .

وكان قد قال لها ، بصوت جهد ان يكون خافتا
ومعتدلا ، كان فيه ظل سخرية :

- كل هذه الخيالات ، هذه الآلام ، والحديث
الذي لا ينقطع ، يبتني وبينك ، في حلم يقطعه
مستمر يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ...

هل يبدو لك هذا عاطفيا جدا ، وصبيانيا ؟

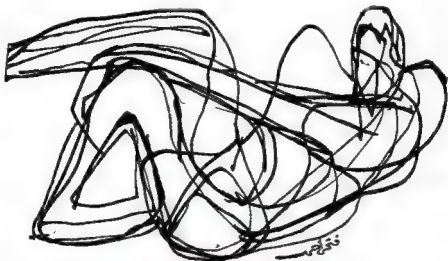
ولكنه حقيقي .

كانما السيارة في الصبح المبكر قد اختزلت
حافة الشمس التي بدأت ، منذ دقائق قليلة ،
تشتعل باخضرار في وسط فروع الشجر
المورقة ، يقطعه بفرح ، كالأطفال ، حول الميدان
الصغير الخالي .

زقزقة العصافير - خفيفة تتطاير مندفعة
ولا تلتصق بين الشجر وشرفات البيوت النائية -
تغطي الميدان نبرة ريفية ، أو كأنما في ركن من
ضاحية بعيدة . كأنما شارع النيل ، على بعد
خطوات ، وجسوره الضيقة المزدحمة ، وتسابق
السيارات والتورللي بأس واللاتوبيسات ، كلها،
في عالم آخر .

هواء الصبح ، سخنا وان كان ما زال قليلا ،
ينسكت داخلنا من بافئة السيارة ، وهو يدير عجلة
القيادة ، بيد واحدة ، ذراعه مرتكئة على النافذة .
وهو يخرج من لحظة عابرة ، غير حقيقية ، باهتة
الزرق ، ليدخل الشوارع المثلثة .

عندما فتح عينيه ، وقد انتفضى من النوم
فجأة ، دون سبب ، وجد أنه لم يفادر العلم
الخائف الذي كان قد نام في قبضته . وكأنما
هتف باسمها في شجى ملقاع ، كما نام وهو
يتنادى به ، وكأنما قال لها : رامة ، رامة ، هل
تسعينتى ، هل ترددين ؟ أميك . وكأنما ضحك
من نفسه ، يمزق نفسه . حواظ غرقة تومه .



قال لها : لست ادري كيف أقول لست ادري
ماذا أقول .

قالت له : لهذا أحبك .

ثم يمشي قدميها ، أبدا ، انه في كل مرة
يلقها ، يذهب إليها وفي قلبه عذاب غير مفهوم ،
كانما ينتظر ألا يجدها ، بل يجدها أخرى ،
لا تعرفه ، وتساءله : من أنت ؟

لم يقل لها أبدا : الا تحسني وما قضيتان
اليسجن تضغط على اللحم العاري المكشوف ؟
الا تحسني التهر يقبض على ناصية القلب ، يقبض
على ناصية السماء ؟ والصرخة المكتومة ؟

ولن يقول لها : فقد كان يظن ان في طبعه
شيئا من الكبرياء . وكان يظن ان الاشياء
الهمة حقا لا تقال ، ولا يمكن ان تقال .

في حديثه لنفسه معها ، قال لها : ماذا يمكن
لواحد ان يقول عن شيء كالنوت ، أو عن الصديق ؟
أو عن الحب ؟ كل شيء قيل .

وكان يظن ان الكلام - مجرد الكلام - مهما
كان حارا ، أو نابعا من أصل الحياة نفسها ،
خيانة .

وكان يقول لنفسه انه مخطيء في هذا كله .
وان البلاء ليس في مراوحة الحس والقلب وحدها .

أريد ان أقول حقيقي بمعنى آخر ، محدد ،
وغير عاطفي بالمرّة .

كل شيء آخر ، بجانب هذا الظلم ، بجانب
هذا النداء المكتوم ، بجانب هذا الشوق اللاذع
الالام ، كل شيء آخر خفيف الوزن ، يطفو في
ماء شح .

قالت له : ولكنه حس بالحياة الحقيقية .
حس طيب .

قالت له : منذ يومين ، وانت غائب ، جلست
وكتبت لك خطابا أحاول ان أقول لك فيه
ما أحس . كتبت نصف صفحة ، ومزقتها ،
وجدتها مراوحة جدا .

كان صامتا ، مختفيا ، حبه الآن مسجن
بلا نافذة ولا باب .

قال لنفسه : في هذا كله عنصر طلق لم أبرأ
منه . كنت طننت نفسي قد برئت .

قال لنفسه : فإين المرض ؟ في الطفولة أم
في الجفاف الذي نغرضه على انفسنا لاننا لم نعد
أطفالا .

قال لنفسه : ليسست هذه نكسة الى مرض
قديم . هي حياة . هي الحياة وحدها الحياة .
ولم يضحك ، هذه المرة ، من نفسه .

وان التضج معناه التصالح مع نصف الحل ، وقبول نصف التسوية ، والتسليم بما لك وما عليك ، والرعي بما تستطيع ، وما يستطيع لك العالم . التضج معناه ، كما يقال ، الاحتفاظ بنضاضة الامل الناعمة ، مروية بالآه - ولو كان ماء ملحا - في قلب صخرة الياس اليابسة .

وكان هذا كله يبدو له فجبا جدا ، وغير مقنع . ويقول لنفسه : ليس الامر نكسة للمراحة ، بل هي عرامة شسوق للحياة لا تنطفئ أبدا ، وايمان كل بان الانسان لا يمكن أن يظل وحيدا . وان الحب ليس كذبة . ايمان ينكر كل الوقائع وكل الحقائق ، ويتحداها .

ويقول لنفسه : هذه بالضبط هي المراحة

فيسكت ، دون اقتطاع .

قال لها : أين ذهبي ؟

قالت : كما تحب . انا تحت امرك يا حبيبي .

قال : جزيرة الشاي ؟

قالت : نعم .

كانت قد جاءت قبل موعدا . لم يكن يرى شيئا غيرها - وكان لها جمالها الذي يؤلم . هل الحب هو هذا الالم ؟ في وسط تيمانان الثمور الغاص بالوحوش والسموخ .

وجهبها الآخر ، المائل ابدا في الزمن ، لم يعرفه ، كانا كان هناك دائما ، مع ذلك . في عينها توق صميم ، يرى شيئا لا يراه احدا غيرها . ووحشة ترفض الياس ، وبحث . هل تجددين ابدا ما تبحثين عنه ، يا حبيبتي ؟ موجة الزمن الزرقاء والخضراء ثابتة ، لا تنحسر ، لا تنحسر . واجساد الأعشاب البحرية التي جففتها الشمس في صفرة عينها . لم العشب الاصفر ينضج بالحرارة والجفاف ، على صخرة لا يبلها الماء ، غارقة في بحر قديم . شفتها رقيقتان ، ناعمتان ، فيهما سمرة نظيفة ، بدائية ، لم يخصبها الروج . وكانت وحدها . يا طفلي ، كم انت وحيدة ، انت ايضا ، وحيدة في كل سياق حياتك المزدهم المضطرب .

كانت قد قالت له ، في آخر تلك الليلة التي رمت بها اليه عاطفة الحب والشهوة واليكاء والحزن والاحباط : احك لي حكاية ، لا تتركني حتى انام .

بصوت صغير ، جارج ، لانه رقيق ولا حول له ، امام اتساع وحشة لا نهاية لها .

كانت وديعة كطفلة ، تحت غطائها ، وكان يحس دقة جسمها يملأ لحنته كلها . ولم يكن يعرف ، عندئذ ، قيمة الكنز الذي بين يديه ، رصيد من الحب والقدرة ضيعة الى الابد . كان يبحث ، رغما عنه ، عن صدق مزعوم . كان مدفوعا به الى الخلف دائما بقسوة يقاومها وتستنفذه . كان ما يزال مبهورا في صدمة كشف لا يصدق . يصارع نفسه . أن يتعلم أبدا كيف يطلق نفسه من اسارها ؟ ليس من صدق أبدا الا هذا الصديق الوحشي العاري الأول ، صديق صدمه الالتقاء الذي لا يقاوم بين جسدين . أكثر بكثير من جسدين - في تجاذب يكتسبح امامه كل انفعال ، تلاحم انفجار نواة الكون نفسه ، ارتطام الافلاك بقوة قانون لا يقهر ، التفاف العناق والاتصاف المحيم الذي لا ينفسم ، وقبلة الاعتصار والشوق الذي لا تعدد حدود ، فجائية وعذبة عنوتها الصارمة الكاملة التي لا تعرف حدا ، عذوبة حرة لا نهاية لها ، علوية تحقق نهاي لا يمكن الغاؤه أو تكرانه .

قالت له مرة : هذا الوعي الفيزيقي المخيف

بيننا . . .

ولم يجد ما يقول . لانه لم يستطيع ان يختار ما يقول من بين ما كانت نفسه تهدر به وتثور ، من مدى تنقلب فيه آلف صرخة شوق وفرح ، وعتج فيه بداءات محرقة ، وبهجة مكتومة . بد صحة ثقيلة نكتم الزلزال ، والأرض تدور دورها البطيئة في الليل .

بدا يحكي لها حكاية أطفال ، مستمتعا بحكايته ، متعبرا بها ، وساخرا منها . صوته يرتعش بحب لا يعرف بعد انه هناك : يحكي ان اميرة صغيرة خرجت الى الغابة ، تبحث عن شيء لا تعرفه ، ولكنها تعرف انه هناك . وقطعت الاميرة بلاد الله . بلاد تشيلها ، وبلاد تحطها والتفت في بحثها بالاشجار ، والسحاب ، والغيلان ، والاطفال . لم تجد ما تبحث عنه . ويشرق الصباح . ثم يأتي الليل . . . دليلا يأتي الليل . . . والبحث . . .

قاطعت بصوت نصف قائم ، نصف ساخر :

.. ليس هكذا تحكي الحكايات ، يجب ان تقول اسم الاميرة ، وان تصفها لي . . .

راماة . . . وامة . . .

قال فجأة ، بحدّة ، ضاحكا :

.. لا عليك الا ان تسمي الحكاية فقط . حتى تنامي . . .

قالت بخضوع أوجع قلبه ، بنت صغيرة تبحث عن أم صغير ، لا تريد أن تفقده :

– طيب .. اكمل حكايتك يا حبيبى .

وعندما كان يقول لها إن الأميرة وجدت الفارس الذى تبحث عنه ، لم يكن يصدق الحكاية الرثة البالية . وكان فى عينيه ميساه ملحة قليلة ، لم تلتصكب .

قالت له : لا تتركنى حتى أنام .

لم يقل لها : هم تخافين يا حبيبتى ؟ ما سر الفراغ الموحش حوليك ، صحراء لا نهاية لها ؟ احاطت كتبها بذراع فى حنو ينقل ذراعاه بأحبال لا تطاق . وكانت قد غرقت فى عالمها الخاص الذى لا يمكن أن يدخله معها . وشبهت ، فى نومها ، بأخر شهقات البكاء ، وقالت فى الحلم : ياله من رجل غريب .

قال لها : من هو ؟ من هو الرجل الغريب ؟

استيقظت نصف يقظة ، وقالت : نعم ؟ من ؟

قال لها : نامى يا حبيبتى ، نامى الآن .

– لا تتركنى .

– لن أتركك . أنا معك . تلغى الآن .

من هو الرجل الغريب الذى تسألت عنه ؟ فى أول خطواتها على أرض نومها ؟ أكانت تبحث لنفسها عنه هو ؟ أكان هو الرجل الغريب ، المضحك شيئا ما ؟ لا شك أنه مضحك قليلا على الاقصر – عندها . لن يعرف أبدا بالطبع . هذه الأسرار الصغيرة التى لا يعرفها حتى أصحابها .

عندما كانت السيارة الصغيرة الضيقة مغلقة عليهما ، فى عتمة أول الليل التى تشمها أنوار زرقاء خافتة سرعان ما تضى ، كان حسه بالنفس الدافئ الخصب الذى يتضوع من مجرد وجودها يحيط به كانه نشوة سكر خفيفة وعميقة مما ، تكشف عن المعنى فى كل شيء . كان هذا النفس الأثري نفع يتبوع خفى من ماء دسم يجرى عن بؤرة غنية فى داخلها .

قالت له : كل الناس تحب المحبين .

نظر الى عمق عينيهما ، فى قرين العتمة الحميمية . بصيرتين من الملح فى رمل الصحراء الاصفر . ومع ذلك فالسيارة الصغيرة قطة معابة ، كأنها أيضا سميدة مرحة وان كانت لها مخالب . كان القماش الرقيق الذى تصب به شعرها يوحى اليه بنعومة خاصة . لجت به رغبة

لاعجة أن يعرف مرة أخرى رقة شفتيهما ، ويهيج ملمس وجهها ، وذلك التحقق النادر الغريب الذى يجده فى حضنها ، لكنه كان يبحث أيضا ، فى عينيهما ، عن صدق لا يعرف ما كنهه ، أى صدق ذلك الذى يبحث عنه ، ولماذا ؟ هذا البحث الموقف المجدد لتسياب دماء الحياة ؟

لم يكن قد عرف طعم اللقدان بعد . كانت يدها على يده فى السيارة فيها أمان ، موقوت حقا ، ولكنه كامل ، ونجاة من عذابات قلق خام غير واضح الحدود . هذا الحس لا يفارقه ، مجسما ، عضويا ، هذايا فى حضوره المستمر ، يفرض نفسه فرضا ، حسه بهذه اليد المليئة بذخ من حنان لا ينفد ، تستقر لحظة على يده ، ثم ترتفع ، تتقلب تحت شفتيه ، تلمس وجهه تلمسا وثيقا ومرتبضا وبطيئا .

ندائه باسمها ، بلا صوت ، يحجب عنه كل صوت آخر .

قال لنفسه: أنت عندما تفقد شيئا تعرف انه لن يعود ، لا يعود ، وترفض مع ذلك ، ترفض هذا الحس بالقدان ، تعتمد عليه كل جورحك كما تعتمد شئ على متوفى بالحياة ضد ما يحمل اليه الموت ، ترفض ، كأنك تعلم السماء بيديك العاريتين ، كأنك سقطت على تراب القبر ، تدق أرضه بقبضتك المضمومة ، وتقول لا ، لا ، ومع ذلك تطلق حرة القبر مفتوحة ، فى داخلك . اللقدان هناك ، قائم ، شئ ما قد نهش مكانه ، وانزع من قلعة النسيج الذى يغلف حياتك بنفسها ، لا أمل أبدا فى استرداده ، عليك أن تطيقه ، أن تحتل فجوة الضياع الذى لا يحتمل، وأن تعيش معه . لماذا تعيش ؟ أنت ترى نفسك ميتا ، وتعيش مع الموت . تعيش الموت . وتحمله معك ، وتصبر عليه ، وتعايه . أنت تحمل ميتا فى داخلك . والميت هو أنت أيضا . قبر يتحرك يوارى هذا المدفون من غير غطاء .

ليسال غاضبة ، حزينة ، ووحشية . ليال مضطربة عاصفة . طرقت تهد أرض القلب من التمرد والنسك المحبط والرفض ، فى داخل الصمت المطبق .

قال لها : قضيت ليال غاضبة ، وحزينة ، ووحشية .

قالت له : لماذا ؟

قال : لأننى لم أسمع منك ، لم تحدثينى ، لم أرك .

قالت له ، كان فى صوتها نبرة خلفية من

ضحك وسخرية خفيفة : هذا كل شيء ؟ ساحتك كل يوم . سوف تملئ .

ولم تحدته كل يوم ، ولم تتصل به بالتليفون كل يوم . ولم تكن سخريته من نفسه خفيفة جدا ، كاتل ما يقال . كانت الايام رحلة في جحيم داخل جحيم خفي . وكان دفتر الرحلة في الجحيم مطوى الغلاف .

قالت له مرة ، في نور صبح شستوى صحو خاوي ليس فيه الا هما ، على درجات سلالم رخامية قديمة التراب ، عريضة وسوداء :

— كما تريد ، أنا مستسلمة لك يا حبيبي .

كان قد عاش طول عمره غريبا في أرض وطنه ، وعرف لظلتها ما معنى أن تقول له الهته ، ايزيس : « يا حبيبي ! » عرف لأول مرة ، بين ذراعها الحمريتين ، في بضاضتها المثلثة بالحنو ، طعم أن يكون في أرضه .

ما جدوى أن يقول لها أن كلمتها ، وهي تناديه بلقته ، في أرض غريبة : « يا حبيبي » كانت طعنة عذبة ما أعذبها — نزلت لها ، مرة واحدة ، كل دماء قلبه ، وكانت في الوقت نفسه اليأس الذي أبرأ كل الجروح — أو هكذا كان في ظنه . ألم يقل كل المحبين هذا الكلام ؟ كل شيء قد قيسل . ولكن الحب ، والموت ، لا يقبل ، ولا يتكرر . والصدق وهم مستحيل .

لم يقل لها : علمني حسي بقلبك اننا نحب وحدنا . ونموت وحدنا . واستشرفت انه ليس حتى في الموت بره من الوحدة . بعد حياة الوحدة المحكوم بها علينا ، نحن نموت . ولا نجد في الموت نجدة . ولا نلتقي فيه بأحد . الموت يطوى الكتساب ويقلعه ويكرس ختمه . والحب . الحب كذبة . هو الشهوة العارمة للخلاص من الوحدة ، الاندفاع التي لا توقف نحو الانصهار الكامل والاندماج والاشتغال المزدهر . لكنه يلدور أيضا في الوحدة . وينتهي بتكريسها ، أكثر علقا من الموت . نحن نحب وحدنا . الحب أيضا وحدة لا شفاء منها .

قال يصرخ في ظلمة ليله ، مسدود الحلق : ليس صحيحا . لا يمكن أن يكون صحيحا . لا .

كان الصمت هو الذي يواجهه . دون رد . قالت له : نحن قد بلغنا سن الرشد . ونستطيع أن نتحكم في أنفسنا .

فلم يقل لها ان الزلزال قد كسر قشرة العقل والالتزان ، ولم يسألها أيها الأصدق والأقرب الى

ينسوع الحياة ؟ وما الصدق ، وما جدوى مياه الينبوع الملحة ؟ أم هذا الامتزاج الحار ، وحده هو الصدق ؟ هذا الحضور المسائل أبدا ، كل لحظة ، نعم كل لحظة ، هو الصدق ؟ لكنني يا حبيبتي دائما أعيشهما معا ، أنفداع كأنه احتضان الوجد ونكوص كضربة البتر معا ، اصطدام وانفراق لا يتوقفان أبدا ، نسيج نفسي يتقطع ويلتئم ، يشق ويلتئم ، في بؤرة دائمة القلب لا تهدد هورتها أبدا ، من الحقيقة واللاحقيقة . حبك لي — أحو هناك أما يزال ؟ — يوجد وينتفي . يقوم وينتفض ، ألف مرة كل يوم ، في وهي .

قلت لي مرة : أحبك .

كنا في قلب حمام النيران . لم نقولها مرة أخرى .

حضورك الدائم ، وصمتك ، قربك مني ، وابتعاد حياتك في مسارات جديدة تحسنين الدفاع عنها ، بذلك يقطر حاد . كأنما تجري حياتك داخل مقاصير مقلدة ، محجوزة عن بعضها البعض ، منفصلة ، وانت تعامين تحت كل جدار عازل عنها ، باستمالة . هل تظنين يا حبيبتي أنك — أنت الحقيقية — موجودة في قلب هذا التيه من الاسوار والحيطان ، موجودة وراء هذه الحصون والمقلاع التي تقيمينها في وجهي ، في وجه العالم ؟ أو في وجه نفسك ؟ هل تظنين أنك أنت التي — موجودة في كل عالم من هذه الافلاك التي تتناسل ولكن لا تتداخل ، تتساقط ولكن لا تتقاطع أبدا ؟ في كل عالم ، وحده ، من هذه التي تدور غريبة كل منها عن الآخر ؟

قال لها : هل تعرفين يا حبيبتي ان الملاك ميخائيل هو شفيعي ، وسمي ، وملاك الحارس ؟ هكذا قيل لي وأنا صغير . وقيل لي أيضا ان مياه النيل لا تفيض أبدا الا عندما ينزل الملاك ميخائيل ، في ليلة عيد ، على أرض مصر ، ويبيكي .

قطرة واحدة من مياه دموعه وتنهمر الأمواج الفنية بالخصب والحركة ، وتزف النباتات الملطى في التربة ، وتمتلئ شقوق الشرقا بالدم ، ويسم الحير .

قال لها : كنت في صغري يصنعون لي الفطير في عيدي ، عيد الملاك ميخائيل ، كبير الملائكة ، وقائد جنود السماء . وعندما أكل الفطير المنقوش بالكلمات القبطية القديمة ، اللامع الوجه بالزيت ، أراه ، ملاكي وحارسي وشقيقي ، بدرع الفضية ، ورمحه الطويل ، يهجم ، ويقتل كل الأكاذيب وكل الشياطين المتزاحمة في الظلام .

لا . لم يقل لها شيئا من هذا .

التقى البارود ، كلها تأتييني بحس من الحرمان •
كان هناك غشاوة شفافة ، ولكنها صلبة لا تنزاح ،
على عيني ، تغلف قلبي ، تجسدي • • لاني
أعتقدك •

لم يقل لها : أين آفاق الكشف والسعادة
والراحة التي عرفناها معاً ؟ أين البهجة التي
لا توصف في كل لمسة ، في كل نسمة هواء ؟
وانطلاق الحياة لا يكاد ينفذ معين لتدفعها ، تحملنا
على أمواج الفرح الخفي عبر مدينتنا المسحورة ؟
أين الشوارع التي لا تنتهي أبداً تحت أقدامنا ،
كانها تفتتح لنا ، وحدنا ، بكنوزها المضيئة بنور
مصباح تتوجه في سماه الليل والقلب معاً ،
وتتسجد لنا المدينة ، وتزدهر ، لنا وحدنا ،
بلا حدود ؟

رمة ، رمة • • أين أنت ؟

عندما كانت إلى جانبيه ، وطنين المحركات
الترتيب حولهما ، أصرار أمواج لا تنفي ترتطم
بالصخر وتتعود ، والناس في خدر من الحس
بالسرعة والاندفاع ، وكأنهما هما في عالم خاص
قد تجور من القيود والروابط ، ومضى في طريق
بهجة كونية من الحرية والطاقة المبدولة بسخاء
وقوة ، كان وجودها إلى جوارهم وفيرا خصيبا ،
كان تماس ذراعهم بذراعها ، واحتباسه بقرب
ضدورها وامتلاء حشيتها يجعل اليه ، في تيار خفي
يأخذ ويعطي ، يضيء بضيء أتوى لا ينضب ، بيماء
كثيفة وتذبذبة الرقص على جدران نفسه • وقالت
له : إذا حدث لك هذا ، فلا شك أنه سيكون ،
بالنسبة لك ، ذللاً •

كان صوتها متاملاً ، بعيد الصدى

أكان في ذلك نبوءة ، إيزيس عسرافتي
وساحرتي ، أم حدى بما مسوق يقع ، أم هو
الخطوة الأولى التي لم أكن أعرف أنني أخطوها ،
على قشرة الأرض التي تقدمم بالتشقق والانفجار ؟
أم هل كنت أنت قد بدأت منذ ذلك الحين تلاوة
رقيتك الملوذة بالسحر ؟

أنت الآن تقولين لي : انني سعيدة لانك
توجد • وانني التقيت بك •

ولا تكلمين •

وأحس في نبرة هذه الكلمة ما يوحي بانك
تريدين أن تضيي نهاية • كان فيها نزوعاً نحو
ختم ، وخطوة نحو شيء قد انطوى • لم تسعدني
الكلمة ، بل فتحت جرحاً لم يلتئم • انني في قلب
الزلزال ، في فوة البركان التي تقصص بالحلم ،
منذلة بنار تسطع في لهيبها كل صخور العمر
الصلبة ، وتغوب • ماذا تفصل يداي العاريتان

لم يقل لها : ان الحب عندي هو انهدام
الاسوار ، وتدقيق مياه الحياة المختلطة في بحر
مفتوح الاقن يطفو على عبابه المضطرب حبيبان في
قشرة خشبية خفيفة واحدة •

لم يقل لها : ما أريد ، أريد أكثر من كل
شيء آخر ، أريد لك أنت ، أريد لنا ، أن تكوني
معى حرة ، حرة من الحاجة إلى تبرير نفسك •
صغبرتي التي طال بحثك في الليل ، والتقيت
بالاشباح ، أنت مبررة ، لانك محبوبه • الحب هو
الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى تبرير • بل
يأخذ ويعطي ، دون سؤال • حبيبتي أظنني
أعرفك ، أعرف الجوهرى فيك ، أعرفك أنت وأن
كنت لا أعرف شرحاً لك ولا تبريراً • الحب عندي
هو المرأة • والصدق شهوة محرقة • لا أريد
أن أقول انني أقتلك • ماذا أقبل أو لا أقبل ؟
أريد أن أقول انني أحبك • أنت ، بكل ما هو
أنت ، دون شرط ، دون حيلة •

وعندما أقول هذا أعرف انني أكبر كل قواعد
اللعبة • نعم ، هي لعبة ، الحياة ، والحب أيضاً •
كل ما فيها له قواعد وأصول • أنا أرفض أصول
اللعبة ، أغامر ، أضم قلبي كله ، عارياً ، مرتجفاً
بنفسه ، عنيده بأيمانه • تحت وطأة الانكشاف ،
دون حماية • ما الذي يحدث عندما تنهار الحواجز
والسدود وتندفع الأمواج المحسوسة القلقة المحوط
عليها ، داخل المقاصير المسورة ، وتجرى متلاطمة
تحمل معها أنقاض الأحجار ؟ أهذا حقيق ؟ نعم ،
أعرف فيه الظلمة المكتونة ، وحماية السر ، لكنني
أعرف أيضاً من الوحدة خلف الأسوار • ماذا
يحدث عندما تسفر النفس عن اضطرابها الحميم ،
وأشواقها التي لا تفهم ولا تبرر ، واندفاعات
حوسها وتطلباتها المخبوة ؟

ولأن حبى هو المعرفة ، هو اليقظة الكاملة أمام
كل نامة ، كل اختلاجة في الصوت ، كل ارتجافة
جفن ، لهذا أجد نفسي ، وأنا أحبك ، وحدى ،
ولست معى • •

الشيء الخارق الغريب ، حورية الموج تحت نور
السحاب • • أنت بعيدة عني • الابواب مسخورة ،
مغلقة •

لم يقل لها : يقف بيني وبين كل شيء ،
الآن ، حاجز لا عبسور منه • السماء غريبة ،
البنائيات في الشوارع غريبة ، والناس أشياء
تضطرب بلا معنى • وحدى • الهواء الذي يدخل
صدري ، عند الغروب ، غير الثيل ، لا يحمل إلى
انفساحاً ولا راحة ولا متعة • حدة شمس الظهر ،
وصمت الشوارع في الليل ، ونشيق هواء الصبح

الثلاث تعجزان انهما حمى البركان ، وتسندان
بنايات عالمي التي تنقوض في الزلزال ؟
اسمك يختلط بهاء من ملح .

لم يكن احد قد عرف ابدا تلك الليلة - منذ
سنتين مرت كأنها زمن العمر ، والسماء مشحونة
بنذر الانكسار ، والعهود المعدني قد علا ، مع
شفطايا السماء المتفجرة ، ثم حبا في صمت متقل
بالكآثرة . والبيت المقل السان في الليل حتى
رقيق القشرة في قلب بؤرة العاصفة التي هضمت
كل شيء حواليه . يحيط به نسوم متعب برى
لم يعرف بعد طعم المرارة الذي لا يزول ابدا .
وجاء الخير . والموسيقى الرقة الصاخبة ، وأغنية
المجد والحب والصوت المرتضى . لك حبي
وفؤادى . الضجيج يصفي القلب ويمنيه .
أغل دة . الاصوات جوفاء صفها يتردد في
خواء فلك فيه حتى الحزن مناه . عشت حرة .
عشت حرة . وانفجرت السموم ، فجأة ، عل
غير انتظار . القلب المتفطر لم يكن يجد في شيء
رحمة . كل الحب قد يذل ، وأهدر ، وامتنع ،
عاريا ، بلا حماية . ظلت عاصفة الدموع تهز ،
وتلفف ، وتطوح به ، في وحدة ليلته .
لا تنجاب ولا تنتهي . وفي الصبح ، كل صبح ،
ظل ثقل الحجر الراح في جوفه يفرقه تحت
الماء ، لا يطفو قلبه ابدا .

لم يبك قلب بعدها الا هذا الصباح . حشمت
اليه الموسيقى ، مرة أخرى لذع الوحشة النهائية،
موسيقى تفيض قادمة اليه من قلوب عذبتها حب
قديم انحسرت به السنين الطوال ، لكنها مازالت
تحمل حرارة الآلم المدفون ، وحزن المالم . وفي
نور الشمس الشسوية التي تدخل من نافذته ،
كان بكأؤه مكتوما ووحيدا .

قال لنفسه : حبيبتى دائما واحدة ، مقدسة
وحميمة ، ومستباحة مبهولة لشيء غريب
لا أعرفه . لا ، لا بل لا أعرف به . دائما
تدعوني ، وتسحرنى ، ومهما قاومت فأننى في
حضانها - وحده . أجد نفسي . أجد المعنى الذى
أفتقده في كل شيء . ثم أقبح بعد ذلك في
وحدتى ، يدى خاويتان ، وفي داخل حضرة
مفتوحة .

وقال لنفسه : انت قد بلغت سمن الرشده
جدا ، رجل في منتصف العمر ، قماذا بعد ؟ الا
تظن ان هذا التفسير الاوديبى سهل ، وبخس ،
حقا ؟ الا تظن هذه القضية كلها شيئا مفككا ،
وليست ، على أى حال ، هنا أو هناك ؟ وشططا
عن الموضوع أيضا ؟

قال لنفسه : اننى قادر مع ذلك على احتمال
ذلك كله ، والحياة به ، أيا كان الثمن .
كان يظن نفسه صلب العود ، لا ينكسر
بسهولة .

وكان في داخله فريسة لموسيقى الدموع .
كان يعرف ، ولكنه لم يكن يصدق ، ان نداءه
المتصل ، الملحم ، اللاعج ، بأسماء يذهب مهدورا .
لم يكن يصدق انها لا تسمعه بالفعل وهو يناديه ،
عندما يأوى الى سجن ليلته ، يناديه كما ينادى
الحرية . لم يكن يصدق انها لا تعرف ، وربما
لا تهتم ، وربما تجسد الامر كله مسليا قليلا ،
ومضحكا قليلا ، ويثى بضغف وحساسية بأسوأ
المعاني . لم يكن يصدق ان حياتها تختلط
مساراتها المتعددة الجياشة بطلبات أخرى ،
وأشواق أخرى ، وتحققات أخرى . لكنه كان
يعرف ان اسمها على شفتيه ، أول كلمة من كلمات
النهار ، في رحلته الحميمة ، ليس الا شانه
الحاس ، هو . لم يكن يصدق انه ليس هناك ،
ولا يمكن أن يكون ، رد .

قالت له : تمزقنى الرغبات المتناقضة في أن
أكون قريبة منك ، وأن أفر منك . أريد أن أهرب
بعيدا ، الى جزيرة منسية في ركن المحيط ، الى
لد مغربية . استيقظ في الصبح ، لأتنفس
بعمق ، بلا علة ، ومن غير ضبط ، وأقول لنفسي :
بعد الظهر أظ الجبل ا وأنا أعرف انه يمكننى
بالفعل ، بعد الظهر ، أن أجزى ، وأحب ، وألط
الجبل .

ولم تكن تبس ، لم يكن في صوتها إلا لبرة
توق محرق .

وابتسمت بعد ذلك ، وقالت : ولكننى وجدت
ان كل الجزر في المحيط قد اشترها المليونيرات
الامريكان .

كان قد قال لها : انت قد عذبتنى
فقالت : لو كان لك في هذا عزاء ، فلم أكن
أقل منك عذابا .

فألق عليه ، في ذخيلته ، سؤال لم يقله
ابدا . لم يكن يجب أن يقول لها أسئله لا قيمة
لها ثم يسمع نظم الاجوبة المثقفة المحيكة التي
لا يريدنا على أى حال .

لماذا كنت تتعذبين يا حبيبتى ؟ أكان ثم
صلة وتجابوب بين هذا الذى يعذبنى ويمزقنى ،
وبين عذابك ؟ أم انك ، حتى هناك ، بعيدة لا
شأن لك بى ، تنور آلامك في خيوط أخرى ؟
تجدلها أيد أخرى ؟

خيل إليه انه يعرف كم عذابها حقيقي، ومر، ووحيد . وانه لا يستطيع أن يصل إليه ، بل هي لا تتيج له . لا تريد أن تبنيحه ذاتها الداخلية المسكونة ، بل تتف دوله في ضراوة تخفيها ، تذوده عن الاقتراب من جسرح وقهر أول قديم متجدد أبدا . لانها لا تريد أن يبرا ، لا تصدق في صميمها انه سيبيرا ، بل تجد في الجرح متعة متوحشة .

ما جدوى أن يتفطر المرء بالآلم بينما هو لا يحصل العزاء .

قال لها : لا تقرى منى بعد الآن .

قالت : نعم

وامسك بيدها . كانت أنوار الكوبري القديم تومض وتضيئ ، تنزل على جسد الليل دون أن تطلعه ، وضطفت على يده ترد عليه ، ولكنها كانت غائبة ، منذ الآن دخلت الى ماوى خاص ، منذ الآن عادت الى ما وراء أسوارها . وهي تبسم له ابتسامة مؤسمة ، لم تكن معه . ولم يرها بعد ذلك أياها بطول الأبد . نعمة الفقدان أصبحت الآن تردادا يشد الآمال الهوجاء كل يوم ، ويميها قبورا متعاقبة تصاقب اللحظات التي لا تصل الى نهاية ، لكنه ترداد ، عل تكرره ، لا يفقد حدة وقع الصدمة التي تسقط بأصوار حرة بعد مرة بعد مرة ، بلا نهاية .

قال لها : هذا الخيال ، هذا الوهم : الفرا ، الحرية . .

وقال دون أن يتكلم : يا حبيبتي ، نظم بايدينا كل بنسايات عمرنا ، هذه الجدران التي أقمتها ، كل منا وحده ، طول السنين ، بتضحيات لا يعرف أحد ثمنها . هذه السمجون التي نرطم بأبوابها الموصدة ، كل يوم . حينما نافذة في الشمس ، قطعة مزقة من سما الليل الفسيحة . . العلاقات التي تبتز ، نظم الحياة التي تتقوض وتنهار . . متاع خفيف وجوهري من الحب والكتب . . قطع أخرى أيضا من القلوب تمسرق وتترك وراءنا . . موسيقى التوقص والتشوف . . خطو المغامرة الى باب الطائرة التي تطل بنا . . أيمن أن يصل الى الوهم في هذا البيت الحجري بين حقول الزيتون ، قريبا من الثلج والأرز القديم ، والطريق الضيقة التي تتلوى تحت سيارة نصف جديدة تشتريها بالتقسيط ؟ وأحجار الصخر المفضلة بالليل ، وهوة الوديان المزدهمة بزرقة أشجار سامقة وسفلية ؟ وانطلاق الوحوش البرية النقية الجسد التي ظلت محبوسة طول العمر ، والفرح الشرس الذي ينوء بالجسم المكثود من طول العسل في بناء صروح الحرية

وخلق المستحيل . . بضريرة واحدة . عاصف يمحى الزيف وتتكسر نبرات الصوت المكتوم . يصسطم بزحام الأنوار والأصوات الأخرى التي تملو وتنخفض ، وتعرف دفء الحوار . أنا وارت وقد أصبحتا نحن . . وتغير الضمير ، وتظهر مها كان جريحا وملوثا يقطر بالدم . . يدي التي ولنت في جريمة الصمت - شلت يدي ، البقع التي عليها لها لون دمائي إذا ، ودهاء اخوتي أيضا . يدي التي لم ترتفع ، وظلت صامتة ، تتلوى نعم ولكن خرساء - يدي تنطق الآن . كفاني ألما ، قد خست نفسي بريح العفن ، وثنت الجيفة المدفونة داخلي . انت الآن ، بشكل معجز وغريب ومقلوب ، قد طهرتني ، حررتني ، أطلقت على الآل بعض الوحوش العارمة الصافية العيني من جيس طال عشرين عاما ، لو لم تطلقها لظلت تتقلب وراء قضبان من لحى الحى ، تنهشه . . وأراك ، بجسائي ، لأول مرة تتكشفن الآفاق الفسيحة في داخل عاك ، وتخرجين من تلك المنطقة الموحشة القائمة بنصف الظلمة ونصف النور . . تحيين حياتك كما تريدين لا لمجرد أحس بالواجب . . بل يصح الواجب حرية . . ولكي ولي - الحق المطلق في الجنون ، وفي الهجوم على الحياة . .

حرة . . أي إيزيس ، تحت عين إبيك المتقدة . . في سطوع النهار أو تحت نيران النجوم على السواء .

كان قد قال لها : هذا الخيال ، هذا الوهم : الفرا ، الحرية . .

كانت قد قالت له ، ليلتها : لا تؤذى الآخرين ، لا تؤذى أحدا . .

فلم يقل لها : مجرد فعل الحياة ينطوي على الجريمة والإيذاء . . اما الآخرين ، واما نحن ، أو هم جميعا ، نحن وهم معا . . كل خطوة على الأرض ، كل نفس في الصدر ، حتم أن يكون فيه قتل وتدمير . . وقد اخترنا أن نقتل أنفسنا ، ألم نختر ؟ أحمق اتنا قتنا ، بالفعل ، بهذا الاختيار المروع الذي لا ارتفع عنه .

وكانت قد قالت له : أيمن البناء دون أن نهلم ؟

فلم يقل شيئا . قوة الاشياء - وحدها - مفحة .

عندما كان في أسوان كتب اليها بطاقة يريد: دائما أتذكرك ، وأنتظرك ،

وعندما سألها : هل تلقيت رسالتي؟ تدفنت

الدماء فاختلطت بسمرة وجنتها الناعبة ، وقالت:
نعم .

قالت له : انت تعرف اننى اكثر الناس
تعذيبا للنفس . وقد فكرت طويلا . لم أجد الا
ان شيئا ما قد صدمنا . ايمكن ان يصدمك شيء
فجسدا ، على غير انتظار ، ثم تهتف ، بعد وقوع
الواقعة ، حاسم . . لماذا ؟ كيف لم تتخذ
حيطتك ؟

كان قد ابرق اليهها ، من الجنوب الحار
المزدحم بسوقية البذخ البالي القديم ، يطلب منها
أن تنتظره في المحطة . وفكر كيف يوقع على
البرقية ، وقضى الساعات الطوال يصوغ العبارات
ويختار التوقيعات ، ويبنى ويهضم ، في عرى
غرفته المقللة في الفندق .

ورتب كل شيء ، وأعد لكل شيء عسده .
يصل يومين أو ثلاثة قبل ميعاده ، لا ينتظره أحد
الإها ، لا يعرف أحد بوصوله .

ويعودان الى الأرض الغريبة المسحورة التي
عزلت خطواتها . ايزيس وقد آبت من المنفى .

وكانت على رصيف السكة الحديد ، وقد
لمحها من العطار وهو يدخل قنطرة حشولا ،
مستغفدا ، فجن جنون قلبه فرجا ولقونا ولهفة .
واحتسواها بين ذراعيه ، في زحمة الناس ، غير
عابى بشيء . وتلمست شفتاه خدها اللين ،
وغمرت وجهه مرة أخرى رائحة انوثتها العبقية
الخصيبة متمزجة بعطرها الذي يذكره دائما
بليالى ليست من هذا العالم . يدعا في يده ،
وهما في السيارة ، وحدهما ، وعلى أرضها .
ميناهوس ؟ شبرد ؟ سميراميس ؟ لا . .
بل اوبرج الفيوم . . والطريق الصحراوي في
الظهر ، حارا ومتوهجا وملينا بوعود غامضة .

في الفندق نهحرص ، أمام الموظفين والخدم ان
نخافت بسعادتنا ، أن نتحاط على حيننا الذي نهرب
به منهم ، منهم جميعا . وكنت قد اضريت لك
خاتما ذهبيا عندما أدخلته أصيكن ، برفق ، على
غير انتظار ، في السيارة ، لم تنطق بكلمة ،
من الدهشة . على غير عادتك . . والغرفة العلوية
الفسجية ، بعد السلم الخشبي العريض الداكن
المعتم قليلا ، ومرة أخرى ، مرة أخرى ، تقذف
بنا مياه الشوق والوجد المتلاطمة الهوجاء الى
أحدنا الآخر ، بمجرد أن يرد عنيبا الباب ، انت
الآن بين ذراعي والسدود التي تضغط على يناييع
حياتي تسقط في نعمة جسدك وتتهوى دون
أن يكون لها وقع ولا صدمة . انت معي . . انت

لى . . وأستطيع الآن أن أملا قلبي بعينيك
الواسعتين الصافيتين اللتين لم أعرف أجمل
منهما ، أستطيع أخيرا أن أحس دوتك بذبذب الجمد
حول نفسي وأن أذوق طعم شفتيك الحار اللين ،
رامة . رامة . . . حبيبتى الرائعة الغريسة . .
أستطيع أخيرا أن أسألك هل تحبيننى . . وتقولين
لى نعم ، نعم . . ولا أكاد أصدق حس يدي ووجهي
وشفتي بك . . لا أكاد أصدق أن هذا الحب ،
هذه اليهجة ، موجودة . . وانها حقيقة . . وأن
العالم قد أصبح توافقا ، وطواعية ، وصالحا . .
ان الحرية والمعنى قد أصبحت حقائق حسية
محددة بين ذراعي ، بازاء جسدي ، أضما الى ،
وتحتوينى . .

وتفتح الحجاب في لهفة ، وتطير الثياب ،
وتنهض أمام الهدايا وأنا أبتمسم صامتا ، ولأول
مرة دهب الى الترفه ففتحتها على هواء البحيرة
المنهى وماتها السان بفضته المتوجه التي تلمع
مثل رفاق الصليب لداثة . . وانراجه الغريه
يهب بها هواء الظهور الساخن ، وصرحه بورس
رحيبته في قلب الفراغ ، حادة وعذبة نجرح
سكني في جسد طري ، وهي تنفض من غسل ،
وترفع . ونحن نضحك ، لا لمسيب ، لمجرد أننا
جما . . واننا عاشقان . .

ونحنك الخشبي يوهج الحب تحت شفتي ،
وذراعي تحيط بطورك الضامخ الناعم الالتفاف
المستقر الى في راحة وأمن ، وانت تهمسرين لى
مرة أخرى ، كما همست لى ليلتها : ضع يدك على
صدرى . . .

صدرك الصافي ، العذرى ، باستدارته التي
تفوق عذوبتها كل نشوة ، دافنا وخمريا ناعما ،
وأفاسك المتلاحقة الحارة لها طعم الرحيق الحلو ،
وهذا التمل الخفيف الذي تفقد فيه كل الأشياء
نقلها يتودنا مرة أخرى الى أولى خطواتنا نحو
سموات رقراقه تضيئها شمس عينيك ، ثم ننفض
كالبجوارح الى الأغوار البتلة بندي الحب ، تنبت
فيها أزهار ضاربة ، في وحشية أدغال تفسور
بكثافة الحصب والابتاع الشرس .

والسلام الذي تقعد فيه النفس صلحا راضيا
تقبل فيه وحشة الحياة ، بل تنساها ، وتنفيها .

ونزلنا تنفدى ، ونمنا بعد الظهور ، جنبا الى
جنب ، ولم تكف عن الكلام والضحك ، وكانت
عيننا دائما باسنتين ، عاشقتين ، ليست فيهما
يقظة ولا ترتب ، وليس وراءها هذا الذكاء المتوفز
السريع الحركة ، بل الأمن ، وابتسامة .

وقعت البجعة تحت السور الحديدى الرقيق
العظم ، امام مائدتها • ساكنة ، تنظر بينين
زجاجيتين ، خضرتها حالكة ، وفي جسمها
المستدير نغومة متجددة مستقرة لاتزال •

وهب ميخائيل فجأة ، قائما ، وثب وثبة خفيفة
الى البركة ، وغاصت قدماء في الطين الرخو ،
بصمت ، وارتفعت المياه دون أن يتطأ لها رشاش
الى ركبتيه • كانت يده قد قبضت على البجعة ،
ولتفت أصابعه على العنق الطويل ، وهو يضغط
على العظم المدور المضلع النحيل ، والريش الاسود
الحريري يكاد يغطي يديه ، ويثيرة •

لم يند عن البجعة صوت ، لم تزعزع زعقتها
الآخيرة ، لم يفتح منقارها الحاد المدود ، لم يرتفع
جناحها يصطفقان ، ويرفرقان في طلب الحياة
وفي سكرة الاحتضار ، ظل العنق الساق ، في
العمية الخفيفة ، قويا متماسكا ، صلبا ، في
قبضته المتهصرة • وغاص ميخائيل في المياه ،
ودار ذراعه حول جسمها يطوئها اليه ، يحتضنها
الى صدره ، وقد أوشكت المياه الأسنة أن تفر
وجهه ، وذائق طعمها الطيني فيه حلاوة عظيمة
خفيفة ، وهي مازالت شامخة ، مرتفعة ، ناعمة
الاستدارة ، طافية على وجه الفجر ، لا تعلق بها
المياه •

وغارت الأرض الطينية تحت قدميه ، وانزلت
وجلاه تحت الماء في وحل لين مرحب طرى اللمس
يجذبه اليه يتوق لا يرد • وقلبه يصرخ صرخة
راحة بازاء جسد البجعة المتصاب الذى يكاد يفلت
من حضنه ، وهو يعتمر بين ذراعيه الجناحين
المتطيقين ، في هدوء ، على الجسم المدور البارد •
الطين ينفث فجأة ، ويوشج ، ويفور في عمق
ساكن مظلم ، وهو ينقلب مع البجعة الصامتة التي
تميل على جنبها ، بين ذراعيه المتقبضتين •

وتنداح موجة واحدة واسعة الموائر ، على سطح
المياه التي ينعكس عليها آخر احمرار قطعة مزقة
من السحاب في سماء المنيب •

هذا كله قد حدث بالفعل •

وسرنا بجانب الحقول ، وكان نسيم بعد الظهر
فيه نغمة برد ، ونزلنا الى برك الملح الصغيرة على
شط البحيرة الرمل اللين ، وجيمنا حفات هشة
من المسحوق الرماد الأبيض الذى ذاب في
أيدينا ، ومررنا بأصابعنا على شفتي أحدهما الآخر
فدقنا طمعه اللاذع وضجنا • وأنا أنظر الى
شفتيك السمراوين وقد استيقظت رغبتي فيهما ،
يتوق وتطلب ورضي ••

لا •• لم يحدث شيء من ذلك كله ••

لم يقل لها : تخايل حبى غذاء مر ، لا أقبل
عنه عوضا ، والحز الذى به أعيش ، والمم النبذ
الذى لا رى لمطشى فيه ولا انى أعب من كمرته
المدمرة ••

لم يقل لها : توشك الحياة كلها • بعد أن
عدنا ، تصبح شاحبة ، شفاقة ، كالخيال ••

كان المنيب قد هبط فجأة على جزيرة الشاي ،
وكان الحديث قد سقط في إحدى الفجوات التي
تجىء بينهما من آن لآخر وأشمعل ميخائيل
سيجارته • وعندما انطبقت شفتاهما على سيجارته ،
في موضع شفتيه ، وبها بلل حبيب لا يكاد
يلحظ ، أحس بين شفتيه هو بما يشبه نبع قبة
لا جسد لها ، عابرة ، متوهجة • ولا تفل فيها •

وناداهما ، من غير صوت ، وهي أمامه ، تنظر
الى الأشجار على الشط الآخر :

— رامة •• رامة •• أريد أن أعرف •• أين
الحقيقة ؟ ما الحقيقة ؟

كان البط البيكينى الصغير في المياه القائمة
قد كف عن الصياح ، والأشجار الكثيفة على شاطئ
البركة الآخر تبدو مهددة ، ودائكة ، كأنها تنوء
تحت وطأة رقية غامضة •

أحنى رأسه • سقطت قطرة ماء ملح في البركة
الراكدة ، وجاءت البجعة السوداء الملقوفة الجناحين ،
تلعاه العنق ، تنساب دون صوت على الماء • كانت
أنوار الكازينو قد انبثقت ، زرقاء ومكتومة ،
والناس قد ذهبوا ، والجرسونات جلسوا في
المطبخ ، يتحدثون بصوت خفيض ، كأنما كانوا
خائفين •

كناشلة

بقلم: حسين ذوالفقار صبرى

وأخيرا .. أخيرا وقد أعلننا طول انتظار
اجتماعنا ، وفى مكتب عبد المجيد كما جرت
العادة ، ولكن الجو غير الجو ...

دخل الينا رفاى ، متأخرا كما هي العادة
أيضا ، ولكن زهاء ست ساعات أو يزيد ...
كتلة من نشاط ! لا يهدأ ! لا يعرف الكلل
اليه طريقا ! ألف شغلة وشغلة ، ولكنه حريص
أبدا أن ينهى أعماله معنا قبل الظهر ، فيفرغ
لجهامه الأخرى ... كأنه يضرب الأرض فيخلقها
خلقا ، متزايدة ، متشعبة ، متكاثرة ، عليه
وحده عبء مملتها ، تلهمه حماسا ، يكاد أن
يتشظى حزنا ... فهو التحديدات التي تتأكد
من جدالها سمة حيلته والمهينة النافذة ، الهسا
الرفود يستعطيه غدا لشعلة النشاط التي
نتائج أبدا هي صدره ، ولا أكلته أكلا !

وربما أن كان هذا سر اعجابي به ، ليس
مجرد اعجاب ، بل إيمان شبه مطلق بشخصه ،
بذكائه الخارق ، بحيويته تنفث فينا دينامية
نشاط ، جميع هذا في إطار من تقان ، خدمة
للمصلحة العامة ... حسبه أن ينجز ! لا يريد
جزاء ولا شكورا ... ثم دماء خلق ، رغم
سلطانه الواسعة ، يأسرنا بتفنته للمناقشات
مهما طالت ، لا يتشبهت برأى ، ساعيا أبدا الى
استقصاء لب المشكلة ، الى الموازنة بين مختلف
الحلول المطروحة ، ثم على استعداد لأن يتحول
آخر الأمر الى ما نراه صوابا ، إذا ما لمس بيني
وبين عبد المجيد ، فهو ثالثنا ، توافقا في وجهات
النظر .

ولكن العجيب أن اجتماع اليوم تأجل مرة
بعض أخرى ، ثم لا حس ولا خبر ! وهاذي قد
قاربت الرابعة ... هل يأتينا أخطار بتأجيل
جديد ؟ كلا ! بل بالأجاء الى يوم آخر دون
شك ! فما اضطررنا من قبل الى الاجتماع في
مثل هذه الساعة المتأخرة ...



وفجأة يدخل إلينا !

ولكن هناك من يتبعه ... غرباوى !
متسحيا كأنما على قشر يبيض ... ولكن هيئات !
فما أشبهه بالذب المروض ، يتسايل من تقل
خطواته تلك التى يحاول أن يخلتس ... طويل
ضخم يدين ، عريض الكتفين ، مترهل الجسد
كانه مصارع قديم ، متفخف القسامات ... طمست
على محجريه فلا تكاد تميز ذلك البريق ، يخطف
بخبث وشراسة من خلال فتحتين ضيقتين كأنما
شرطتا بمضغ حاد ... أهو أصلا « فتوة
صالات » !

ما ارتحت له على الإطلاق ! أتصحب كيف
« اتلم » عليه رفاعى ، بل أى مصيبة رمت به !
مخائل مخادع وصولى ، (يبيع أمه) ولكنه يتنيز
عنا بقدرة على الاضطلاع بتلك المهام القدرة - يعلم
رفاعى أنى وعيد للمجيد تترلع عنها تفززا - ولكن
لا معدى عنها فى بعض الأحيان ، وصولا الى
الهبط السامى الذى تطلع إليه جميعا .
إيه ... هكذا حال الدنيا ! وإن طروفتنا
- صعبة ، عسيرة - كانت تقتصينا أحيانا الأعضاء
عن بعض وسائل إذ تبررها الغاية .

ولكن ما من مرة تقع عيني على هذا « الخريت »
الا ويتأبى فلق مجهم غامض ... نذيرا بأن
سوف تميميني من تحت رأسك كرامة أن اذ
تحقيق بصديق حبيب جانحه !

وإذ أحاول اليوم أن أنظر الى الوراء ، فأنى
لأعجب كيف فأننى أن أتنبه ... لىب عقلت
عن حق تلك المشاعر الغامضة ... عن تلك
الحقيقه المروعة ، غابت عن إدراى تماما ...
تعاميت عنها دون أن أدري ... ولم يا ترى ؟
هل أقول خشيه فجيحه ؟ فكان كانت صورته
تشير بطرف الى نوازح حقبة ... مريبة .. مخزية
ربما ... راضية فى دخيله رفاعى نفسه ، ذاك
الذى كان يستأثر لىبى بأعجاب مايعده أعجاب !
فانا زمن اشارته حينذاك ، ألأزمه كظله خلال
اتصالاته المتتابة ، هدفها جمع كلمة عنه من
طوائف متنافرة ، فتفق على أرض صلبة من
وحدة رأى ، علاجا للمشكلة التى كنا كلفنا
بها .

سمعتة بإذنى « يصل من البحر طمينة » ،
يتلاعب بالألفاظ والمأناسى ، « شغل حواء » ،
فيخيل لمن حوله أن قد بزغت الشمس بينا
الليلة ليلا ، بل أنى لأجزم ، وأنا الصليم
بما يسمى إليه ، أن قد رأيت مع السامعين
- متحلقين من حوله وكان على رؤوسهم الطير -
الشمس تشرق من الغرب ، متحدية كل
النواميس ! فقد كانت كلماته تنساب على أجنحة

من منطق ، استحضرت له قواعد من حيث لا أدري ،
فتلغى قوى الإدراك الغاء ، بينا الحواس معلقة
بطرف لسانه الغرب ، يمد بحيائه الى أذان قد
اختليت ... فلا حقيقة سوى ذاك الذى تنبض
به أسماعتا .

دخل إلينا رفاعى ، وغرباوى ذاك اللعين من
خلفه ...

فإذا ما جلسنا الى المنضدة الصغيرة ، كما
اعتدنا أن نفعل ، رأيت - غرباوى - قد سحب
هو الآخر كرسيه فيجلس ... أرايعنا إذن قد
أصبح ! ليس تماما ... بل الى الخلف قليلا من
رفاعى ... « وهل تعلمو المهن على الحاجب » .

رفاعى يصفرنا بسنوت ، ولكنه رئيسنا ،
وسلطاته بالقياى لا تكاد تمنحها حدود ، ولكنه
جد حرصى ، منذ أن انتظمتنا المهمة التى نحن
بصددها ، على أن يضفى على مجموعتنا الثلاثية
روحا من ألفه وزمالة ، خاليه من مظاهر تكلف ،
أما الآن فإن غرباوى يجلسه هذه ، متسحيا الى
الخلف قليلا ، أشاع فينا نفثة من حرج فكأنى
وعيد للمجيد كنا أبدا متطاولين عبر حدود !

ألم أقل لكم أن كان الجو غير الجو !
ثم أن « يطوح » بنا ساعات تلو أخرى !

لا شيء إن قد حاصرت رفاعى مشاغل عديدة ،
فتطنى على ما نجح بصدده ، ولكن الذى لا أفهمه
هو ... « ذاك العجيب على أن تجتمع اليوم !

فالأمس إذن جسد خيطى ... لا يحتمل الأرباب
يوما ! ولكنه من جهة أخرى ليس ملحا ، بدليل
أن احتمل التأجيل ساعات .

وتتقبض أحشائى من جوع فتخزنى بالأم ،
وأشعل سيجارة ، ربما هى « الكذا » بعد
الأربعين ، فكاد أن أتقيا ...

وماذا عن عيد المجيد إذن ! تسأول كم جاهدت
فأذبه بعيدا ، ولكنه يعود ملحا ، متراقصا
أمام عين الخيال ... يغويها !

ولم يا ترى ؟ فإن الأمر لا يكاد يعنينى فى
شيء !

فليس بينى وبين عيد المجيد الا تلك العلائق
طرات حين جمع بيننا رفاعى ، لا تكاد تربطنى به
معرفة سابقة !

هو أكبرنا سنا ، ضابط قديم ، وصميم أنيق ،
شديد الاعتداد بنفسه ، رصين حصيف ذو منطق
ركن ... كم من مرة ردنا الى جادة تقدير بغضل
ما حيات له خبرته الواسعة من الملم بدقائق من
تفاصيل ، كنا بها جاهلين أو عن حقيقة مدلولاتها
سامعين ، يمسوقها فى تسلسل مستحصف
الأسباب ، فليس أماننا الا التسليم .

ألا أن رفاعي ، كان له من مكانته رفيعة الشبان ، مويلا وملادا ، هو وحده ، قادر إذا ما أراد ، يحطم اتساع رقصة اهتماماته ومستولياته ، أن يتجاوز اقتراحات عيد المجيد ، أن يوحى بأنها ، وأن يمد متماصكه مستوتقه الارباب ، قد اغفلت اعتبارات تمت إلى ميادين لها تأثيرها على المدى الطويل .
أما أنا فضائع بين الاثنين !

إذا ما تجاسرت برأي ، هدمني أحيانا منطق عيد المجيد ، فاسطى بشيط ، أو أن يلوح على شعاع رفاعي بواذر إيتسامه ، لست أدري أمشيقا أم مستغفلا ، فيتعثر لسانى ولما اكملت ما أريد أن أقول ...

بضاعتي جد متواضعة ... مجرد صلات توفرت مع نعر من تتعامل معهم ، يولونى بعض نقه ولا يزيد ! فانا الذى يكلفنى رفاعي بلام الحال - وأعجب من كثرة ما أحوجنى إلى ذلك - إذا ما دبت على المستويات الفردية شكوك أو اعتزت ثقة البعض من ربيعة أو تخوف .

على الهامشي يعنى ... بصريح العبارة ، ولكنى ثالتهم على كل حال !

تقبضت أحشائى إذ تغطها المعص من جوع ، فأشعر بأنفها وتيرادونى عتيال ...

فيذا إذن عن عيد المجيد ؟

قسماته الرزنية شاحبه باستاء ، بل ينشوبها أكبساء ... والمخ انامله تلامنشا فكلسروا إلى شفتيه ... لا شك أنها حبة دواء ، وأنشعب بأمعالي كأنها تهتصر ، ولكن لست أدري ، هذه المرة ، أمن جوع ...

قبل أيام دهمت أن علمت أنه يعاني من داء القلب ، خلل وراثي مكنى 'ودى بعياء أشقاءة من ذكور ، واحدا تلو آخر ، منذ سنوات ... خير سارع به إلى رفاعي وقد جثته بيمض أوراق ، ينهض إذ يلعبنى فينتحي بى ركننا قصصيا من القساعة المسبحة حيث مكتبه ، فأنها كما هي العادة غاصه بالزوار والموظفين جلوسا على حواف المقاعد ، ملقة أبصارهم فهم رهن إشارة ، أو محومين من حوله يهيمون ، ثم شخوص احتتها انقال من أوراق وملفات ، لم يثن بعد أن يؤذن لها فتعرض ...

وتصور يا اسمعيل ... علمت بالصدفة ... مقطع الأنفاس من أسى ، تعقيا على الحبر وقد أسر إلى به همسا ... مسكين والله ... لا أكاد أصمتق ! أكان يخطر لك على بال ! لا ... لا ... أمقول هذا ! ولكن أرجوك ... لا تذكر لي شيئا أجوك ... أستحلفك بالله ... كأنك ولا سمعت ... فى لهجة ضارعة - صادرة من القلب ... فهو جد حريص ألا يعلم

بحاله أحد ... ولكن إن يتكتمه علينا ! أما كان أجدر أن ييوح لنا بحقيقة أمره فلا نثقل عليه ! على الصوم ... وأجبن أن نحترم سره ، وأن نراعيه دون أن نشعر بذلك ...

أوضحة هي من فرحة آلمة تلك بوقت يهسا عيني ؟ أم شعور مبهم بإرتياح إذ اكتشف في عيرى - كنت أقول ... عربى الذى يسد على المناقد - نقيصه ، وأى نقيصه ! أنا منها خالص ! أن هي الا عترة ، طالت أم قصرت ، فتصبح كفتى إلى رجحان ... ثم رد الفعل ! فامو ، بوطاة من مشاعر سحملت بأسى واشغاف - ظافرة كأنها السيل ، يقذفها مد طاع من صمير وخر فجأة إلى حياة ، فيدعنى بتبكيك وتتخادل أوصالى وقد أخزيت ، بيني وبين نفسي ، بخزي وشنار ...

وأشبح بوجهى حشية أن يتهاوى لشوء أمام ناظرى ، فامضى المعركه مثقلا بوثر اللطلة ... كان قد نفرت عيني دون قصد بشاردة غدر ، هي التى رقمتها فى الصميم !

وأى رفاعى قد مال بيجذعه إلى أمام ، وقد انقلبت صمرة وجهه من مساحة مبعيا إلى دكانة قصد ، حوامسه ، نبضات فكره ، كيانه كله متآلب من حول شخص عيد المجيد ، يحاول أن يتحوط به آق يحتويه ، أن يمتلئه ...

والله بأحداث ظفنتها متطوحة منسية ، بل حشد حاشد من تفاصيل عديدة متناثرة ، ماخلت أن قد أوليناها قسط أدنى اهتمام خلال السنوات الثلاث التى مرت بنا ، تطفو متتابعة متلاحقة ، كأنما لسان رفاعي الذرب قد تحول إلى رشاء لاقط مساج ، ما تفوته شاردة الا وتصيدها من اغوار طوية ملتوية المشايخ ، فيفتلها فى تسلسل أحكمت مرائره من حول منطق عجيب :

ويصيبني ذهول ... ففى الشواهد الدامغة بأن جميع الآراء التى نطق بها عيد المجيد ... جميع الاقتراحات التى سبق وقدمها ... جميع التصرفات التى كان أقدم عليها ... جميع ماكان قد أقمنا به فتنبناه دون معارضة أو يكاد ، أو تكون قد تلقعناه حامدين ... إذا مرأتنا ساقتنا إليها سفسافة رأى أو سسطحية تفكير ، بل وثبت التلميحيات بأن كان يحدها اما تيه وعجب فمصالحة ذاتية ، وإما - فهو أدهى - قصص خبيث !

جلست مشدوها ، فإذا ما اختلست النظر إلى عيد المجيد ، رأيت شاحب اللون ، سائنا ، فكانه تمثال من شمع ، الا من اختلاجات حول أطراف الأنف إذ تتتابع أنفاسه قصصيرة مضطربة .

« وأظنك فاكِر الشيخ فضل ! هل كان يحق لك يا عبد المجيد ، أن تفعل به ما فعلت ... ففقدنا الرجل ! وأنت أعلم بما له من نفوذ ! ولصحة من ! من الذي استفاد ؟ كأنك رعيت به إلى الجانب الآخر ! هل يمكنك أن تفسر لنا قصيدك ! »

ودار بعينين خابيتين ، فهو المخدوح ... خدع بأن وضع ثقته حيث لا محل للثقة ! ويحتوي بنظرة ذات معنى ، كان عبد المجيد يدين لي أنا أيضا بحق تفسير .

وتفجر الغضب في مكانن نفسي ، فما كان يحق له أن يعترني ... بل أن يوحى حتى - مجرد إيهاء - يأتي معه متضامن ! فانه يعلم يقينا ... سمعته يقولها « بضمه لسانه » أن الشيخ فضل هذا الذي يتحسر الآن على انقلابه علينا ... مولولا بأن تسمي عبد المجيد في فقدان تأييده لنا ... انما أسموا خلق الله أجمعين !

ليس الغضب وحده ! بل استنشابة غيظ اذ أصدم صدمة العمر في هذا الذي اعتبرته مثلي الأعل ، هذا الذي تقانيت في خدمته ، هذا الذي لو كان قال لي « ارم نفسك في البحر » لفعلت دون وعي أو تردد ! هذا الذي ما وجدت فيه قط مأخذا ، الا أن يعضني أحيلا ثم يتجاوز عن اقتراحات كم أكون غائيت في إعادها و ترجيحها أو التحيزا لرأي يبديه عبد المجيد .

وهالك به ينقلب عليه فجأة .. تحلوه ضراوة لا تكاد تحدها حدود ! ولم ؟ آمن ستر قد انتهك ؟ وإي سر خطير ذلك قد انكشف !

أه .. من تلك الاطراقة الحادحة حين أفضيت إلى همسا بسر عبد المجيد ! أه ... من قناع الضراعة اذ توسلت لي أن أتكم الجبر ! أه ... من خبث الطوية اذ تعاهدني أن تراعيه فلا لنقل عليه !

كأنما الفصل ينساب برشا ناعم للملحس ،

ترقباً للفرصة أن تواتيه ...

« لا ... لا يا رفاعي ! كله الا الشيخ فضل ! » لم أدر الا وصوتي قد دوى ... أنت نفسك كنت من رأينا ! »

بهت ... أخذ على غرة ... اختلت حساباته ! فما تصور قط أن سوف يرتفع صوتي دفاعا عن عبد المجيد .

ثم لحظة صمت كأنها الدهر ، حطت علينا متسكافة فيتجمد الزمان ... أصبحنا مجرد شخوص خاوية تسمرت حيث هي ، ما عاد يرجى منها نفع أو ضرر ... وأرى فينا يرى الرائي عبد المجيد يفادر مقعده ، كيانا طيفيا سابجا من حولنا ... إلى حيث مكتبته ... يجلس إليه

... ثم خشخشة خافتة ... أصوت أوراقي ؟

« عبد المجيد ... فداء هامسي ، تخللته رعشة ... أمن حيرة أم أنها نبيرة توسل ؟

ويرفع عبد المجيد عينيه بتؤدى نحو رفاعي ، نظرة طويلة جامدة ، ولكنه جود مخيف ، وجهه فشاحب كان قسماته سويت من شمع ، لا أثر فيها لنبض حياة ، وأخيرا أرى شفاهه قد تحركت ...

« استقالتني سوف تكون على مكتبك خلال لحظات . »

ويقفز رفاعي كالمدحوخ ... « الله ! عبد المجيد أنت زعلت ؟ » يجري نحوه ، فيجد أن عبد المجيد قد انتصب ... تلقائيا ربما ، كما تعود أن يفعل اذ يأتيه زائر ، فينتهز رفاعي الفرصة ويحتضنه بانفعال ...

« الله ... ماذا عبد المجيد ! وهل يستعنى أن استغنى عنك ؟ هات راسك أبوسها ! يا شيخ ... اوعى تكون زعلت ! »

وتضطرب شفاه عبد المجيد باختلاجة خفيفة ، ولكن وجهه الشاحب ما يزال جامدا ، وعيناه راحلتان في غيهم سحيق .

« يا عبد المجيد ... فضلك علينا ! مجرد ملحوظات عابرة ... لعنة الله على أن فتحت لحي ! استقاله ! وماذا فعل من غيرك ... »

« ولا لحي يا إسماعيل ؟ » ملتفتا لي ، مستجيذا لي ...

« ملهش يا رفاعي ... » تقدمت فاجذبه من ذراعه بحزم ، « ليس وقته ! هلا تركنا الموضوع إلى الغد ... »

وقدته ، وقد استسلم كالطفل ، حتى خارج المكتب ، وغرباوى من خلفنا ، متيلد الوجه ، كالمجمل فك عقاله فجأة من ساقية دوارة ، فتختلط عليه الاتجاهات ، متلفتا لا يدري إلى أين ... ليحب من بعد في خطوات ثقيلة ، متقادا إلى حيث رأى سيده قد تحرك .

« ماذا يا رفاعي ؟ » همسا في الردفة الموصلة إلى مكتبتي ، « ألم تقل لي أنه يشكو من قلبه ؟ »

« الله ! » مخول كان كان سهو عليه ، ولكن « صواميل » فكرة تدور بسرعة مليون ميل في الثانية ، محاولا أن يتذكر متى وكيف وأين قد أفضى إلى بالخير ...

هي نقطة ضعفه الفاضحة ، همه أبدا ، اذا ما أزمع ، الوصول إلى هدفه فور اللحظة ، فك من مرة انصرف فك لسانه فيلش الكلام دشا - أي كلام ! - ويبدأ اذ يكتشف من بعد أن قد ناقض ما كان قال في مناسبة سابقة ، أو أن يقع في مازق اذا ما تنوقلت بين أطراف ظن أن ليس بينها اتصال ، ما قد يكون أسر لكل على

فلا أدري كيف أقول ما كنت أريد أن أقول ،
ثم اندفعت ...

« تعرف ؟ والله افتراء ! رفاعي غلطان في
حقك ! لو مكانك ما كنت سكت له ! »

« ماذا تقول ... » ويحيل إلى أن قد سرت
في أوصاله انتفاضة خفيفة ... « لا أبدا ...
هو على حق ... وقد آن فافسح المجال
لفيري ... »

« إياك ! وهل تتركني فيلتهمني ... »
« انه في أشد الحاجة إليك ... »

« لا حاجة ولا محتاجة ! البركة في غرباوي
... أهه منه كثير ... على قفا من يشميل ...
واستقلتي وراء استقلالك على طول ! »

« وهل تتركه لغرباوي وامشاله ؟ » دول
يفرقوه ... « تبقى مصيبة ! الواجب يحتم
عليك أن تقف إلى جانبيه ! »

« عمل فيك ما عمل ... وشاغلك مصلحته ؟
والله يا عبد المجيد أنت شهم ! »

« مصلحته ؟ الموضوع أكبر منه ، أكبر من
مصلحة أي شخص ... أيا كان ! »

« هذا دوري إذن فأقول لك ... الواجب
يحتم عليك أنت بالذات ألا تستقيل ! »

« مسيلق ... وانتهت ... »
« إنتظري ! لاني أقولها لك مرة أخرى بكل
وضوح ... »

« انتقلاتي وراء استقلالك على طول
... إيه رأيك ؟ أنا صممت ... »

كانت قسماته المشدودة قد لانت بعض
الشيء ، نظر إلى طويلا ثم قال : « كفانا مناقشة
... ألم تقترح بنفسك أن نرجع الكلام فيها
إلى اللد ؟ »

ثم خفوة من ابتسامة ومضى بها محياه ، ثم
أسرع يتسبح بوجهه ، أدار إلى ظهره ، ماذا
بخطوات سريعة نحو الباب ، ولكن صوته يأتيني
فجأة ...

« هيا بنا ! الوقت سرقنا ... تأخرنا عن
القدس ... »

وأشعر كأنما قد امتدت يد ، عبر الحاجز ،
تتلسس مصافحة والتقاء ...

التقاء فتقارب . كأننا لنا موثلا وملاذ ...

أما ثالثنا - بل قل « أوجدنا » - فيمضي
متخفيا من كل قيود ، تحركه دفعة قوية من
مهارة ذاتية ... ولكنه كأنما البهلوان على حبل

مشدود ، انتزعت منه أسباب التوازن الدقيق
... فيفيض من أدائه البارز ذاك الإبداع ...

تلك الروعة ، خلقت الإبهام خطفا فترة من
زمان !

حلة اغتيايا ... كلام يشبه بيننا كيانه مشدود
في تركيز أيا تركيز ، فلا يكاد يذكر ، إذ تقوت
الملكة ، ما كان قد قتل بلسان ...

ولكن أكان غاب عن ذهنه فعلا أن قد أفضى
إلى يسر عبد المجيد ؟ لم تراه لم يتصور قط

- فهو خير بادوا النفوس ، نهائيه كوحش
الغلاة في نذازعها على السلطة أو المناصب - أن
سوف تعينني مثيلا سلامة عبد المجيد !

« أما وقعة ! والله ما أخذت يائي ... »

ثم ينقلب على فجأة « والله أنت غلطان ! كنت
نبهتني ! عزمتني ... أهدتني على جنب ! ...

لا ... لا ! والله يا اسمعيل مالك حق ! »
بغت ! امتعضت رغم انه كم من مرة كانت

يهرني براعته تلك العدة في التملص ، في
استدراعه إلى الهداية بسراويعه ، حتى كان يندبر
بها على غيري !

« المتقلب فأت ، فأت ... »
اعتصمت خلف غشساة من نظرة خاوية

خامدة ، كأنها السد المنيع ، فتصرم بيني وبينه ،
وإلى الأبد ، وشائج الأيام ...

« آه ... فعلا لأن لازم أتبعك ... أنا في
غاية الأسف ... » ثم أدت له طهرى وليدا ...

هل حس من خلفي يا ترى باسمي يناديني؟
هل حاول ... أو ربما تنازعه لي يستوقفني ؟

لست أذكر إلا أن خطواتي بأعدي بيتي وحيث
ركنته ، مضيت ... فلم يكن يعني لحظتها

إلا أن الحق بعيد المجيد .
تشف لونه عن ذي قبل كان غاضب عنه

أسباب الحياة ، وعيناه تقبان غائران ، شديدا
الملكة وسط سمخته المخطوفة ، اضطرب لها

من فرط جهد إذ فوجيء بمودتي ، مصاولا أن
يسيطر على نفسه ... أن يخفي ما انفلت من

شواهد انفعال مكبوت ... اختلاجات متلاحقة
من حول أطراف الأنف والشففتين ...

أقبل راجعا على عجل ، كأنه يحاول التمسك
على بما فيها ، حقيبة اليد ، فتعانه إذ كانت

مكتظة بالأوراق ...
« آه ... اسمعيل ... بدون أكرات ،

وكانني به يقول ... رجعت ؟ هو أنا ناقصك ! »
ومضى فيما كان فيه ، فيقف الجرس للفراش ،

ويناوله الحقيبة بطريقة آلية ، حركة تتكرر كل
يوم ، هي هي بعينها ، ثم يلزع القاعة جيئة

وذهابا ... « كاني ولا هنا » ، ربما يكون الفراش
قد هبط فيخطر السائق بالاستعداد ...

« عبد المجيد ... »
توقف واستدار يواجهني ، فيحصر لساني

بعض لحظة ... ناهت عن ذهني الكلمات ...

لكل شعب لكل أوقات

بقلم: محمد عبد الحليم عبد الله



الصراع بين الإنسان والإنسان ابتداء من الإنسان وامداله حتى الزوج وزوجه ، وقد يمتد الصراع فيشمل الإنسان مع الحيوان . وفي هذا الصراع يتطلب الفكر على الشر . كما كان محمد عبد الحليم عبد الله حريصاً على أن يقيم في قصصه لولاً بين المآلئين الداخلي والخارجي للإنسان .

والقصة التالية من بين قصتين أو ثلاث تركها محمد عبد الحليم عبد الله قبل أن يتاح له نشرها مع رواية لم تتم . ونلاحظ أن القصة مجردة من المكان والزمان ، وقد ركز المؤلف هدفه على شخصيتها التي جردتها من الاسم أيضاً . وفيها يتناول موضوعاً من موضوعاته الأليمة هو علاقة الإبن بالآباء ، فالأب الميت ما يزال يمتد تأثيره إلى ابنه . ويتصالح القاري بعد قراءة القصة هل الأمر نفس فحسب أم وراثي أيضاً رغم أن كلا من الأثرين يعمل ضد الآخر . فالأب القالب الحاضر قد تسرب إلى ضمير الابن معذراً من التمادي في نفس الطريق الذي سيق له أن يسلكه . بينما الأم تعين الابن على تشييد عساك الأب وسيرة ، عانت من الزوج وتشاقق أن تعاني من الابن مرة أخرى . وهكذا يشكل الصراع جوهر القصة ، صراع بين الجيدين ، وصراع الإنسان مع نفسه .

ومجلة « المجلة » تنشر هذه القصة في مضمونها الخاص بالقصة القديمة مشاركة منها في لعبة وداع الصديق الذي سبقنا ، وترك لنا هذه القصة بضواتها الذي يثير التساؤل : هل كان محمد عبد الحليم عبد الله يتنبأ بما حدث له ويرجعنا إلا نجوع فإن « كل شيء أوان » أم هو استقسط منا لشاعرنا التي ألهمها الحدث ؟

يوسف الشاروني



في ٢٠ يونيو الماضي فجعنا بنبأ وفاة محمد عبد الحليم عبد الله ، الذي أرى مكتبتنا العربية طوال ربع قرن برواياته ومجموعاته القصصية . ولئن تميز محمد عبد الحليم عبد الله بأنه من جيل الروائيين المصريين الذين برزوا بعد الحرب العالمية الثانية ، فإنه لم يعمل القصة القصيرة أيضاً ، وهذه ظاهرة عامة في أبناء جيله ممن برزوا في كتابة الرواية دون أن يعملوا القصة القصيرة .

وتميز القصة القصيرة عند محمد عبد الحليم عبد الله بأن معظم أحداثها تدور فيريفنا المصري وما حوله من شئنا متواضعة والتعامل القائم بينها ، أو بينها من ناحية ولكن الكبرى من ناحية أخرى . ومثلها يدور حول

فقد كان أشبه دائما بشابين ... أحدهما يعمل
والآخر يحكم على العمل ..

وفي إحدى الليالي عاوده الحلم ... أنه مفرغ
محيف ..

شعر كان يده مقبوسة في مجرة صغيرة ...
وهذه المجرة مصنوعة على هيئة عين ... نعم
... واستيقظ متعورا جدا وهو يشعر أنّ يده
تكاد تحترق ...

وسرعان ما أشعل النور ...

وكان البيت خاليا . رابضا وحده في هدوء
مطمئن في أكناف الصحراء والأم في إقامة قصيرة
عند إحدى بناتها لأنها تلد . والحادم يعاني رمدا
في عينيه اللاتنتين . وليس هناك إلا البواب
والكلب ...

لم يدرك لماذا أحس بحاجة إلى الصراخ . هو
يعلم عن نفسه كما يعلم عنه الناس أنه شجاع
المعلم إلى درجة غير طبيعية . وكثير من الحقائق
المقزعة لم تنهر لها أعصابه ... مثل تلك الليلة
التي انقلبت به سيارته وهو عائد وحده من سفر
مريب . وكانت موحرة السيارة في التربة وهو
غير متطوّل الحواج . وعندئذ أسلم أمره إلى
الله ونظّر الموت بشجاعة لكنه فوجيء بمن يشيرون
إليه وينقذونه . وعلى الطريق أخذوا منه تقوده
الكثرة وسمم أحدهم يقول : أنظر نصفنا
لله ونصفه للشيطان وثقه فاحس كأن هذا خلاصة
لخلاله وجزء من أفكاره . وواصل هو السير إلى
أقرب مدينة بجلادة لا نظير لها . وكان شيئا لم
يحدث له .

لكنه عندما استيقظ هذه الليلة فزعا وكان يده
محروقة بالنار في مجرة على هيئة عين . - عندما
حدث له ذلك كان يرتجف ...

وأشعل النور ونظر في المجرة الواسعة .
وقعت عيناه على صورة أبيه . رأى عينه على
صورة جديدة . تومضان في الصورة الزيتية كأنها
انبعثت فيهما الحياة . ونظر إلى شعره الكثيف
وجبينه الضيق . وخيل إليه أنه رأى ابتسامة
غريبة متحيرة على شفثيه .

وعاد يتذكر تفاصيل حياة أبيه ... زوجاته
الثلاث اللاتي كن يبدرن كل مع كل فرصة لهما
وصوما . وأسافرا إلى أماكن لا ييوح بأسمها .
ثم انصرفه عن الناس وحتى عن صحبة أولاده .

بين حين وحين كان يرى في منامه أنه يفعل
شيئا مغيبا ... شيئا مخيفاً لكنه لا يخلو من
تساؤل . وعندما يستيقظ من النوم تثلث حوله
في خوف ويقلب يديه ثم يشعل النور ويستلقي
في الفراش حتى يعود قلبه إلى هدوئه .

ومن خلال أهدابه المسبلة كان يتفقد حجرة
نومه الواسعة ذات الطراز القديم الذي يحوى
الجمال والوقار ويوحى للدخل بأن أرواحا قوية
(مهذبة أو غير مهذبة) لكنها قوية على كل حال ،
عاشت يوما ما في هذا المكان .

ومن خلال أهدابه المسبلة يستذكر تفاصيل
حياته . ثم أيامه القريبة ثم ... لياليه الأكثر
قربا . ولا تلبث تقطيع علم الرضا أن تغطي
جبينه . وتظهر على الشفة . لكن أنفاس هذا
الشباب لا تلبث أن تنتظم ... وينام ..

وفي اليوم التالي تأخذ الحياة كما تأخذ كل
حي .

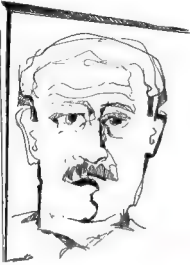
وهو في طبيعته الشاب مزدوج التركيب ...
وربما كان من النوع الذي يشعر بوجوده الشخصي
دائما . فهو لا يغيب عن ذاته أبدا ... أعنى أنه
عندما يعمل عملا ما ... طيبا أو غير طيب ... يصبح
أو يمس أثناء هذا العمل وكأنه شخصان لا شخص
واحد ... شخص يعمل وشخص يراقب أو يحكم
على عمل الثاني . وليس من الضروري أن يتخذ
أحدهما حكم الآخر عليه . لكن المهم ، هو أنه
يعرف وزن ما يعمل . ومقداره بالضبط في ميزان
الحسن والقبيح ...

كان أبوه رجل شهوات منطويا على نفسه .
كل علمه هو ذلك العالم المحسوس . يملك من
المال ما يغنى به رغباته . له عينان كميتي صقر
ورأس كبير كثيف الشعر ضيق الجبين . مات
هذا الأب ولم يتجاوز الأربعين إلا قليلا . وقالت
عنه زوجته لابنها هذا :

- أنه كان مثل شمعة تلوب ... ليس لأننا
مشتتة نضى بل لأنها مقبوسة في ماء يغلي .
ولم يكن في استطاعة يد أن تمتد إلى هذه الشمعة
فتنشلها ... كان الماء حارا وحتى الشمعة نفسها
كانت تنزلق من اليد بسرعة إذا ما أمسكتها ...

وفكر الشاب : هل فيه شيء من أبيه ؟

لكنه ما لبث أن استبعد هذه الفكرة . وآمن
بالإرادة على أنها أساس للسلوك الأخلاقي . ولذلك



ثم موته بطريقة سريعة ... كما تحطم كاسا من الزجاج الرقيق . والدموع الكاذبة التي ذرفت عليه يوم وفاته . و ... و ...

وشعر كان هذا كله موجه اليه . ثم ساءل نفسه عن سر ما يحدث له بين حين وحين ولكنه لم يهتد .

جلس مرة مع زميل في القطار يوم كان مسافرا . وكانت العربية شبة خالية . ولم ير الجالسان بدا من تبادل اطراف الحديث وكان زميل السفر رجلا مكتملا تيمو عليه الحنكة وطيبة القلب وعلامات المعرفة . وامتد الحديث حتى تناول الشباب ومشاكلهم والصبر الفض التحسب الذي قال عنه الزميل المسافر : انه اشبه - احيانا - بارض خصبة يزرع فيها اصحابها اشجار المر .

اطرق الشاب وصرحت افكاره . وتذكر آباءه وتذكر نفسه ثم قال للرجل :

- سيدي ... اننى اريد ان اقول لك شيئا يحيرنى ... اننى ارى بين حين وحين فى منامى اننى ...

وسكت الرجل بعد ان سمع قوله . واطرق . ثم رفع رأسه وألقى نظرة على ارض جرداء وقال للشباب :

- كابوس ... كابوس ...

ضحك الشاب فى استخفاف مكتوم ثم قال :

- طيب ... ذلك ما أعرفه ...

قال الرجل :

- هناك كابوس يكون من صنع الطعام والشراب يعنى من زحمة المعدة . وهناك كابوس يكون من صنع شيء آخر ... يعنى من زحمة الضمير ... (وحملق فيه) هل ضميرك مزدحم ؟

هن الشاب رأسه فى خجل وحيرة :

- آ ... ربما ...

ايام كنت شابا كنت احاول بين حين وآخر ان ادخل ... هل تعرف الى أين ... الى داخل اعماق نفسى ... واقوم بعملية تنظيف لتلك الاعماق التى لا يراها الاصحابها وحده ... ولن يكون هذا التنظيف كاملا تماما ... لكنه على كل حال لا يدع الاخطاء تتراكم ...

وقال الشاب فجأة :

- هل اغبر حجرة نومي كما اشار على بعض الناس ؟

ضحك الرجل وسال :

- لماذا ؟ هل فيها ما يثير هموك أو ذكريات لا تحبها مثلا ...

قال الشاب الى خجل :

- لا ... ليس فيها الا الاثاث المألوف وصورة لابي ...

لم يرد الرجل ... أحس أن الحديث بعد هذا فضول ... فقال للشباب :

- حاول ...

وعندما عاد لم يفعل شيئا . نسي كل ما دار . واسترسل فى حياته ... لكن الرؤيا مالبثت ان عاودته . ولما استيقظ فى هذه المرة . رأى السبب وعرفه أكثر من المرات السابقة .

كانت أصبعه السبابة فى فمه . وكان يحض عليها بأسنانه شديدا . وحرارة أنفاسه مثل حرارة الحجرة .

وصرخ كأنما يريد ان ينقذ يده من فم رجس آخر . فلما أفاق وأشعل النور ونظر الى صورة أبيه . رأى عينيه وكان فيهما دموعا . وعلى فمه ابتسامة حزينة . وكأنه يريد أن يرفع يده الى فمه - هو الآخر - ليبيض أصبع الندم ...

وعندئذ أدرك الشاب أن لكل شيء أوانا . فحرص على ألا يفوت الأوان .



بقلم : يوسف ادريس

- هوووو

مبكرا وقبل يقطتى التامة جاءنى الصسوت
منخفضا قويا فيه همس (الفافار) اقشعر
جسدى . قلت :

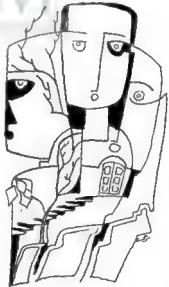
- هوووو

عاد يقول :

- قوم ... عندك ميعاد فى العتبة

استيقظت تماما . نسيت الشئ . غادرت
البيت . أصبحت فى العتبة . عندك ميعاد فى
العتبة . أين ؟ لا جواب . متى ؟ لا جواب .
مع من ؟ لا أعرف . انتصف النهار . بدأ
الغيب . ضوء الشمس اشتد وكأنها شجعت
نظاريانها إلى آخرها . كثر الذباب . تراحم
الناس أكثر وهزلتهم وضحت . عندك ميعاد فى
العتبة . أنا فى العتبة . القلب القديم لقاهرة قديمة .
قاهرة واحدة كان لها قلب واحد . اليوم بمائة
قلب ، بلا قلب . الميعاد فى العتبة . كيف أطيع
الصوت وأنا العلمى الذى لا يؤمن بالدجل .
حاولت العودة . فشلت . أصبحت لا أعرف
كيف . مقيدا حبس الميدان وسوى مسور خفى
مكهرب لا أستطيع اجتيازه . الميعاد متى ومع
من ولماذا ؟ لا أعرف . الميعاد فى العتبة .

مر أسبوع وأنا سجين القهوة واللوكانة
والميدان ، حدودى فتحات شوارع محمد على
والعباسية ومسرح الأزيكية والمطافى . البنات
القديمة حراسى . الناس ، النظرات أجنحة
الذباب . مقيدة مثل بقوى القاهرة . كل شئ
قديم تهب منه رائحة الزمن كجو مقبرة تفتح بحد
مائة عام . الميدان يضيق . خطواتى فيه تتحدد
أكثر . لم يعد باستطاعتى إلا أن الف حول عربة
الترام التابعة فى الميدان . فى نهاية اليوم العاشر
لم أعد أستطيع التحرك . شئت قدامى
بطريقة حاسمة ومجهولة إلى جوار الصرية .
ظلت فى مكانى يومين بلا نوم أو طعام . فى
الضحى ، وفى موكب ، أقبلت عربة (بويك) زرقاء





هي ؟ أم تراها أسطورية كمانشة التي قرأت عنها صغيراً . ولكننا لسنا في رواية . أعرف الفرق تماماً بين الأحلام والواقع وبين الأساطير والحقيقة . العربة حقيقية والسائق حقيقي وهضبة المقطم حقيقية ، حتى (فانفار) هووه لا يزال يرن في أذني دنينسا حقيقياً له وجود كوجود حركة عقرب الثواني في ساعة معصمى . معصمى حقيقي ومستيقظ ويؤلمني حين أعضه .

— أنزل .

كانت العربة دون أن أشعر قد وقفت . وكان عقرب الثواني لا يزال يتحرك ولكن الزمن توقف . مع العربة توقف لم أنزل .

— أنزل .

الأمر صريح ، أنزلت . انطلقت العربة بسرعة خاطفاً . أخفى هيكلها قبل أن يختفي صوتها . حدث إلى ما حولى . صحراء واسعة ممتدة . صحراء غير مستوية . لا شيء هناك ولا في أى اتجاه . لا أحلم . قطعاً لا أحلم . خلعت الساعة . قربتها من أذني . التكتكة مسموعة . أنا لا أحلم . أنا موجود والقاهرة مختلفة في مكان ما ولكنها قريبة وموجودة .

سرت خطوات . عشر خطوات كيفما اتفق . فجأة وجدت أمامي بوابة . بوابة بالتاكيد موجودة من زمن فصرها لا يقل عن نصف قرن . بابها من حديد هائل الضخامة قد تراكت فوقه طبقات الصدا . عليه زرع أخضر له مسيقان غليظة عمرها أكثر بكثير من عمر الرجل وزهورها حمراء طازجة نبتت من ساعات . البوابة مغلقة . لم تفتح من أحقاب . الظل جميل بعد لغم الشمس . أخفرة تجمل من الظل جنة . البوابة من جباد ولكنها أشعرتني بالنفس . افتتح باسم . لم تفتح البوابة . وأصبح أنها مستحيل أن تفتح .

جلست أنتظر . لم يكن أمامي إلا أن أنتظر . غابت الشمس . نمت . صحت . أفرقت الشمس . ماتت . غابت . نمت . خلعت إلى

من آخر موديل حلياتها النيكل مصنوعة من ذهب . العيون والأفواه المفتوحة حولها وتبعها . قاندها كالسائقين لدى العائلات الكبيرة يرتدى معطفاً أبيض وقفازاً أبيض وقبعة ذات حافة . توقف أمامي وقال :

— لركب .

لمحت خيبة الأمل في كل العيون . المعنشة حولنا وكان كلا منهم كان يتوقع نفس الدعوة .

— أنا ؟

— أيوه أنت .

— متأكد ؟

— أنت مش عندك ميعاد في العتبة . اركب .

أركب ؟

سالت : على تين ؟

قال :

هي مايراله

— هي مين ؟

— اركب .

أركب ؟

خفت .

انثقت عينانا .

لم أجسر على المعارضة .

ركبت .

انطلقت العربة .

غادرتا العباسية في اتجاه ترب الخفير . بدأ طريق يصعد بنا كان وأفسحنا أنهم انتهوا من رصفه من لحظات وأنه يطوى طياً بعد أن تمر به العربة .

— احنا في المقطم ؟

سالت وقد بلغنا أعلى نقطة . لم تستدبر الرقبة الغليظة . لم أظفر بجوابه . أصعدت السؤال محدداً وبصوت أعلى . لم يأتني إلا الصمت . سكت . أكون هي ، هي هي ؟ أكون

أمثل دورا في السسينما وأني احتضنت البطلة
أمام مخرج عجوز • عيون الكايميرا كانت تضايقتني •
صعوت • أنا جوعان • بدأت أضيغ الأغصان
الجافة • أحسست لها بلذعة • كفت • خفت أن
تكون نباتات سامة أو مخدرة • أخطأت والقيت
ناحية الشمس نظرة • لم أستطع سحب نظرتي •
جذبتها الشمس تماما وابتلعت وعيي • عييت •
عمى أبيض ملء بحرة كالد • حين فربت
الشمس عدت للوعي والرؤيا ووجدت البوابة
مفتوحة • دخلت • انطلقت بكل قوى أجري •
الحديقة واسعة • مزدوجة بالأشجار • الظلام
يتكاثر • أنا جوعان والأشجار أشجار جوافة •
أكلت • عاودت الجري في خط مستقيم ربما
أصل الى هدف • شمع الفجر • أحسست
بطريقة ما أني معاصر • توقفت • من خلف كل
شجرة برز مارد أطول مني بكثير • ربما مائة
أو أكثر • أحاطوني • اكتشفت حين اقتربوا أنهم
عراس خشبية ضخمة وأن مفاصلها من خيوط
وأسلام • تحركنا • أنا في الوسط وهم حولي •
طال المشوار • غابت الشمس •

لم أتم • ظل حراسي مستيقظين • في منتصف
الليل سمعهم يتحدثون وقد انقلبوا من عرائس
رجال الى عرائس نساء •

سألت أقرب جارائي الحارسك :
- من تكون هي ؟ أنكون هي هي ؟

لم تجبني • غمضت لعابها :
- هذا الجلف ... انها أجمل من كليوباترا
- أكثر أنوثة من الفروديت •
- ساقاها أمتع من وليمة جنسية
- فخذها امرأتان فاجرتان •
- أعماقها غيبوبة أدوع من الوعي
- هذا الجلف •
- أشرقت الشمس •
كنت وحدي بلا حراس ولا عرائس •

في مواجهتي تماما باب أنيق لقصر • القصر
مبنى بطريقة حديثة كأنه ديكور لقيام من أفلام
المستقبل •

كان الباب مفتوحا •
دخلت •

الصالة مساحتها عشرة فدادين • السجادة
كيلو متر مربع في الصالة ثلاثة كراسي في ثلاثة
أركان •

كنت متعبا • جلست على أقرب كرسي •
نمت • استيقظت لأجد الجدران قد حفلت بألف
باب •

عرفت أن على أن أجمن وأختار •
أخترت أبعد الأبواب •
دخلت •
مشيت علما •
أين تراها •
تعبت •
حاولت العودة •

وجدت نفسي في متنزه واسع مفتوح •
والدنيا ربيع وفي الوسط (يمين) يتسع لمدينة
تستحم • وكانت فيه امرأة واحدة عارية تماما
وبعيدة جدا •
كانت هي •
وكان على أن انتظر •
وانتظرت أنا والشمس • هي تشرق وتغرب
وأنا لا أتحرك • وبعد أيام عرفت أنها غادرت
الحمام وأنها في طريقها الى التمتع والمناج •
وانتظرت •
- هوروه •
- هوروه •
- أدخل •
بعد أحقاب •
دخلت المخدع •

السرير كرسي عرش ممدود وانجدران لوحات
بالتورية حبه والقدر المتنوع مختلط بنور القمر
بلا نظرة • وأصبها أشبارت • وسرت
وأصبها أشبارت وتوقفت عند قدمي السرير
وخلعت ملابس • وأشبارت وأقبلت جواربي
حملتني الى الحمام • وأشبارت وجيء بي وقد
أعددت تماما وأشبارت وأصبحت بجوارها تماما
في الفراش وجيء بالطعام • وأكلت • لي أعوام
وأنا جوعان • وبالشراب • شربت لي أعوام لم
أغب من الوعي • وفعلت كل هذا وأنا ذاهل فقد
كانت هي أجمل وأدوع من كل ما حلمت
وتصورت لكأننا كل نساء العالم قشور وهي
قلبي جميعا • أعماقهن • كل ما فيهن من رقة
وحنان وأنوثة •

وجاءت اللحظة واسترخت فوق الفراش
تناديني • ولبيت النداء • وأشبارت وأطفئت
الأنوار تماما حتى العمر انطفأ وتحسست
جسدي وأنا ذائب معها في قلبه واقشعرت يدي
وهي تالاس فخفا • كان خشنا مليئا بالشعر
رفيعا طويلا كساق العزة ينتهي بحافر كحافر
الحمار • اكتشفت أن الأنثى التي أنا غائص
فيها كانت مؤخرة رجل فاجر الشذوذ • غاص
قلبي وانطلقت أخرى أبحث عن باب المخدع •
اتعش في غشيانتي وأبحث عن باب المخدع ولا باب •
أجري ولا باب وأبشر في غشيانتي ولا باب •

الأم والوحش

بقلم : يوسف الشاروني

سمعت أم سيد صرخة طفلها ، متحشجة خافتة كأنها تساقط أوراق الشجر الجسافة . وكانت قد تركته نائماً في ظل الجميزة الوحيدة القريبة ، تأمل أن تستريح من ضجته وشقاوته حتى تنتهي من غسيلها . لكنه صرخ صرخته الخافتة المتحشجة ، فتركت ما بين يديها من ملاين وأسراع بعيداً عن المجرى حيث لمحت طفلها يتقلب وعمل بعد أذرع منه عيتين خضراوين ملتهتين حيوان متوحش جالع .

المسر بعيد عن القرية ، واقترب الشمس من نهاية الأفق الغربي يزداد المكان وحشة ووحدة وسكوناً ، والحيوان يقف متربصاً ، لعله تأهب لاقتناص فريسته ثم اكتشف عنصراً دخيلاً ، فترث يستوثق من قدرة هذا الخصم .

أم سيد لم تلمح في أول الأمر شيئاً واضح الملامح ، بل أحسّت بالشعاع الأخضر الرهيب يخرج من عينيه لينفذ في صدرها فيسرع تنفسها وفي قلبها فتسرع دقاته ، بل وفي مدهتها فتكاد أن تنقلص . تلك صدمة المفاجأة الأولى ، ثم ما لبثت أن سيطرت على مشاعرهما ، وهي تفكر في سرعة كيف ترد الوحش عن طفلها .

كان أشبه بالكلب الضخم . لعله ذئب ولعله ضبع ، فلم تر أحدهما من قبل وإن سمعت كثيراً من حكايات أهل القرية عنها . لو كانت وحدها لتفترت في الماء ، سمعت فيما سمعت



ان هذه الحيوانات لا تقامر في الدخول في معركة مع فريستها في الماء ، لكنها لا يمكن ان تترك ابنها سيد ياكله الوحش .

ارتابت لحظة الا يكون ما امامها وحش حقيقي لعله عقرت كهذا الذي ظهر للبتن مرمر يحوش الجزارين وهي في طريقها ليليا من بيت خالتها شرقي البلد الى بيتها غربا . لكنه لم يكن وحشا كهذا الذي امامها ، كان حمارا ثم تحول الى جدى استطالت ارجله حتى قارب طولها ان يمس خطافات الذبانج ، بمجرد ان قرأت الفاتحة اختفى . تمت سيدة ان تطول اقدامه . قرأت الفاتحة عدة مرات . استملت منها شجاعة وان لم يخفف الوحش او حتى تستطيل ارجله واذاؤه .

هل الأفضل ان تتقدم لتهاجم أم تنتظر لتدافع ؟ قالت لنفسها : لا بد ان الحيوان يفكر بدوره فكبرى نفسه .

يداهما ما تزالان مندتان ببقايا الماء . نسمة هواء هبت فزادت برودتهما ومنهما سرت البرودة في كل جسدهما فاقشعرت . خشخت اوراق الشجرة الضخمة فوقها ، بينما اهتزت عيذان الاذرة في حقولها على الطرف الآخر البعيد من الطريق . وخلفها قرص الشمس « ألون » أحمر ينطفئ وينحدر نحو المغرب .

جرى نحوها طفلها محتفيا كفيها ، مخفيا عينيها بين لحيها . عوى الحيوان : أوونه . أوونه . أوونه . فارتجف قلبها لحظة . لعله أدرك صعوبة الموقف ، لعله يخيف خصمه ، لعله ينادي زميلا له . اما هي فقالت : لعل أحدا يسمعه فيأتي لنجدها . أزهدت اذنيها . ثانية ثابتيين . ثلاث ... لا تسمع وقع اقدام . لماذا لا تصرخ هي بدورها ، كيف غاب عنها ان تستنجد بصوتها القوي ، طالما استخدمته في أفراح الأحباء والأقرباء وجناراتهم ، ولا تستعين به اليوم فيما هو أهم وأخطر ؟ خسر جرح منها صوت أشبه بالصفير ، خافها اذن ، أدركت لماذا لم تستخدمه . غير أنها بسجود ارادى . ولعله غير ارادى - سرعان ما فكت اساره واطلقته من محبسه فضي يلعلع ملويا مرسلا إشارة الخطر والفزع وسط صمت قاسي غير مكثرت . يشاركها ابنها بيكاته انفصلا وخوفا . فيتكون من صوتيهما جوقة جرح ودفاع عن النفس لا انتظام فيها حتى يبع منها الصوت وأدركا عيب المحاولة .

المعركة معركتها اذن وحدها . . . فصمت الارض بسرعة تبحث عن سلاح . . . لحت بين الاحجار المبعثرة حولها حجرا متوسط الحجم مدببا على

مبعدة ذراع منها . هل يصلح سلاحا في مثل هذا الموقف . . . ليس هناك غيره . الحيوان واقف لا يتأخر ولا يتقدم . لو انه الرماذي أشبهه بلون الافاق المتحول الآن نحو قتامة ما تزال تشهد وتوغل ، حتى تلوش الحدود بينه وبين ما حوله ان تداعى مما يسلبها وسيلة تحديد عدوها ورصد تحركاته .

اذا تسلمت الشجرة هل تبحث أم التفت ؟ تأملتها . . . شجرة جميز ضخمة عتيقة ، ربما في عمر هؤلاء الملوك الذين بنوا لأنفسهم مقابر منحوتة في الجبل في البر الغربي ، ومعبدا كبيرا ملتبسا بالأعمدة ومساحيط الكباش في البر الشرقي عندما كانت تسافر الى سوق الاقصر . يوم السبت من كل اسبوع ، كانت في طريقها الى السوق تشاهد أفواج السائحين بوجههم الحمراء وقبعاتهم وكامراتهم ونظاراتهم القاتمة وانواب نساءهم الملونة لا تغطي من الجسم الا اقله . السواح يأتون الى هناك من بلاد بعيدة لأن الاقصر قديما كان اسمها طيبة ، وطيبة كان يعيش فيها ملوك مصر القدماء قدم هذه الحبيزة .

تأملت الشجرة من جديد . اكتشفت ان بعضهم قد وضع شبكة حول أغصانها المرتفعة حتى تمنع المصائد المنطلقة من التهام ثمار الجميز الناضجة وحتى تتلفى ما يسقط منها عندما تنفصل عن أغصانها فلا يقع على الارض وتلوسه الأقدام . وطالما لعبت تحتها في الليالي القمرية واكلت جميزها . . . وأما تحاول منها من الخروج ليليا . . . تخيفها ان ضيحا او ذبا قد يفترسها . . . فتصديق ولا تصديق . . . يخاف قلبها ولا تخاف قدمها . . . فتضرب وتلعب وتعود تعلم أحلاما مفرقة . دائما تحلم أنها في معركة مع حيوان كثير الشبهة بهذا الذي امامها .

بحركة شبه غريزية حملت طفلها وامكته ان تشبث بالجميزة حيث ينحني جذعها الى فرعين ضخمين ، والطفل يبيكي لا يريد ان يتركها ، وهي تصرخ فيه ان لا يمثل لها فاليمس سبيلك ، وهو لا يصدق ان هناك مكانا أكثر أمنا له من حضنها .

الوحش أحس أن الأم سلبته فريسته السهلة . قرر أخيرا أن يعمل . ارتد بعيدا عنها ليعودهم ولا في سرعة خاطفة ، تماما كالبرق . أحسنت منه خلف جذع الجميزة ، لكنه لم يحاول مهاجمتها بل مر على مبعدة بضعة أذرع منها . هل تراه يحاول أن ينال من أغصانها لتنتهز فتصبح فريسة سهلة لا تقاومه ؟ لا بد وأن يكون ضيحا . هكذا



حين قابله صبح • تسمرت الحسارة ، وانتصبت
اذناها ، وانسحبت ما بين قدميها الخلفيتين ثم
تبولت ، وقد استطاع أن يحتسى بأحدى المقابر
هو وحمارته طويال الليل حتى انصرف الوحش
يائسا في الفجر • فلما خرج من مكانه اكتشف
بعينه - وعلى ضوء النهار - أن حمارته بالت
دما • • آتراها تبول الآن دما ؟ لا وقت
لاكتشاف الحقيقة •

الوحش مقبل للمرة الرابعة نحوها ، لعله
سيحتك بها هذه المرة ليطرحها في المرة التالية
أرضا كما سمعت وينهش أول ما ينهش عجيزتها
وهي ما تزال حية ، أشهى طعام فيما سمعت لدى
الضبع أو الذئب • في ليلة الزفاف كانت من
أشهى كنوز جسدها لدى زوجها • طفلها سيد
في الرابعة من عمره الآن ، لا بد وأنها بدورها
في الثانية والعشرين ، جميلة وقوية ، مشوقة
وفتية • ذلك اذن كان منذ خمس سنوات •
اليوم يقول لها أبو سيد اني المس عجيزتك كما
المس عجيزتي تماما • لا فرق ، ويضحك
غير انها كانت تعلم أنه كاذب ، انه يفيظها وتلك
أحدى طرقه في مداعبتها • وأمه يفيظها انها
يتضاحكان أمامها ، تريد أن تستعيد ابتسما •
أن تستولى عليه بعد أن أصبح ملكها ، لكن
هيهات • هذه ذئبة أخرى ، بل ليرة لكنهما
عرفت كيف تنتصر عليها في مصادك كلامية
ومخيلية •

قالت لنفسها • فأهل القرية يقولون ان للضبع
شموكتين في رقبته ، شوكة في كل جانب ، فلا
يستطيع أن يميل بوجهه يمينا أو يسارا ، فإذا
جرى لانه يجري في خط مستقيم •

من جديد عاد بنفس السرعة ، وأن أصبح الخط
المستقيم أكثر اقترابا منها حتى ان ما أثاره من
غبار حجب الرؤية عنها ليصبح نوان • في البلد
يقولون ان شعار الضبع : أعطني واحدا في طول
النخلة ولا اثنين في طول النخلة • لم تر النخلة
في حياتها ، لا بد وأنه نيات قصير جدا • هو
جبان اذن يجب أن ينفرد بضحيتها • لكن ليست
هي وابنها اثنان ؟ لئن كان ابنتها في طول
النخلة فطولها لا بد أن يكون في طول النخلة
لماذا اذن يتحرش بها هذا الوحش • لا بد اذن
انه ليس ضيحا •

ها هي ذا مرة أخرى يمدو مقبلا في اتجاهها
الخط المستقيم أصبح أكثر اقترابا • الفجار
أكثر كثافة • وقع اقدامه أوضح صوتا • وقف
على بعدة منها كأنما يزن أثر محاولاته في
خسبه • استطاعت أن تسمح بنفسه • • بل
تنفسها • لا بل تنفسه • الليل يغطي جسدها
كله حتى لكان ثيابها التي عليها كهذا القليل
الذي تركته ملقى على حافة المجرى • فاطمة
بنت الشيخ عبد الدايم روت لها أن والدها كان
عائدا على حمارته في طريق المقابر ذات ليلة ،

انحنى نحو الارض . التقلت الحجر المذبذب ودفعته بكل قوتها بين عيني الوحش المتهبتين وهى لا تكاد ترى شيئا . من الخوف . من الحوف . من القبار المتكاثف . بسبب الظلمة التى زحفت الآن تماما . لكنها لا بد قد أصابته . وقالت لنفسها اما أن ينصرف عني واما أن يزداد هياجـه وتصميمه وانتقامه ، وعلى أن أتأهب لأى احتمال

فى ثوان اختطفت الفراش الذى كان ينـام عليه سيد تحت الشجرة . كان مكوثا من ثوبين لأبيه . ثم تسلفت الجميزة بينما دفعت طفلها الى فرع أعلى تأمره أن يتشبث بيديه ورجليه . وحرصت هذه المرة أن تكون الشبكة تحته حتى تتلقاه اذا ما قدر له الوقوع ولا تتلقاه الارض أو الوحش .

لمحت بجوارها فرعا طويلا فى سمك عصا زوجها يتدل من فرع أكثر سمكا ، ويكل مافيا من عنف وخوف ورغبة فى الحياة أمسكت بقبضتها اليمنى منتصف الفرع وجذبته فالتفتي نحوها دون أن يستسلم لها بينما اهتزت الشجرة الضخمة هزة خفيفة ، لو كان جافا لاتنصف من هول المذبذبة لكن ما يجرى فيه من عاصفة حية جعلته القرب الى الوتر المشدود . عادت تبعد الفرع عنها ثم تعود فتشبهه نحوها ، مسورة وانتبتين وثلاث فى سرعة جنونية حتى لال لها وان ظلت بعض اليافه متشبثة بالفضصر الأمامى . حاولت أن تنال بالحيلة ما لم تنله بالمنف ، وفى لحظات كان هناك سلاح جديد فى يدها .

الوحش يتحرك ذهابا وإيابا بجوار الشجرة فى هرولة خفيفة وربما فى عصبية ، وهو يقترب منها شيئا فشيئا ، حتى اذا أصبح أسفلها تماما وقف ينظر بعينييه المتهبتين فى حلقة الظلام الى فريسته . ثم مضى يتشمسها بأنفاسه العميقة المتلاحقة ، ربما بسبب ما بذله من مجهود وربما هى طبيعته ، حتى خيل اليها أن أنفاسه العميقة ستجذبها اليه فيما تجتنب من هواء . كانت حواسها كلها متيقظة متأهبة لما عسى أن تسفر عنه حركة عدوها التالية . أدرك الوحش أن فريسته لا يمكن أن يبقيا أبدا الدهر فوق الشجرة ، وانهما سيضطران الى مغادرتها ذات لحظة ، وعندئذ تكون فرصته العظيمة . أمسا هى فقالت فى نفسها : أرجو أن يمر عابريهينى على هذا الوحش قبل أن تنقلب الامور الى أسوأ وهكذا بدا أن هناك هدنة غير معلنة بين الطرفين انتظارا لتطور الامور .

سمعت طفلها يقول فى صوت واهن : تعبت يا ماما ، متى سيمشى البيع ؟ أجابته الأم : ربنا

يفرجها يا سيد ، امسك الشجرة جامد . الناس بدأ يفزوه بعد الجهد الذى بذله .

هل غفـت أم أغفـلت ؟ كانت تفكر فى كل شىء ولا شىء حين سمعت فجأة ارتطام جسم وطفـلها يصرخ صرخة مكتومة أول الامر ثم صرخة معلولة فزعـة : الحقينى يا أمه ، الحقينى البيع سيباكلنى . كان قد وقع فى الشبكة كما قدرت لكن ما لم تقلده هو أن الشبكة كانت أضـعف من أن تحتمله فأخلت تتمزق تحت ثقله وهو يهبط نحو الارض فى بـطء .

لم تقبل أن تصلىق أول الامر ، وحين تأكلت لم تستطع أن تصلىق ما رأت . فى ثوان لفت حول ذراعها اليسرى ثوبى أبيه ، بينما تحرك الوحش نحو طفلها المبلل مكشرا عن أنيابـه . تلك فرصته التى طال انتظاره لها ولن يدعها تفلت منه . فى حركة شجاعة قفزت بسلاحها الشجرى فى يدها اليمنى وبلفافة القماش حول يدها اليسرى لتقع بين طفلها والوحش ، وبدلا من أن يقضم جسد سيد كان يقضم يدها اليسرى وهى تدفعها فى حلق الوحش غير هيابة ولا وجلـة . ولعله بدافع التهيب والوجل . وأنيابه تنفرس فى لفائف القماش . فى الوقت نفسه كانت يدها اليمنى تعمل عملها ، فالفرع المشعب يعضرات الأفرع الصغيرة كالأشواك يتندفع فى وجهه بينما يحاول الوحش أن يطولها ببخالبه ، وهو يلقي عليها بكل ثقله .

سيد يصرخ . هى تولول . تحقق بذلك غرضا مزدوجا : أخافة الوحش والاستئجاب بالعابرين الذين لا يعبرون . الحسر الجديد طريقه أقصر . بل الجميع هجروا هذا الطريق . شعر رأسها ، بل شعيرات جسمها كله - ووقفت . الفرع يتنصف أمام مقاومة الوحش وضغط عضلاته الحديدية . يدها اليسرى لا بد أنها ضايقته وكادت تعطيل تنفسه . أمسحت مس أنيابـه فى مصلعها اليسرى . سحبته فى حركة تلقائية . أدركت أنه استطاع أن ينهشها . الدم يرشح على ما تبقى من مزق القماش . حذبة يدها اليسرى الى الوراء وازنتها اندفاعا يدها اليمنى الى الأمام . النهاية المدببة لا تبقى من الفرع تنفرس فى مكان ما من وجهه . عجبت أن يكون هذا المكان من الوجه لا سبيل فيه الى مكان طرى كهذا الذى انفرس فيه طرف الفرع . لو أصر الوحش لحظة أخرى على مواصلة الحركة لانهارت . لا قبل لها بمقاومة عضلاته الهائلة .

لدهشتها - وفى اللحظة التى قررت فيها الاستسلام - سمعت الوحش يصدر صرخة

بقايا القرع الذي استخدمته كسلاح ضد الوحش كما شاهدوا الشبكة الممزقة ومزقا من قماش مبشرة . اما غسيل أم سعيد فكان ما يزال ملقى على حافة الجسر .

وظلت تعالج بالمستشفى ثلاثة أشهر كاملة . كانت تقوم في الليال الأولى فزعة تصرخ وتسال عن طفلها سيد . غير أن أعصابها ما لبثت أن هدأت ، حتى حين أدركت أنهم يتروا أصابعها الثلاثة . وعندما سمح للأطباء لها بالزيارة ، تدفق عشرات من أهل القرية يستمعون الى روايتها عشرات المرات .

غير أن الشهادة الكبرى جاءت على قم شيخ الحفراء ، حين كان يمر ساعة الغروب على خضراء قرينتا ، فلحق في طريق القمار خبعا يتشمم الأرض كأنها يبحث عن جيفة ، وقد لاحظ أن به شيئا غير طبيعي لم يستطع أن يعدده أول الأمر ثم أدرك أن في مشيته ما يشبه ترددا لا يتفق وجرأة الضياع . فلما شم - فيما يبدو - رائحته البشرية التفت بوجهه وجسمه نحوه فادهمش أن يكون بلا عيّن ، ثم أطلق أرجله للجري ، حتى أنه أطلق عليه عيارا ناريا فلم يصعب . ويقسم شيخ الحفراء - عند تضيق الخناق عليه - أن الضبع قد فقد عينا واحدة على الإمل . وقد أكد هذه الرواية أكثر من شاهد - من بينهم عمدة قرينتا وخفيرة - وأن أضواها اليها تقاصيل كثيرة أو قليلة تبعها لطبيعة الراوي بحيث أضيفت الى أساطير بلدنا ومواريها . حتى مراسل إحدى الصحف اليومية بمركز الأقصر عندما ترامت اليه أنباء المعركة . بعد أيام من وقوعها أبقى الى صحيفته يقول : وقعت مساء أمس معركة ضارية بين أم بقرية الكرك مركز الأقصر وضبع ضخم دافعا عن طفلها ، وقد استطاعت الأم في النهاية أن تضرع الوحش بشجاعته دون أن تصاب الا بخدوش قليلة .

ولقد تقدمت أم سيد في عمرها اليوم حتى أصبحت أشبه ما تكون بالجميزة العتيقة التي احتضنت بها يوما ، ورغم ذلك ورغم وفاة حماها وزوحها ، فإنها ما تزال تشاهد في شوارع قرينتا بأصابعها المبتورة . وكلما زارت بيتا من بيوت القرية حرص كبارها أن يعاين صفاره هذه الأصابع دليلا على ما سبق أن روه لهم عن قصة معركتها وانتصارها على الوحش . فإذا طلبوا منها أن تروي قصتها بنفسها روتها في كلمات سريعة قلائل .

ما سمعت في حياتها بتلها ! خليط من العويل والضحك والزغردة . ثم اندفع يدهم هولا متريا وراءه سحابة من غبار كثيف زاد عتمة الليل عتمة . ومع ذلك فقد ظلت أم سعيد تصرخ ، صرخات هستيرية متواصلة ، لا تدرك تماما ما حدث ، وتخشى أن يعود الوحش منتظا عليها وعلى ابنها وهي التي لا قبل لها الآن بأية مقاومة جديدة .

عندما اكتشفت أن الوحش قد ذهب الى غير رجعة قالت في نفسها : ربما كان الصراخ الآن أكثر ضررا . لن يأتي المنقذون وقد تأتي غيره من الوحوش فالطريق مهجور . والتفت الى طفلها - الذي كان على الأرض الآن وقد ركبه الخوف تماما - تنهرو وتأمرو بالكف عن البكاء لئلا يعود البعبع . صمت الطفل في الحال . فجأة أحسست بجوع شديد ، رغبة عارمة الى الطعام ، كان في معدتها يثرا لا قرار لها . نظرت الى نفسها ، اكتشفت ملابسها الممزقة وقد تعرى ثديها وجزء من بطنها أما عجيزتها فكانت ما تزال مغطاة بشياها ، فاطمأنت قائلة : اذن فالوحش لم يكن قد افترسني . غير أنها بدأت تحس بالآلام في يدها ، كانت تقطر دما من مكان ما لم تكتشفه بعد . قررت أن تحصل عليها - وهي التي لا تكاد تملكها قديما - ونسود مهرولة الى قرينتها .



في كلمات متلاحقة غير منتظمة روت أم سيد قصتها على أهل القرية وقبل أن تنهاها تماما كان قد أغشى عليها . كانوا بين مصدق ومكذب أما المعتدلون فكان رأيهم أن في القصة شيئا من الحقيقة غير أن أم سيد تبالغ لتسبح على نفسها هذه البطولة ، وأنها لا شك لم تكن في كامل وعيها حين خاضت هذه المعركة التي قل أن يخوضها الرجال . وكانت ملابسها الممزقة وأصابع يدها اليسرى التي تقطر دما هي شاهد الإثبات على روايتها .

وقد حملها زوجها وأخوها الى مستشفى الوحدة جمعة حيث أسعفت وتقرر إثر ثلاثة أسابيع من يدها اليسرى : البنصر والأوسط والسبابة . وقد هرول معظم القادرين من أهل قرينتا الى شجرة الجميز الوحيدة على جسر ترعنتا - يستوتقون مما روت عليهم أم سيد - فساعدوا

السودان

اذكروا محاسن موتاكم

بقلم: مختار ابراهيم عجوبة



اول الامر، ولم نجد بدا من قبوله فردا من افراد
اعتسفة في نهاية الامر، وب ان قد ما جانا ونسى
نصه يلى ود حيوة وتيرا منا - جادنا ومعه مهره
يسميه المحروسه - لا تدرى كيف استطاع ان يقطع
بها الوديان والصحارى بين الحلالوين وارض
التشاييه، حتى الدين داوا يزورونه داوا يربون
خيولا - نفق سفوحا للفرجه عنهم، وجاه احدهم مرة
يرب بنا وضعنا عليه وعلى ميتة قلب الثور -
صيوه يبيض المحي، خاتم صخرة يغطى الدفن
فقط، فلنا نطلق عليهم - التيروس - ولا نشعر
بحب نوحهم، ففى لهجتهم علف يبعدنا عنهم،
وسرعان ما نانوا يرحلون ولا ندرى من اين انوا
ولا الى اين ذهبوا، لم نهتم به ولا بزاريه ولكنه
اهتم بنا واقام خلوة جلى يمد خراب، فامهسا
الجيران من القرى المجاوره ومن الاعراب - فلان
ليله القدر فى ديارنا، ليلا ونهارا نسمع ترتيل
العران وتناغم الاصوات تعنو وننفض ونساق
ليلا فتضى الظلام، ويكاد المهب يماقق السماء
لهب احمر يلامس اطراف الظلام فيشع فى القرية
نورا - ويذا الثور يخسر قليلا فعد اخذ
الناس يتهايمسون - قالوا ود حيوة كافر -
تملكتنا الدهشة - ود حيوة كافر مثله مثل
جاسكون باشا ؟ ليس هذا ممقولا ! قالوا يعلم
الجيران المهيده - فاحتج آياه الجيران وأخذوا
آيائهم - **الفصل الينا وسجلوا مصالحيهم (٦)**،
وكانوا يستقلون بالبناء، ومن ديار التشاييه الى
مدني الضهاري (٧)، ترى التشاييه زرافات
ورحدا يرحلون - وآياونا يا سادتي كانوا فى
طريقهم بيتون المنازل بالجالوس (٨) فاهل الصعيد
جميعهم كانوا يسكنون القاطي (٩) والرواكيب
(١٠) وخيام الشعر، ود حيوة اعتزل الناس ولم
نتفق على شيء مثل ما اجمعنا على عداوة هذا
الرجل، سمع بيوتات كل بيت لا يرمى عن
الآخر، الباتقاب (١١) يقولون ان الصالحاب (١٢)
حلب جادوا واستقروا فى هذه القرية وان جدتهم
كان حندا يصنع الطوارى (١٣) والفوموس،

انا قريتنا - فى ديار التشاييه عشت
وتربيت، وما رايت فى حياتي اقرب مما رايت،
يا سادتي الكرام، ويا قرائى الاعزاء، يا من
تجهلون ابسط الاشياء، فى الحياة، حتى تاريخكم
تسجلونه، تمشثون بانقول المأثور اذكروا
محاسن موتاكم، واتم ميتون منذ ان ولدتى،
وامواتكم لا محاسن لهم - فقد عاشوا وعاتوا كما
تميش حيواناتهم وتوت - انتم يا سادتي
يا يا سيداتي، آنساتي - يا من قرائن الجرايد
وتعلمتن فى المدارس فزاد جهلكن على الجهل الذى
توارثته عن الحيويات (١)، لفرقت المينى جوب
ونسيتن الحركة (٢) (الصندلية) - وحيوياتكن كن
يليسن الرحاة (٣)، جلد مشقق يربط حول
الحصر وصدر عاز، يمكنكن ان تبدان من الرحط
مرة اخرى - ولكن اهل فيكن من ترمى الفم ؟
والا صغير السن كنت ارمى غنى وأجوب
الوديان، أحمل زمارى وقرية ماء فسوق كنى
وغداني لبن ضاني - وتالت عندما عاد عسى على
فيل ورسولنى حوته - عاد على قبل بعد غيبه
طويلة، قلنا انه مات وبكىناه سرا، وتقاسنا
ميراثه من الارض وسجلناه باسمنا فى صمغ -
وعندما عاد الينا كان رجلا فى سن الاربعين،
لحية طويلة سوداء مستديرة، وجسم نحيف قسح
اللون ووجه شاحب مستطيل - عياله اهل كنى
وما الذى اتى بك، طنشاء ما مع جيش ود
النجومى، من اهلنا امام الانصار الجبال الى
الصحراء والجبال - فقد كان الانصار ياكلون
الاخضر واليابس، الانسان والحيوان، الا عسى
وكان صبيا حلف الا يفر من وجههم، وبقي وحيدا
فى القرية ينتظرهم، لم يجسدوا فى القرية الا
صبيا فى الخامسة عشرة، نكلوا به وطلبوا منه
ان يريهم الطامير (٤) التى يفتى فيها اهل القرية
حصادهم من الفم والذرة، وكان لا يجيبهم الا
يقوله لا اعرفها، ضموا الى جيش الانصار وكان
يحمل القرية التى يشرب منها ود النجومى،
وفى مصر بيع عسى الى أحد الباشوات، اعتقه
عندما سمعه يقرأ القرآن فى الصباح الباكر،
صحب مع عبدالقادر ود حيوة (٥)، وبعد الفتح
عاد واقام معه فى الحلالوين، وعندما قتل ود حيوة
تسلل عسى ليلا وهرب الى ديارنا - اذكرناه فى

- (٦) مصالحيهم : جمع ملاحظة .
(٧) الضهاري : اسم مكان .
(٨) الجالوسى : كمية من اللبن .
(٩) القاطي : جمع قطة - كوخ من الصبال يتنى
به للحر ولا يتأثر به ولا يستعمل الا ليلا .
(١٠) الرواكيب : جمع روكبه - كوخ من النصب
يقوم على اربعة اعمدة وليس له جدار، ويستعمل نهارا .
(١١) الباتقاب : اسم مكان .
(١٢) الصالحاب : اسم مكان .
(١٣) الطوارى : جمع طوبه - آلة حفر تشبه
القاسى .

(١) الحيويات : الجذات .

(٢) الحركة : ثوب من الحرير يلف كجسم كاه فوق

الجلباج ولا يلبسه الا الاشياء .

(٣) الرحاة : جلد رفيع كالسك منسوج ليسه

الفتاة يبل السروال الى ان تزوج ويضعها بلس السروال

(٤) الطامير : مخازن الحبوب تحت الارض .

(٥) ود حيوة : ابن الجيده .



والصالحات يقولون ان الحسينات (١٤) ليسوا
الا يدا من احسانيه جاءوا الى انقريه وهم
لا يملكون شيئا واستولوا على اطيافها حين كان
لا احسد يهتم بالارض . وحسينات يقولون ان
الباتقاب كان جدهم عيسا ايضا احبهم بجدهم
فاخفاء وزوجه من احلى جواريه ، وحين يلتقون
ينسون كل شيء ويلامح بعضهم البعض .
يختلط الفتيان والعتيات في الليالي المقمرة .
ولافراح . وانشيوخ يقرأون موند الحمية عندما
يقول الرجل منا يا ابو هاشم يروح حلقه الساقية
وحده ، وعندما تقول المرأة منا يا ارغية يهرب
التمساح من وجها ، يتجمد ويصبح متحولا متوحشا
من الصخر .

وما كرهنا شيئا مثل هذا الرجل الذي اقلق
حياتنا ، حتى نحن الصغار كرهناه وعندما كان
يسر بنا كنا نلقي عليه الحجارة ، وردد في صوت
واحد . الكافر حطب النصار . الكافر حطب
النار ، وآيازنا اخوته لا ينهوننا ولا يشكرو
اليهم . وعندما جاءنا قال لاخته انه يريد حقه
في الميراث ، شجر اعمامى وابى بعدم الرضا ،
كيف يملطون في قدم من الارض بعد ان سجل
باسمهم ، وفي ديارنا يقتل الاخ اخاه - في
شبر من الارض - مع سبق الاصرار . تحفز
جميع اعمامى وحملوا طواريمهم وما تبقي لهم من
سيوف توازوتها عن الاجداد ، وهددوا عى ،
وقالوا له اذهب للمركز ، فقال لهم لا اقف عند
باب نصراني متقلما ولا اريد منكم الا ما يكفل
لى عيشى . قالوا له : اعطيناك ارضا ورثناها في
وادي بيوضه ، واعطيناك عودين لتزرعهما ، وترد
بها النيل . فقبل وعاش محتفظا بسيفه
وحرايه وفريسه .

(١٤) الحسينات : اسم قبيلة .

كانت لدينا خيول نفقت وهي في عز
الشمياط ، ولم تصيب بمرض ، كان فرسان
الشايفية يقرون بخيولهم ، ولكنهم الآن
يهاجرون على اعدائهم ، والعطار ينقلهم الى اين
شسوا . ماتت كل الخيول الا مهرة عى
ود حيويه ، وسيوف اعمامى صنعوا منها طواري
ومتاجل . كان النحاس عند عى عيسد الله ،
ودوا يربطونه الى اوداد في حجرة مفلقه
ولا يخرجونه الا في افراحهم او حين يموت عظيم
منهم . وفجأة سمع اعمامى صوت نحاسهم
ياتيهم في ليلة مظلمة من جهة النهر وكانت
ضربانه تطلق مضجعهم ، وكان يقرع وكأنه في
ساحة الحرب حين ترقص الخيول وتتدافع ، لم
يقم واحد منهم من عنقريه (١٥) . فقد اعيامهم
تشبيد السواقى واصلاح الاراضى نهسارا ،
ومضاجعة نساءهم ليلا . ليس عى مرقعته ،
وحمل سيفه ، وركب المحروسة ، وانطلق بها
نحو النهر ، وقف حتى الصباح فتجمعنا حوله
وكان زيده يتقطع وهو يهدر ويلوح بسيفه في
الهواء ويسب عى عبد الله لانه اهدل في النحاس
وربك الحجارة مفتوحة فسرقته الشياطين . وظل
النحاس طول عشر سنوات يكرر نفس الضربات
في الليالي المظلمة . وعندما يخذ النحاس الى
النوم سمعه نحن وتسمة القرى المجاورة فينبعث
اليتم صوته الاجداد الذين ماتوا وتهتز قلوبنا
انا اظن . جاور شيان اخراجه من النهر فلم
يجزوه . غطش وك عثمان . وانتظرناه طويلا
عنه ياتي به ، ولم يمد ، وبعد ثلاثة ايام تقياه
النهر وبان متعصا . صممت صموت النحاس في
احدى الليالي وسمعنا ثغاء نعيه حيلتها اليها
جزيرة شبح اهلها لطفوا وقتلوا درويشا فسلط
عليها الهدم ، فجاءت اليها تطفو فوق سطح
النهر يجرفها التيسار . واستقرت فؤ
النحاس . وعلى صوت النجعة تدافع الرجال من
الشرق ومن الغرب ومن كل الجهات ، كل يقطع
له قطعة ارض من الجزيرة كم نجعة ، ودحيويه
وحده لم يسابق احدا ، فاستطعم اهلنا الغرابه
بالشراقة وجاء كل منهم بمسييف حديدى ،
واشهروا السيوف وتقاتلوا لضحوة كاملة سقط
فيها رجلان منا ، واندحر اعمامى امام الشراقة ،
فصاح عى عبد الله « المروة (١٦) يا ودحيويه »
فرايته يقفز الى طهر المحروسة يلبس مرقعته
ويحمل سيفه وحرايه ويخترق اشجار النخيل
وكانه سيسهم تندفع به المحروسة الى النهر
والامواج تندفع من حولها ، حلقات . حلقات ،

(١٥) المنقرب : سر من الكلب .

(١٦) المروة : اى النجعة .

وحمل حبة الموت على الشراقة وهو يهتف
« الله أكبر والله الحمد » فاندسروا وتشتت جمعهم ،
لم يظعن أحدهم بسيف ولا بحربة فقد كانوا
راجلين .

توسط الجزيرة وأحضر الفريقين وقال لهم :
اغرموا سيوفهم في الأرض . فغرسوها ، وهذا
النصف وأشار إلى الشرافة لكم ، وهذا النصف
وأشار إليها - وكانت عيناه مغمرتين - لكم .
لا يمتدئ أحدكم على الآخر ، قالوا له ، تقطع لك
أرضا من أم سسيوف ، فقبال لهم . ادقنوا
سيوفكم فيها . واتجهوا إلى النهر واندفعت
المحروسة وكانتا رفاسا (١٧) جكسم باشا .

تجمعنا يوما نريد الدفاع عن عمنا مثل
ما دافع عنا ، فقد رفض دفع الضرائب للحكومة
وجاءت العساكر لأحدهم للسجن ولدى العدة
قال لهم : نأخذ بقرتين من أبقاره ، ودعشنا
عندما رأينا العساكر يقودون البقرتين
ولا يعترضهم ودحوبة . ربط العدة البقرتين
في ثوبيا مجاورة فانتفتحا وماتتا في الحين ،
وقيل إن عمي ودحوبة هو الذي قتلهما . وظل
العدة يشكو من افتتاع في مديده لشهور وبعدما
فارق الحياة .

لم يجرؤ أحد على أن يأخذ منه شيئا عنة
أصدر المفتش الإنجليزي أمرا بقتله . وجاءوا يوما
مأمور مصري يصحبه عسكريان ومجموعة من
الشبان كانوا يقادون ويصمون في مركب
ترسو قرب الشاطئ ، وأحد المأمور يسج على
الشيخ بأن يعطيه حصة عشر شاي ، وهو فرض
على كل قرية ، ولكن قريننا صجرها الشبان
ولم يبق الا الشيوخ ، فأخذ المأمور يشير إلى
أعمامى ، وعندما أشار المأمور إلى عمي ودحوبة ،
لم يشسر الرجل الا يود حبوبة يجثم فوق صدره
ويحشو له فمه من التراب .

أمسك العساكر بدحوبة وأوثقوه إلى جذع
نخلة ، وانهاؤا عليه ضربا بالسياط ، فلم يئن
ولم يتألم ، وعندما يشتد الضرب ، كان يصيح
بأعلى صوته « الله أكبر والله الحمد » قادوه إلى
المركز وحكموا عليه بشهرين سجن ، وعندما
عاد سأل عن أعمامى فقلنا له ، أنهم ذهبوا إلى
جهة بحري ، لحفر جداول مشاريع زراعية تقيمها
الحكومة ، فضحك حتى أدخعت عيناه .

قلت له ، فلننتك مت يا عمي من الضرب ، حتى
النخيل كان يصرخ وهم يضربونك ، قال لي ،
يا ولدي الإنسان كالنخيل لا يموت يا ولدي

(١٧) رفاسي : مركب بخاري نيلي .

الا بأن يقطعوا رأسه ، أنا وهذه النخلة ولدتا
معا ، كبرت معي وعندما تموت هذه النخلة
أعرف أن عمك حنت له ذمل القمرة . النخل
يا ولدي زادنا في الدنيا والاخرة ، وإذا متنا
دفنا جريده معنا ، فقد قيل انه يربط القبر
ويخفف العذاب . عذاب الدنيا ولا عذاب
الاخرة ، أنظر يا ولدي إلى أعمامك ، فظفرت
اليهم حين عادوا بعد ستة أشهر من « الختاني »
منهولي القوى ، ضعف الأجسام مشقة مفيرة
وجوههم ، يلعنون الانجليز والسفيرة التي جاءوا
بها . وكان عمي الخليفة عبيد الله يهدي من
روعم ، كان يقول لهم ، كل شيء بأجره
يا جماعة . الانجليز أشرف وهم أبناء عمومتنا
من قريش ، جاءوا كقاراء وعلنا مسلمين .

فيضحك عمي ود حبوبة ويقول له . وجاءوا
ببشا وجنتم سودا . تعرف جاكسون باشا على
عمي في السجن ، وصار كلما مر على القرية
يزور ودحوبة ويكلمه قليلا والرجل جالس ،
وكان ليس هناك حاكم يقف إلى جواره يحدثه ،
إن وجده تحت ظل نخلة بقيا هناك ، وإن وجده
فوق النهر يسقي المحروسة بقي معه ، لا يطلب
أكلا ولا شربا ، ود حبوبة لا يدعو إلى شيء من
ذلك . وإن وجده يقرأ الأوراد امتنع عن الحديث
معه ، ولا يسمح له بالدخول . وإن كان يصيد
كتابا ضحك طيس في الداخل وخاطبه من وراء
سجادة . ذهبتنا لصبر الانجليز على هذا
الرجل بعد أن بلاطه ويسترضيه وكأنه طفل ،
قال له مرة جاكسون باشا . . . انك تعيد المهدي
يا ود حبوبة . فقال له ود حبوبة . . . أننى أعيد
الله وأتبع تعاليم الامام المهدي رضى الله عنه .
قال له . . . المهدي نبينا قبره وحملناه إلى
ديارنا . . . قال له . . . لقد حملتم العظام ، والروح
في قلوبنا فإن استطعتم فانبشوها .

وكانت فرصة طيبة أن يزورنا حاكم ، فقد
كنا نرقص ونلعب ونذبح الذبائح وما تبقى في
أيدينا من سيوف تعرض ببشا وخيول من
« مساوى » ومن « القرير » تتيج مركب الحاكم
وترقص على ايقاع النحاس ، يحمله جمل مختس
عجز ، ويرقرعه عبد مختس هو كذلك . ولما
فى الاعياد لقائات وأشد ما يجذبنا إليها ما كان
يقوم به ود حبوبة ، حين يوافق عيده عيدنا ،
فقد كان يصلي صلاة العيد وحده ، ولا يصلي
وراء عمي عبيد الله ويسميه الرجل الفاسق ،
ياكل أموال الناس بالباطل ويجمعها باسم
النور والصدقات وقاما يتوافق عيد ود حبوبة
مع أعيادنا . فهو لا يؤمن بأقوال الحكومة
فالحكومة نصرانية وكل ما يصدر عنها قول

نصارى • وعلى رؤية الهلال يخرج معنا للعيد ، فقد نامت له عينا صغر يلتقط ايده الاشياء مهما صغر حجمها • في يوم العيد تنحصر له عشرة من جرائد النحل انصراء • نرسها على جانبي مصر صبي • خسا في جانب وخسا في الجانب المقابل • ولب رويسها يبيض اخضر • ويجعل المسافة بين كل واحدة واخرى مترا واحدا • يمتشي على صغر المحروسة • ويصيح • • دعي ابديوه (١٨) يا خادم • وعلى اصباح الدولة نرقص المحروسة ويصيح اعصامي ونعطيهم المحروسة اشبال (١٩) • وفجأة يترك على ابديوه ويطلق للمحروسة اللنان ويصف بها المقابر حيث كنا نقيم اعبادنا واقراننا • ويندفع بها بين صفى الجريد • وفي مع البصر يلوح بالسيف يمين ويسار • ويصع رويس الجريد واحدة تلو الاخرى •

هذا هو العمل الوحيد الذي كنا نشاهده على يد محروسه باحلاص • فلم يكن ودحوية رجلا علينا مثل رجائنا • يقضي الثلث الاخير من الليل حتى الفجر في قراءة القرآن والاوراد • وفي الصباح ينتب في توبه ويطل نائما في فصل الضحى الى ان يعود الناس من الزرع • وكانت له امرأة هي لذلك لا تعمل ولا تنجب • تحضر جرة ماء في الصباح الباكر • واخرى عند غروب القروب • ولا ندرى من أين يات كل • وان كان على عبد الله يؤخذ أن ود حبوبه يضي كنوزا من الذهب تحت الأرض • والا فمن أين يطلع زائريه الذين يفدون عليه ولا نعرف لهم لونا ولا جنسا • حتى الافندية في الآونة الأخيرة صاروا يزورونه • جادنا مرة أحد الافندية واخبرنا بأن الاسياد سافروا الى بلاد الانجليز ليساركو للملك انصهاره في الحرب • قال ود حبوبه ياجاعة ماتكم وما لكفار كفار في كفار خلوم ينقرضوا • كنا نستهزئ في ذى الافندية • وكان الافندي اسود الوجه لامع الحدين • يرتدى ستررة ومنطونا وطربوشا احمر • امثاله كان يطلق عليه أهلنا الجماعة السودانية • واحيانا نطلق عليهم • بقر المايوب (٢٠) • فقد كانوا قصار الاجسام منجبسى البطون • مكتنزة رقابهم • سريعة خطاهم • يسرون وكانهم يتدحرجون • وعندما يضيق احدنا بهم في المركز • يمس في اذن اخيه

(١٨) الدولة : الطيلة •

(١٩) الشبال : نعية لاحد الواقفين باصفاة من

شعر الرافعة •

(٢٠) بقر المايوب : نوع من البقر •

قائلا • يا جماعة آخر الزمن يحكمونا السودانية •

حدثنا الافندي السوداني عن سيف النصر • فوثب ود حبوبه ووقف على قدميه • وقال له ماذا قلت يا • سيف النصر هديه الملك الانجليز • انكر على ذلك • وغضب الافندي واسرع الى حقيبته وقال لصي اقرأ هنا • فقرا • الملك يستقبل وفد السودان ويهدي • الخ • نفص ود حبوبه ثوبه • وقال لنا • وكان غاضبا • اشهدوا يا ناس امام الله والرسول أنا يرى منهم • ما كان رضى الله عنه يطلب جاها ولا ملذا •

ركب فرسه وجاب بها القرية وهو يصيح « الله أكبر لله الحمد • جرينا ورامه نريد الامساك به فقد سمات حالته • وجساة انقلب علينا شامرا سيفه • فجرينا امامه وكل رجل ما يرى راسه كراس الجريد ملغوه بالخرق يتطاير في الهواء • ولا ندرى اى قوة ارسلنا الى الشاه • فوقع مضطبا في النهر وعام الى الجزيرة • وبطنا تساق اشجار النخيل وبني مصا بين السماء والأرض • وبينا فوق النخيل نرتجف • فقد كان يخيل اليها أن ود حبوبه تحول الى مئات من ود حبوبه • ففي اللحظة ابوجه مراه بانعرب منك وفي نفس اللحظة توه بالقرى من عك • ولم نعدنا الا حضور حبوبه الرجعي • الحاج اتى لا يعنى لهسا ابن القرا • وصفت فيه :

• مالك يا ولدي انت مجنون ١٩

هذا قليلا قليلا وبردت انفاه وترجل ورمى لجام المحروسة على السروج واتجه الى النهر وتبعته المحروسة • وشريت • وكانت تصهل • انزل منها السرج ورك اللجام • وعامت المحروسة في النهر • ووقعت لمسافة في الشمس • اغتسل هو وتوصا • وجلس تحت ظل نخلة يصل • وظالت صلاته • وكانت المحروسة تصهل صهيل له رتين الجرس • فيطرب القمري من على رويس النخيل ويردد النخيل صدى صهيل المحروسة • كانت تمسح فيه وتدخل راسها في صدره وتجتو الى جواره وتلتف نحن من وراء اشجار النخيل نهمس لبعضنا • انظروا • المحروسة تصلى معه •

مع شروق الشمس في اليوم التالي استيقظنا على نكاه حبوبتي بت الحاج فقد اصاب ود حبوبه الفالج وهو لا يستطيع حراكا • • شقه الايمن كله مات • وقيل انه رأى رجلا طويلا اخضر يلبس جلبابا ابيض يبارزه في المنام وسقط منه سيفه فضربه الرجل على شقه الايمن وعسلا استيقظ لم يستطع القيام • قال عن الحليفة



عبد الله - أسيادنا لديهم لاحقة ، هذا مسيدي
الحسن أب جلاية يلحق ويتجدنا .

توافدنا على عسى وأشفقنا عليه وقلنا له ..
انك منكر .. تقال من الختمية دائما وهذا جزاء
المنكرين .. وأخذ الصغار منا يلتفون حول دارة
وينشدون : يا منكرين فويل لكم .. وعندما
كنت أرى ود حبسوبة عاجزا عن القيام كان
يتملكني اليكاه ، فاشفق عليه .. وأحضر اليه
الطعام .. وأبقى معه ساعات أحادثه ويحدثني ..
والوساوس بدأت تتناوب في كل ليلة .. فصرت
أقرأ سورة يس ، وآية الكرسي عدة مرات قبل
النوم .. وأقسم لسيدى الحسن بأننى منهم ..
وأنتى في جوارهم .. صرت أختى الليل
والأحلام ، فى مرة جئاني نفس الرجل وأنا
تالم .. فلع سيله .. فصرت بأل صموتى
وقمت مذعورا وضمتنى أمى إلى صدرها وأنا شاب
فى سنين العشرين ، وقالت يا أب جلاية فويل
وليسدى .. وفى الليل صارت تطاردنى
التماسيح .. تريد الامساك بى وتفوس أرجل
فى الوحل .. ولا أستطيع منها هربا .. وعلى
مسافة منى أرى رجلا يقفون فأحاول الاستعانة
بهم ، فلا أستطيع التعلق ، ولا تتمسدى
و حروشى ، (٢١) أقدامى المنفرسة فى
الأحوال .. وتحيط بى التماسيح تفتح أفواهها
كالثيران .. فأرى الرجل الأخضر بجلبابه
الأبيض فتتحل عقدة لسانى .. وأصيح
يا سيدى الحسن .. وأستغث من النوم ..
أصيب عرقا ويكاد قلبي يقفز من صدرى .

ذهبت لعسى عبد الله وأخبرته بما يحدث لى -
فقال لى : الأسياد يريدون منك نفرا ..
فأعطيتهم نصف بقرتى الصفراء .. بعد أيام
جرف النهر الساقية ومعها البقرة .. انتشلنا
الساقية وفارقت البقرة الحياة .. قال لى عسى
الأسياد لم يقلوا اليدنة .. قلت له ، لماذا ؟
قال : انك أعطيت من لبنها المنكرين .. كان
صادقا فيما قال .. كان ود حبوبة جامعا فحللت

(٢١) وحوشى : الصوت الواهم الخائف .

له منها .. فقدت مالى فى الحياة وأنا أحب بنت
خالى « ريدة » .. كنت أنوى الزواج منها بعد
الحصاد .. فقدت حصادى وبقرتى .. قالوا لى
أذهب الى الخرطوم .. وزر مقابر الأواباء
والصالحين .. فكرت فى أن أصبح من أولاد
البيت .. أقيم فى الدائرة .. أنشرف بخدمة
الأشراف والشريفات .. أجد طعنا أكله ..
أعياى البحث عن عمل فى الخرطوم .. فقال لى
ابن عسى سر الختم .. وكان عسكريا ..
يا زول (٢٢) أنت مجنون تبقى على آخر الزمن
من ختم البيت ، أنت دروشت (٢٣) ؟ عملت
مع الانجليزى كان من كبار الموظفين يزوره
الأممية من أولاد العرب ، كنت أنظف الحديقة
وأرويه ليل ونهارا .. وأقيم فى حجرة الخدم ..
مضى أوشى (٢٤) البربري .. دخلت معه الحجرة
لاحقا صينية الأكل مرة ، فوجدت الانجليزى
واحد الأفندية عاوين .. ارتجفت وركضت الى
الحديقة وجلست فيها ، أشم رائحة الزرع وأرى
القر فى قربنا .. عسى ود حبوبة جالس فوق
عنقريه ينحصر ثوبه .. تبين أردافه .. وأجلده
أحيانا عاريا فالف الثوب حوله .. وكنا ونحن
كبار نذهب الى النهر .. جماعة .. ونعوم ..
كلنا عراة .. وما رأيت أحدا منا يفعل ما يفعله
الانجليزى والأفندي ، مثل ما يفعل الرجل
بالمرأة .. وى (٢٥) .. وى .. على .. ذهبت
لأين عسى فى الصباح وقصصت عليه القصة
فقال لى : تعيش كثير تشوف كثير ، يا زول أنت
مجنون .. أين تجد ما عية سبعين قرشا .

بعد أيام جاء الانجليزى الى حجرة الخدم وكنت
وحيدا .. هجس الليل ونام الناس ..
التمهندى ونقيق الضفادع فى الحديقة وميدان
التنس يشدنى الى أهل .. تظاهرت بالنوم ..
شعرت .. لم أشعر حيا لى .. جلس الى

(٢٢) الزول : تشخص ، جلا كان أو امرأة .

(٢٣) دروشت : صرت من الدواوش .

(٢٤) أوشى : اسم رجل .

(٢٥) وى : يا مصيبي .

جوارى فارتجفت .. كانت تحت عنقري عصى
تناولتها .. أمسك بي ولا أدري ما فعلناه ..
أحسست بأني أرتجف ولم تفارقتي الرجفة
حتى الصباح .. كنت خجيلا من نفسي .. وفي
يوم الجمعة ذهبت الى بحري .. زرت الاشراف
.. طلبت المغفرة .. كان الناس كثيرين ..
كانهم جميعهم كانوا يشيرون الى .. ويعرفون
ما حدث .. واعتلما جاء العصر انفضوا
جميعهم .. وبقيت وحيدا .. ماذا افعل لايين
عسى .. فكرت في الذهاب اليه .. لكن الامر
يخصمني ، هل أجبره بعد فوت الاوان
وما الضمان .. لم اذهب اليه .. وبقيت اتجول
.. قالوا لي : أن الحسن ود عكود جاء من البلد ،
فذهبت لزيارته .. فقال لي .. ان نخلة عسى
ماتت .. كنت ابكي امامه .. قلت له .. وعسى
.. قال : شفي من مرضه .. يذهب الى وادي
بيوضه يزرع ارضه ويرعى ابقاره ، ويعود الى
ديارنا في الشتاء .. ومهرته المحروسة ماتت ..
اعطاني ودعكود كيسا من البلح أرسلته لي امي
وزعته على الصغار .. كانوا تحت قيادتي ..
عندما كنا صغارا كنا نلقد عسى ود حيوية ..
لصنع من الجريد خيولا .. نركبها .. الجزيرة
ام سيوف تنفوس في كبدي .. وتتمثل لي غولا
يهجم على .. الهيايب (٢٦) السبحة ..
الحمراد .. الزرقاء .. الصفراء .. تصرخ في
أذاني .. تملأ عيولي بالآلابة ..
السوداء وأنا فوق الساقية .. والساقية تدور
بي .. في ليل حالك الظلام .. ثفن ياخوة
جاكسون باشا .. تأتي آخر الليل - مضاة
فاغنى لها :

ويلية بت خالي تقوم سوا

نفتح الشباك للهوا

نركب ام دغانا لوى (٢٧)

جكسم باشا اب دتايين (٢٨)

جاي نص البحر عاي

حسسه يصحج النام

وارقص على نضات الساقية وصوتها الباكي
.. ودولاب الباخرة يلتقي .. يلتقي بي في
النهر .. وبرفعني ثم يلفظ بي خلفها ..
تشرقني الأمواج .. تتبلبل ملابسى .. فأخرج
من النهر .. يسرب الأطفال من أمامى ..
يقولون .. انهم رأوا ساحرا يخرج من البحر
تخر من ملابساه .. أسرع الى حيث
يرقد ود حيوية .. يهجم الانجليز على عسى ..
يتزعون ثوبه .. هو لا يستطيع حراكا ..
ياولاد الكلب .. يركب الأطفال معى وحبيبة

(٢٦) الهيايب : الزوايج .

(٢٧) لوى : ملتوى .

(٢٨) دتايين : جمع رتيته - ما يسه به الكلوب .

الروضة خيول الجريد .. أمامنا ود حيوية ..
يقفز من عنقريه ويطارده معنا الانجليز ..
فيختفون منا في النهر ولكنهم يصودون ..
ثفاء النعجة وضربات النحاس تختلط بعضها
ببعض .. وكبرى النيل الأزرق يزحف ..
يلتقي بكبرى ام درمان .. صوت بوري الجريدية
يوقظني عند الفجر .. أتسلق النخلة في سرية
المفتش الانجليزى .. أقطع جريدة وأمتطيها
وأتناول سيف عسى .. ساحاريهم .. اللوايط
.. ماتت النخلة خلعت الجريدة من قلبها ..
قال لي عسى .. النخل كالإنسان .. وقال ..
الايمان في القلوب فان استطعت فانيهشوا
قلوبنا .. مهرتي المحروسة وقفت في ميدان
كتشنر .. وأخذت احاربه فوق جواده ..
فانلته حتى الصباح .. كانت النجوم تنهارى
فوق روسنا تأتي اثنتين اثنتين ..

- الروس .. الروسي ..

- حباب التيوسى ..

- من الانجليزى اب شنب للطيارة ام

ضنب ..

وعندما اشرفت الشمس جاهد الصاكر ..
قبضوا على .. شبهتني النجوم وهي تتساقط
.. من الطائرة .. تمزقت ملابسى .. فقدت
حذاءي .. كنت تميا محير العينين .. ارسلوني
الى كوبري .. وبعيلها الى المصحة .. لكنني هربت
.. اعطيت صبيحة فخرى وانطلقت .. قلت لود
حيوية .. خفي من الشمال .. وأنا من اليمن
.. ضربت جيل غردون باشا فوق صلبه ..
لفقر فجأة وكان الانجليزى نالما .. استيقظ
.. أمسك بالسرج والرسم جيدا .. دخل به
النهر .. عام الى توتي وسمعت صوت النحاس
يدق في النهر .. وأخذت ارقص وكان شعري
أشمت مغيرا .. عندما أصبح الصباح مرت
الصاكر .. فحضت .. لم يسألوني .. لحقت
بهم على ظهر المحروسة .. قلت لهم بالليل
طاردنا غردون باشا وعطس بجمله في البحر ،
الا تسمعون صيوت النحاس بم بم بم ..
فضحكوا .. ناولني أحدهم سجاره وقولده فلاق ،
.. أخذت مهرتي ترقص .. رقصت معها ..
تنفض عرقها .. تشب .. ترفع قوادمها الى
السماء وتصيح .. أمسك لجامها في صعوبة ..
رماي أطفال بالمجاره .. قالوا : البسايلى
المجنون .. انطلقت بفخرى أطاردهم .. دخلوا
بيوتهم .. انكسرت مهرتي حتى .. أصبح
جسمي ثقيل .. تسلفت النخلة .. قطعت
جريدة أخرى .. النخلة تنهارى تحت أقدامى ..
تسقط .. من رأس النخلة .. من عند القلب
ركبت مهرتي .. طارت .. بسرعة بي نحو
الأرض .. أض .. وض !

عصفور من الجنوب

أو عالم الطيب صالح

بقلم: د. فاطمة موسى

الرواية المعاصرة في العالم ، لا في حدود الوطن العربي .

وقد تبلورت في روايته هذه خيوط رؤيا نسجها في قصصه القصيرة التي نشرها منذ مطلع الستينيات ، ونفضت أدواته الفنية بعد أن جربها في القصة القصيرة (١) ، وفي قصة قصيرة - طويلة تحمل في طياتها مادة رواية طويلة حقا (٢) ، ولحبات من «أوشن» عبد الرحمن الشراوي ، وقصص الأرض والحراث والزرع وبسطاء الريف الطيبين التي سجل بها الأدب «التقدمي» في القرن العشرين .

وكما خرج هيكल والشراوي ويوسف ادريس وغيرهم من فرق صغيرة بدلتا النيل ، خرج الطيب صالح فيما يبدو من قرية في شمال السودان ، تكتنفها الصحراء من جانب والنهر من الجانب الآخر ، وتسطل الحجر طول النهار ، ثم تنقسم في الليل سمات لطيفة تهب من الشمال ، فهو ولد حضارة عربية أفريقية لا تلونها حضارة البحر الأبيض المتوسط التي تلون أدبنا العربي في مصر والشام والمغرب العربي .

إن جذوره الأدبية تمتد مباشرة من الشعر الجاهل - الأدب العباسي إلى مدارس الخرطوم تحت الاحتلال الإنجليزي وجامعات إنجلترا ، والأدب الغربي المعاصر ، متمشلا في أدوية هنة الإذاعة البريطانية ومحافل المجلس البريطاني للفنون والآداب ، ونفحات مثقفي بلومزبري ومقاهي الفنانين في تشيلس ولاتيسبرج .

(١) نشرت قصص الطيب صالح القصيرة في مجلات متفرقة في الخرطوم وبيروت ولندن (١٩٥٩ - ١٩٦٦) وجمعت في «دومة ودجاجة» : سبع قصص ، دار العودة ، بيروت ، د. د.

(٢) «عرس الزين» نشرت لأول مرة سنة ١٩٦٤ وطبعت أخرا في بيروت ، دار العودة : د. د.

أه منك يا زمان النزوح !

صبيحة ترددت على صفحات القصة العربية منذ نشأتها في مصر على يد هيكل وتوفيق الحكيم وما زالت تتردد في قصص شعوب عربية أخرى تسير على نفس الدرب ، وإن تأخرت عنا خطوة أو خطوتين ، وقد يلحق واحد من أبنائها بالركب في قفزة واحدة ، فإذا به قد بز السابقتين ، ورفع علم بلده على رقعة من خريطة الأدب المعاصر في الوطن العربي وربما في العالم أجمع .

كان احتكاك الأديب العربي ببطارية أوروبا في مطلع هذا القرن شرارة أصابت نفوس أدباء بالوعي بذاتيتهم وصلاتهم القومية ، فمضوا يعمدون خلق عالمهم المتميز في الأشكال القصصية الحديثة : الرواية والقصة القصيرة .

كانت تجربة هيكل في جبال سويسرا الشرارة التي ولدت «زيت» أول رواية عن الريف المصري صدرت سنة ١٩١٤ ، وتمنطت تجربة توفيق الحكيم الخصب في فرنسا عن «عودة الروح» و «عصفور من الشرق» ، كما لونت قصصه ومسرحه وكتاباتة كلها طوال سنوات إنتاجه الأولى والمتوسطة .

وما يصدق على هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين في العشرينيات والثلاثينيات يصدق على يحيى حقي في الأربعينات وعلى الأديب السوداني الطيب صالح في الستينات . فقد نشر الطيب صالح سنة ١٩٦٦ رواية قصيرة مركزة باسم «موسم الهجرة إلى الشمال» (أعيد نشرها في روايات الهلال مايو ١٩٦٩) وهي امتداد طيب للخط الذي تمثله «عصفور من الشرق» و «قتل أم هانم» ، إلا أن «موسم الهجرة إلى الشمال» متفوقة فنيا وتكنيكيا وتنتمي بحق للمرحلة الفنية التي تعيشها

لقصد جسم الطيب صالح مسورة القرية السودانية في ضميم قراءة القصة العربية. وأتفق فلاحيا وأضفى عليهم من الملامح ما جعلهم اليوم شخوصا حية تعيش في مشاعرنا وتكون جزءا من وعي قراء العربية *

إن قصص الطيب صالح تدور في مجموعها حول موضوعين : عالم هذه القرية السودانية وهي ليست بطبيعية الحال قرية بالذات ، ولكنها تمثل حضارة عربية أفريقية ذات جنور تاريخية بعيدة ، النيل عصب حياتها فلتنهر فيها قوة الآله الذي يعيش الناس بأمره ويموتون بأمره ونستفصل جوانب هذا العالم فيما يلي من صفحات *

والموضوع الثاني مرتبط بعالم القرية إما ارتباطا فهو يعالج تجربة ابن القرية في نزوحه أو هجرته إلى الشمال ، إن مصفون الجنوب الذي نشأ على مرمى حجر من خط الاستواء يحمل حرارة قريته ولسعة جسمها إلى بلاد الثلج والصحبة وحضارة التكنولوجيا المتقدمة ، فيكون له شأن قد يذوب برودة الثلج فيمن يعرفونه إلى حين ، وقد يطبق عليه الصقيع فيفر هاربا ، يعود إلى الجنوب ، أو يهلك كما هلك عطيل ، أول مصفون من الجنوب قتل بنت الشمال بينه وشجاعته وبساطة ، وغلب خياله بأفكاره وأسفاره وظلال الغاية والصحراء معتك كان في سمعته الدائنة *

وعالم القرية هو محور رؤيا الفنان على أي الأحوال ، أتاح له الزوج عنها أن يراها بعين جديدة ، انه يعرفها حق المعرفة شعرا شعرا ، ولكن تجربته في بلاد وموت من البرد حثيائها غيشت نظره بضياب شاعري فاضحي قادرا على تصوير القرية من خلال رؤيا أقل ما توصف بها أنها شاعرية ، تتم عن خيال قد وأصالة فريدة في نوعها *

وليست عين الراوي في قصصه بالضرورة عين نازح يعود إلى أهله بعد غيبة ، بل إن الجدة تنوفر في براءة عين الطفل الذي يرى الأشياء وكأنها خلقت لأول مرة ولذا فقد يكون الراوي طفلا كما في قصة حفنة من تمر ، وقد يكون من أهل القرية التي لم ينزحوا عنها ولكنه يعرف الغريب حق المعرفة ويعرف ما ترى عين الغريب في القرية ، وهذا هو الراوي العجوز في «دومة واد حامد»

إن حياة القرية رهن بمطاء النهر ، النهر يحمل إليها النازح والغريب ، والنهر أول ملامحها:

« عام يتلو عاما - ينتفخ صدر النيل ، كما يمتلئ صدر الرجل بالفيضان - ويسيل الماء على الضفتين ، فيغطي الأرض المزروعة حتى يصل إلى حافة الصحراء عند أسفل البيوت - تنق الضفادع بالليل ، وتهب من الشمال ريح رطبة مفعمة بالندى تحمل رائحة هي مزيج من أريج زهر الطلح ورائحة الحطب المشتل ورائحة الأرض الخصبة الطماي حين ترتوي بالماء ورائحة الاسماك الميتة التي يلتقيها الموج على الرمل - وفي الليالي المقمرة ، حين يستدير وجه القمر ، يتحول الماء إلى مرآة ضخمة ضمنية تتحرك فوق صفحتها ظلال النخل وأغصان الشجر - ولما يحمل الأصوات إلى أبعاد كبيرة ، فإذا أقيم حفل عرس على بعد ميلين تسمع زغاريد ودق طبوله وعزف طنابيره ومزاميره كأنه إلى يمين دارك »

ويتنفس الليل الصعداء ، وتستيقظ ذات يوم فإذا صدر النيل قد حبط وإذا الماء قد انحسر عن الجائتين ، يستقر في مجرى واحد كبير يمتد شرقا وغربا ، تطلع منه الشمس في الصباح وتنطس فيه عند المغرب (٣) . وتنتظر فإذا أرض ممتدة وبانة مليحة ، تترك عليها المساء دروبا رشيقة عصية في هروبه إلى مجراء الطمبي ، رائحة الأرض الآن تملا أنفك - فتذكرك برائحة النخل حين يتهاى للناح - الأرض ساكنة مبتلة ولكنها تحس أن بطنها ينطوي على سر عظيم *

(عرس الزين ص ٢٤ - ٢٥)

والنهر يرتبط بحياة أهل القرية منذ طفولتهم فهو مسرح لعبهم ومثير خيالهم ، إن الطفل الراوي في « حفنة تمر » ينتهي من دروسه في المسجد فيجري إلى النهر :

« نعم كنت أحب المسجد - وكنت أيضا أحب النهر - حالا تفرغ من قراءتنا وقت الضحى ، كنت أرمي لوسي الطمبي ، وأجرى كالبج إلى أمي ، والتمم الطمباري بسرعة شديدة وأجرى إلى النهر وأغمس »

(٣) أن النهر في عالم الطيب صالح لا يجسر من الجنوب إلى الشمال كما يجري النيل في قرائنا ، ولكن القرية فيها يبدو تقع على أحد ضاريف النهر في شمال السودان فهو يجري فيها من الغرب إلى الشرق - فإن وصف الفيضان بوصف يصبى حتى تنفس الظاهرة في «دومة وطين» .

نفسى فيه • وحين أكل من السباحة • كنت
أجلس على الحافة وأتأمل الشاطئ الذى
ينحنى فى الشرق وينحني وراء غابة كثيفة
من شجر الطلح • كنت أحب ذلك • كنت
أسرح بخيالى وأتصور قبيلة من العمالقة
يعيشون وراء تلك الغابة ••

(دومة واد حشد ص ١٩ - ٢٠)

وفى النهر يهلك أبطال هذا الكاتب أو يولدون
من جديد • ويعود الكاتب فى قصصه الى رؤياه
الاساسية عن القرية يوضع مآلها ويسوى بناها ،
ويضفى عليها من خياله • ودقة احساسه ما يطبع
صورتها فى ذاكرة قرائه • وقد وجدت أجمل
تصوير لها فى روايته القصيرة موسم الهجرة الى
الشمال ، اذ يصفها بعين ابنها الذى غاب عنها
زمنًا ثم عاد :

تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل •
النهر بعد أن كان يجري من الجنوب الى
الشمال ، ينحني فجأة فى زاوية تكاد تكون
مستقيمة ، ويجرى من الغرب الى الشرق ،
الجرى هنا متسع وعميق ، ووسط الماء
جزر صغيرة مخضرة ، تحسوم عليها طيور
بعضاء • وعلى الشاطئ غابات كثيفة من
التخل ، وسواقي دائرية • ومكنة ماء من حين
لاخر • الرجال صدورهم عارية • يلبسون
سراويل طويلة ، يقطعون افا يزرعون حين
تمر بهم الباشرة كقلمة عائمة وسط النيل
يرفعون قاماتهم ويلتفتون اليها برهة ثم
يعودون الى ما كانوا فيه • انها تمر على هذا
الكان وقت الضحى ، مرة فى الاسبوع ،
وما تزال فى ظلال التخل المنكسة على الماء
بقية تتكسر حين يهزها الموج الذى تحدثه
محركات الباشرة • وتتطلق صفارة
مبحوحة • سيسمها أهل ولا شك فى
دورهم وهم يفربون قهوة الضحى ••••
ها هى بيوت القرية المتلاصقة من الطين
والطوب الاخر تشرّب بأعناقها أمامنا ،
وحيرنا تحت السبر لأنها شمت بخياشيمها
رائحة البرسيم والطلف والماء • هذا البيوت
على حافة الصحراء • كان قوما فى عهد
قديم أرادوا أن يستقروا ثم انفضوا أيديهم
ورحلوا على عجل • هنا تبدأ أشياء •
وتنتهى أشياء • ومنطقة صغيرة من هوا
بارد رطب يأتي من ناحية النهر ، وسط
هجر الصحراء • كانه نصف حقيقة وسط
عالم ملء بالاكاذيب • أصوات الناس
والطيور والحوانات تتناهى ضعيفة الى
الأذن كأنها وسواس ، وطلقة مكنة الماء

المنتظم تقوى الاحساس بالمستحيل والنهر ،
النهر الذى لولاه • لم تكن بداية ولا
نهاية ، يجرى نحو الشمال ، لا يلى على
شيء • قد يعترضه جبل فينتجه شرقا ، وقد
تصادفه وعدة من الارض فينتجه غربا ،
ولكنه ان عاجلا أو آجلا يستقر فى مسيره
الحتى ناحية البحر فى الشمال ••

(موسم الهجرة الى الشمال ، ص ٥٤ ، ٥٩)
ومن معالم القرية دائما نخلة او دومة تقوم
على ضفة الجدول أو النهر ، وتضرب بجلودها
فى وعى الشخصية ، ممثلة الماضى والتراث •

ان نخلة الشيخ محبوب فى قصة «نخلة على
الجدول» تعادل حياة الرجل نفسه ، ماضيه
وحاضره ، وهو يرفض فى شدة املاته ان يبيها
لانها أصبحت قطعة من نفسه ترتبط بأحداث
حياته كلها •

وعندما يفتح الله عليه ، ويفرج أزمته اذ
يصله المال والكساء من ابنه الغائب فى مصر :

انحدر طريقه من عل الى غابة التخل
الكثيفة عند أسفل البيوت ، وتميز فى
وسطها نخلة ، مشوقة متفطرسة جميلة
تتلاعب بجريدها نسائم الشمال •

(دومة واد حشد ، ص ١٨)
وهو فى أفقته يذكر يوم غرس النخلة فى
صباح يسوم من أيام الصيف من شتلة صغيرة
رماها اس عمه اسماعيل بعيدا على أنها نخلة من
«الاضرار» لا تصلح :

فالتقطها محبوب ونفض عنها التراب ،
وقال لابن عمه ضاحكا : يا كرتشوف
تبقي تمسره زى المبح •• وعلى حافة
الجدول قريبا من الساقية ، شق محبوب
حفرة صغيرة وضع فيها «النخلة» وواراها
التراب وفتح لها الماء بعد أن تلا أيات من
القرآن وردد فى شيء من الخشوع :
«بسم الله ، ما شاء الله ، لا حول ولا قوة الا
بالله » مثلما يفعل أبوه كلما غرس شتلة
أو حصد نبات • ولم ينس أن يصب فى
الحفرة قليلا من ماء الابريق الذى يتوضأ به
أبوه تيمنا وتبركا •
ص ١٠

ويزدهر الرجل كسما تزدهر النخلة ، فيعد
سنة أشهر يتزوج وهو المنيوز الفقير ، وينجب
البنات والولد ويعد وفرة من مال ، يرمى الفضان
ويقلع قطيعه ويزيد ويجلس هو فى السوق كبقية
التجار ، وهو فى شيخوخته يتمسك بنخلته
كآخر مظهر من مظاهر كبريائه وثقته بنفسه •

والراوى في قصة «رسالة الى الين» قد تزوج من اجنبية قاضى في حساب اهل بلدته «كنخلة» على الشاطئ ، فقتلها التيارات وجرفها بعيدا عن مينائها » .

ومن معالم القرية الى جانب النخلة والدومة التى تضرب بجنورها فى الارض ، افراد يضربون بجذورهم فى الماضي ، ولعل ابرزهم شخصية تظهر فى عدد من القصص هي شخصية الجيد .

ان الجيد يهيمن على حياة الطفل واحلامه فى «حفنة تمر» .

« ولحبة جدى كانت غزيرة ناعمة بيضاء كالقطن لم أر فى حياتي بياضا أنصح ولا أحمل من بياض لحبة جدى » ولا بد أن جدى كان فارح الطول ، إذ أننى لم أر أحدا فى مسائر البلد يكلم جدى إلا وهو يتطلع اليه من أسفل ، ولم أر جدى يدخل بيتا إلا وكان يلحنى التحنات كبيرة تذكرنى بانحناء النهر وراء غابة الطلع « ص ٢٠٠ »

ويظهر نفس الجيد يحمل نفس المعالم فى موسم الهجرة الى الشمال

«جيدك ٠٠ ذاك رجل ٠ ذاك رجل ٠٠ تسعون عاما وقامه متصبية ، وظهره حاد ، وكل من يراه يده ٠ بقعر فوق الحمار ، خفيفا ويشى من بيتة للمسجد فى الفجر ٠ هاهنا ٠ ذاك رجل ٠ »

ان مصطفى سميد النازح مقطوع الجذور الذى نزل هذه القرية المجهولة يبحث عن حقل يمد فيه جذره من جديد ، يقول عن حاج أحمد الجيد «انه يعرف السر» سر البقاء والحياة »

والراوى نفسه وهو الصورة الجديدة لمصطفى سميد ، هو النازح الذى نجا ولم يهلك لأن له جينورا فى القرية والجيد من أولى مميزاتا ودعائما يقول عن جده :

« وتمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمرى » ذلك الإحساس الصلب الذى يسبق لحظة لقائي مع جدى كلما عدت من السفر . إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا أصلا على ظاهر الأرض . ونحن أعانقه أستنشق رائحته الغريبة التى هي خليط من رائحة الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيل المطمئن ، يقوم حسرا بيني وبين الساعة العالقة التى لم تشكل

وفى القصة التى سميت المجموعة باسمها تقوم دومة ود حامد «علما يراه الناس فى أحلامهم» فهو تشبيل تراث القرية ومعتقداتها يدفع عنها الناس بكل ما أوتوا من قوة ، وتحاول الحكومة وغيرها من السلطات أن تصف بها ولكنهم يزودون عنها يعاونهم فى ذلك ذباب البقر وغيره من الحشرات التى تتكفل «بتطقيش» كل غريب يحل بالقرية .

ولكن هذه المعانى لم يلقها الكاتب على مجرد رمز معنوى ، بل اضافها على دومة حقيقية :

«دومة ود حامد ٠ انظر اليها شامخة برأسها الى السماء ٠ انظر اليها ضاربة بصورتها فى الارض ٠ انظر الى جذعها المكتنز المتل ٠ قفامة المرأة البدنية ، والى الجريد فى أعلاها كأنه عرف المهره الجماحة ٠ حين تميل الشمس وقت العصر ، ترسل الدومة ظلها من هذه الرتبة العالية عبر النهر ، فيستظل بها الجالس على الضفة الأخرى ٠ وحين تصعد الشمس وقت الضحى ، يمتد ظل الدومة فوق الأرض المزروعة حتى يصل الى المقبرة ٠ » ص ٣٧

وفى موسم الهجرة الى الشمال يوحى الراوى بينه وبين النخلة القائية فى فناء الدار :

« ونظرت خلال النافذة الى النخلة القائية فى فناء دارنا ، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير ، انظر الى جذعها القوى المعتدل ، والى عروقها الضاربة فى الأرض ، والى الجريد الأخضر المتهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة ٠ أحس أننى لست ريشة فى مهب الريح ، ولكننى مثل تلك النخلة ، مخلوق له أصل ، له جذور ٠ له هدف ،

ص ٧ - ٨

وهو أيضا يجلس عند جفج شجرة طلع على ضفة النهر يذكر ساعات طفولته التى كان يرقب فيها النهر وما يوج به من حياة ، وهو إذ يذكر حباته فى بلاد الصقيع يذكر جلوره فى قربته وقد حمت من التآزم والهلاك : «هناك مثل هنا ٠ ليس أحسن ولا أسوأ ٠ ولكننى من هنا ، كما أن النخلة القائية فى فناء دارنا تنبت فى دارنا ولم تنبت فى دار غيرها ٠٠ » ص ٤٤

وعندما يفرق الشيخ محبوب فى بحر من الحيرة والذكريات اذا بريح «قوية هبت تتلاعب بجريد النخلة ، فأخذ يوشوش ويتحرك ويتلاطم كقريق يطلب النجاء » ص ١٦

بعد ... نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي فلاحسون فقراء ، ولكنني حين أعانق جدي أحس بالفتى ، كأنني نعمة من دقات قلب الكون نفسه .

إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والنصب ، ولكن شجيرات السيلال في صحاري السودان ، سمكة الدجى حادة الأشواك ، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة . وهذا هو وجه الصب . انه عاش أصلا - رغم الطاعون والجاعات والحروب وفساد الحكام . وما هو ذا الآن يقترب من عامه المائة ، أسنانه جميعا في فمه ، عيناه صغيرتان باهتتان تحسب أنهما لا تريان ولكنه ينظر بهما في حلقة الليل ، جسمه الضئيل منكش على ذاته ، عظام وعروق وجلد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يلفز فوق الحمار نسيطا ، ويشي في غشب الفجر من بيته إلى الجامع .

(موسم الهجرة إلى الشمال ص ٦٣)

هذا الجد يعود من أعمدة الحياة في القرية ، يحيط به الأبناء والأحفاد والأصدقاء ، وصوته وهو يصل الفجر ويسبح خالقه تحت الهلاج الصبح يدفع الطائفة إلى قلب الحفيد - وقد عاد من سهرة سمر أو شراب ، وطبقة يزوره في العلم يضي على نفسه الرضا في بلاد القرية ، ودلالة واسعة كما ترى من هذه الشذرات القليلة التي أوردناها ، ولكنه في نفس الوقت رجل من لحم ودم ، تدمع عيناه من فرط الضحك فيسبح دموعه بطرف جلبابه ، ويكره حفيده الطفل في حفنة من تمر - إذ يراه يتفلسف دينه من مدين مفلس ، وبيته بيت حقيقي محسوس وإن كان عميق الدلالة ، يسط المعنى فيشمل حضارة الفلاحين لا في السودان وحده بل في وادي النيل كله :

هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ، ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح ، قائمة على أطراف الحقل تماما ، تكون امتدادا له .

وهذا واضح من شجيرات الطلح والبسط النامية في فناء الدار والنباتات التي نمت في الحيطان نفسها حيث تسرب إليها الماء من الأرض المزروعة . وهي دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة

مختلفة الأحجام ، ولكنها ، بنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة ، أما حسب الحاجة إليها أو لأن جدي توفر له شيء من المال لم يجد وسيلة أخرى ينفقه فيها ، غرف يؤدي بعضها إلى بعض . حيطانها ملساء مطلية بمادة هي خليط من الرمل الخشن والطين الأسود . وزبالة البهائم ، وكذلك السطوح والأسقف من جلوج النخل وخشب السنط وجريد النخيل . دار متساحة ، باردة في الصيف ، دافئة في الشتاء . إذا نظرت إليها من الخارج ، دون عطف أحسست بها كأنها حشا لن يقوى على البقاء ، ولكنها تفالبا الزمن بشيء كالجزرة هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، إذا اخضر الحقل اخضرت ، وحين يجتاح القحط الحقل يجتاحها هي أيضا (ص ٦٢)

وصوت الجد هو الصوت الأساسي في دومة ود حامد ، وهو صسوت يتم عن عطف وراثه شديدين على الشباب والاعراب الذين يردون إلى القرية ، ونوع من الاستغراب الساخر للأعيان أهل البندر وغياة أهل السلطان ، ونفمة حديثه خليط من براقة القروي الساذج وحكمة الموز الذي جرب كل شيء ورأى الستوات تمر ولا شيء يتغير حقيقة في مجالعات الناس :

وخطاباته إلى السجن . ومضى علينا شهر . وذهبت يوم جاء الجند أنفسهم الذين سجنونا ففتحوا علينا الأبواب . وسألناهم ما الخبر . فلم يكلمنا أحد . ولكننا وجدنا حشدا كبيرا خارج السجن - أول ما رأونا هتفوا وتادوا وعانقنا أناس نظفوا الثياب ، تلح على مصاصهم ساعات مذهبة وتفوح نواصيمهم برائحة المطر . ونظر بعضنا إلى بعض دون أن نفهم ما يدور حولنا ، إلا أن سواعدا كلت من طول ما صافحت من أولئك الرؤساء التواب . (دومة ود حامد ، ص ٤٨ - ٤٩)

وال جانب الشيوخ تحفل القرية بالأعماح والأقارب ، والجيران ، فاهل البلد « قبائل » أي أسر وعشائر ولكن تجمعهم وحدة عضوية هي البسلد ، ويعرف الجميع بعضهم بعضا ، وخير ما يفعله الغرب كي يقبلوه عضوا منهم أن «يسرع بلواحه وقلمه في الأفراح والاتراح» فإذا اطمأنوا إليه أصبحت عشرتهم سهله ، وإن كان كبارهم لا يحبون أن تزوج قبيلة بناتها من غريب .

وفي البلد دائما نواة صلبة من الرجال ، يحملون كثيرا من المسئوليات ، وقد سمساهم الكاتب في عرس الزين بالعصابة ، أو بالأحرى هم سموا أنفسهم وهم أترب الراوى في موسم الهجرة الى الشمال حتى أن بعضهم يحمل أسماء بعض أفراد العصابة :

كان لكل واحد منهم حقل يزرعه ، في الغالب أكبر من حقول بقية الناس ، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم زوجة وأولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل أمر جليل يحل بالبلد كل عرس هم القائلون عليه ، كل ماتم هم الذين يرتبونه ويظمونه . يفسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله الى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويجلبون الماء ، وينزلون الميت في قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك في «الفرش» يستقبلون المعزين ، ويدبرون عليهم فئساجين القهوة المرة . اذا فاض النسل أو انهم سبيل ، فهم الذين يغفرون المجاري ، ويقسمون التروس ، ويظفون على الحي ليلا وفي أيديهم المصاييح ، يتفقدون أموال الناس ، ويحصدون التلغف الذى أحدثه الفيضان أو السيل . اذا قيل ان امرأة أو بنتا نظرت نظرة فاجرة الى أحد ، فهم الذين يكلّمونها وأحيانا يضربونها . لا يعينهم بشئ من يكون اذا علموا أن غربا حام حول الحى حول المنيب ، فهم الذين يوقفونه عند حده . اذا جاء الصدة لجمع العوائد فهم الذين يصعدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . . . والأآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعى ، فهم المتحمسون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسئولة عن كل شئ . . . (عرس الزين ص ٦٣ - ٦٤)

ومن مظاهر التنصّف في تفسير النصوص أن يذهب باحث الى أن العصابة تمثل الطبقة الوسطى في البلد ، وأن الزين بطل القصة خطر عليها (٤) وأن الكاتب يتنبأ بنهايتها ، ويطلق عليها كل ما يكتبه الاشتراكيون عن البورجوازية ! والواقع أن من يقرأ قصص الطيب صالح يعين محاسبة وذهن مفتوح يدرك أن الكاتب يكن لأفراد العصابة

وأمثالهم من الشخصيات التى تتكرر فى قصصه كل اعزاز وتقدير ، وأنهم فى نظره عصب الحياة فى عالم القرية هذا ، وأن نمط الوصول بالنسبة للذين يطل حسنه القصة يتلخص فى أنه بدأ أضحوكة ورجلا لا وزن له وانتهى فى آخر المطاف عضوا فى « العصابة » .

ان عنصر القوة والأصالة فى قصص الطيب صالح يرجع أساسا الى قوة خياله وعمق احساسه بعالم القرية الذى أنبته ، ولكنه يعتمد كذلك على بعده عن الكليشيهات والأنماط المحفوظة ، التى تفقد قيمة كثير من الادب الانسانى الحديث . ان ثراء محصوله اللغوى وقدراته التخيلية ، وعمق دلالة الصور عنده ، كل ذلك مازال يكرأ لم تفسده قوالب وأنماط معاده .

ان عالم القرية كما أسلفنا وحدة عضوية متماسكة وليس ما يهددها الاقطاع الكبير الذى الفناه فى كل ما يكتب عن الفلاح فى زماننا ، وإنما يهددها الموظفون بلا بسهم الطفلة ، والساعات الذهبية تلعب فى مصمم الواحد منهم ، بتشديق بالفاظ لا يفهمها القرويون ، وتهلدهم المدينة فى شكل نواب وساسة وأفاقين يقومون بالثورات باسمهم ، ثم يقيمون تحسرة وعمارة ، ويهرب الواحد منهم من حر أفريقيا فى الصيف الى حيث يجد «بحر» لوكارنو ، « وزوجته تشترى حاحاها من متجر جروند فى لندن ، تجيئها فى طيارة خاصة ! »

وقد تتكفل الحر الذى لا يطاق وأفواج الدياب ، الحشرات نامداد الموظفين رسل الحكومة عن القرية ، ولكن الى حين ، وهم لا يد آتون فى يوم قريب أو بعيد .

وتبدو أصالته كذلك فى تصوير الشخصيات ، ان الفلاح الفقير الذى يستولى الدائن على محصوله الوحيد عند الحصاد شخصية تعرفها جيدا فى أدنا وفر . حفة من تم ، « تطور حكمة القصة حول عملية الاستيلاء هذه ، فالدائنون يحتمون لشبهوا حصاد تمر مسعود ، تقوم اكياس التمر بدور اكياس القطن فى أدنا ، ويتجمع الخلق يشاركون فى الحصاد ولكن مسعودا صاحب المحصول يقف بعيدا كان الأمر لا يعنيه ، ويجمع التمر اكواما عالية ، ثم يكال ويصب فى اكياس يمد منها الطفل الراوى ثلاثين كيسا ، وتوزع الاكياس على الدائنين ، عشرة للتاجر وخمسة لكل دائن ويذوق كل منهم ثمرة أو تمرتين ، ولكن مسعودا يملأ راحته من التمر ويقربه من أنفه ويشمه طويلا ثم يعيده الى مكانه ،

(٤) انظر مختار ابراهيم هجوية ، القصة القصيرة وتطورها فى الادب السودانى الحديث ، رسالة ماجستير من جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم ١٩٥٠ ، ص ٣٠٣ .

هو الوحيد الذي لا ينفقه • ويحصل الدانئون
الأكياس، ويقف هو وحده صغر اليدين ، ويشعر
الطفل بالعطف نحوه فيمد يده كأنما يود أن
يلبس ثوبه فيسبسه (يخلط صوتا في حلقه مثل
شخير الحبل حين يذبح •

ويتعاطف القساري كما يتعاطف الطفل مع
شخصية مسعود ويشعر نحوه بالأسى ، مع أن
مسعودا ليس الفلاح المسكين المغلوب على أمره انه
على العكس من ذلك وارث ضيع ارثه ، فهو ينتسب
الى ذلك العدد الضغير من الورقة الحيتي الذين
تدفعهم في الف ليلة وليلة ، لقد ورث عن أبيه
حقلا واسما يمتد من طرف الصحراء الى حافة
النيل ونخلا وشجرا كل ذلك كان له حلالا باردًا
يقول الجند لحفيده :

« نعم يا بني • كانت كلها قبل اربعين عاما
ملكا لمسعود • ثلثناها الآن لي أنا • ولم
أكن أملك فدانا واحدا حين وطئت قدمي
هذا البلد • وكان مسعود يملك كل هذا
الخير • ولكن الحال انقلب الآن • وأطعنى
قبل أن يتوفاني الله ساشترى الثلث الباقي
أيضا •

ويذكر الطفل غناء مسعود وصوته الجميل .
فيشعر نحوه بالرتاء وهو به مصعب لصحته
التيوة - فالجسد الرهيب لا يضحك - ويرداد
عجبه عندما يعلم أن آفة مجرب التي صيغت
أرضه وماله كانت « النساء » فهو رجل مزواج ،
وفي كل مرة يدخل على زوجة جديدة يبيع تجاره
فدانا أو فداتين !

وبالرغم من كل الدروس التي تعلمتها من
قصة لافونتين عن النملة والصرصار الغنى • فأننا
لا نملك ألا أن نشعر بالتعاطف مع مسعود صاحب
« المزاج » والصوت الجميل والاحساس الرفيف بأن
للنملة قلبا يتألم كما يتألم الانسان •

ان تفرد الشخصيات وتعظيمها لكثير من
القوالب والأنماط الشائعة ظاهرة واضحة في عالم
هذا القصص ، ولعل من أسبابها أن التغير اذ
يصيب هذا العالم يؤثر في بعض جوانبه دون
البعض الآخر • ان حتمية التفسير ماثلة لا ريب
فيها ، فحتى ذلك التكلم المعجوز في « دومة واد
حامده » الذي يقص علينا خير الدخلاء على القرية
من موظفين ووعاظ وحكام ، وكيف عادوا ادراجهم
وقد تورمت وجوههم من لسع ذباب البقر وغيره
من العشرات ، حتى هذا المعجوز يعرف أن التغير
أت لا ريب فيه ، فقد هرب ابنه الى اليمن ودخل
المدرسة ويقول الرجل :

« حين يتخرج ابن ابني من المدرسة ويكثر
بيننا الفتيان غرباء الروح • فلعلنا حينئذ
نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي • • لعل
الباخرة حينئذ تقف عندنا • • تحت دومة
واد حامد •

ولكن قرى أخرى قبلت هذا التغير ، وبالذات
القرية التي تمثل عالم القصص • قد أرسلت
أبنائها الى البندر ليعلموا ، وذهب بعضهم في
النزوح الى الشمال حتى بلاد الصقيع • والباخرة
تقف على رصيف المحطة مرة في الاسبوع تأتي
بالتسازحين ، « والبلد يتغير في بطنه » ، راحت
السواقي ، وقامت على شفة النيل ظلمات لفسخ
الماء ، كل مكنة تؤدي عمل مائة ساقية •

ورجل درس في أوروبا علم أهل القرية أن
ينشئوا جمعية تعاونية ، ويطلبوا بمدرسة
ومستشفى وينظموا حسابات المشروع ، وكمره
التجار والعمدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد
عليهم أمرهم (ومن الطريف أن هذا الرجل الذي
أعاد البلد بكل هذا ليس بطلا ، لكنه قاتل
وانسان شقي)

ولكن هذا التغير في جوانب الحياة المادية
لم يمر من طبيعة العلاقات الاجتماعية في القرية
ولا من وضع المرأة فيها : « الرجل راجل وإن كان
بني زينة • والفره مره وإن كانت شجرة العد •

(عرس الزين ص ٥٨)
وليس مثل هذا الكلام قاصرا على الشخصيات
« الرجعية » في القصص ، بل ان شخصية « قيادية »
مثل محبوب في موسم الهجرة الى الشمال بتقد
نفس الشيء ويؤكد في رده على الراوي :

أنت تعرف نظام الحياة هنا • المرأة
للرجل • والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل
العمر • • الدنيا لم تتغير بالقدر الذي
تظنه • تغيرت أشياء • طلبات الماء بدل
السواقي • محاربت من حديد بدل محاربت
الخشب • اصبحنا نرسل بناتنا للمدارس •
راديوهات أوتومبيلات • تعلمنا شرب
الويسكي والبيرة بدل العرقى والمريسة •
لكن كل شيء كما كان • ص ٨٤

والتناقض بين أنماط العلاقات المتغيرة
والثابتة على حالها هو منشأ الحدث في كل من
عرس الزين وموسم الهجرة الى الشمال •

شر الطامعين في الزواج منها ، فستنكر الأم منها ذلك التصرف ولا تبلغ ابنها رجاء المرأة اليائسه ، وفي النهاية عندما يقتل الزوج الشيخ الذي حملت الي داره على رغبتها ، وتقتل نفسها يصبى الجميع على ذكراها ، ولولا الرافه بابيها وأهلها لآلقوا بجثتها للصقور في الصحراء ، تنهشها ، ولا يري لها الا ذلك النازح الذي قضى في أوروبا سبع سنوات فاضحي صورة جديده من مصطلفي سعيد ، زوجها الذي رحل ، ولكنه لم يملك القوة ولا العزم أن يرفع من أجلها يدا ، في مواجهة البلد وتقاليد القديمه وعلاقاته الاسريه والقبلية المشابكة في نسج من فولاذ .

وهكذا يعود بنا الحديث بدوره الى عصفور الجنوب ، طائر افريقيا النازح الى الشمال ، العائد الى بلده طافرا كان أو كسيرا ، وهو الآخر منفرد في نوعه مختلف عما ألفنا من أنماط فهو لا ينطوي تحت جناح محسن عصفور توفيق الحكيم ، بخجله واستغراقه في التأمل وارتيابه وضعفه أمام نساء باريس ، ولا تحت لواء عطيل بنيله ونقائه وسفاهته الفطرية وهو خسير تصوير للهمجي النبيل في أدب الغرب .

والواقع أن هذا البطل أو املا ... بطل الجديد في أدب العربي جدير ببحث مستقل ، فلم يكن هنا في هذا المجال الا التعريف ببعض جوانب ذلك العالم الآخر الذي قلعه الطيب صالح الى قراء القصة العربية ، عالم القرية العربية في السودان ، كاثري به لا تراثنا القصصي وحده ، بل وعينا المنفصل بأجزاء ذلك الوطن الكبير ، وطن اللغة العربية ، وأثار من المشاكل الفنية والتسكينية ما يستغفر النقاد الى عديد من الدراسات باذن الله .

والفتاة نعمة في القصة الاولى تذهب الى الكتاب وتعلم كما يتعلم اخوتها ، وتستقل برأيها وترفض خطابها ، وتفرض احترام رأيها على أبيها وأميها واخوتها ، وهي تنظر الى الزين 'بن عمها بعين تختلف عن عيون الآخرين ، وتختاره لنفسها زوجا فتذهب اليه وتقاتحه في الامم ، بل تكاد تأمره بالزواج منها ، فتكون دهشة أهل البلد ولغظهم الذي يكون عنصر الحركة في القصة ، وينتهي الحدث هنا بنهاية سعيدة لان الفتاة وان حققت ارادتها واختارت بنفسها زوجها ، لم تخرج كثيرا على نطاق الانماط المتعارف عليها لأن «المرء مرء ، والراجل راجل وهي على أي حال بنت عمه»

أما حسنة بنت محسود في موسم الهجرة فصورة أخرى من نمط ولكن نهايتها فاجمة لأنها تصطدم بتقاليد القرية التي لم تتغير مع أنها هي تغيرت ، ومع أن في القرية رجالا تفسروا ولكن لا حول لهم ازاء أنماط العلاقات في البلد . أنها منذ طفولتها مختلفة عن آتريها : « طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الاولاد ... كانت وهي فتاة تسبح معنا عارية في النهر »

وتتغير حقا عندما تتزوج من مصطلفي ، النازح الذي عاد من رحلته الى بلاد الشمال بجناح مكسور وقلب دام ، انها تتغير وتصبح مثل نسبه المبدع وترفض بعد موت زوجها أن تقبل الزواج من غيره وبالرغم من استقلالها اقتصاديا إذ تراثها زوجها حرة التصرف في ماله ، بالرغم من ذلك فإن ابائها واخوتها يفرضون عليها زوجا ناهز السبعين ، وهي تهدد أن تقتله وتقتل نفسها فلا يحفل احد بوعيدها ، وتذهب بنفسها الى أم الراوي ، الوصي على ابنائها ، وتطلب اليها أن تبعث الى ابنها ترجوه أن يعقد عليها ويتركها في بيتها كي يقيها



كانت « تاتوتي » حادا جدا . وكانت « بابوي »
حوة حافية ، وكوة غاوية .

واختلط عليه اللين ، فأحس بحموضة الحليط
تكشط لسانه حتى جعلته لا يحلو له الطعم ، ولا
يستسيغ اللوق . وشيئا فشيئا استحال لسانه
جلطة حرشاء يابسة ، فكان عليه أن يغير
لسانه .

تذكر أن أمه شتمته ذات مرة بأن لسانه
لسان كلب . . .

ومن يومها التصقت عيناه بالسنة الكلاب حين
تسبح ، والسنتها حين تلهث ، والسنتها حين
تتلهى بعد أن تفرغ من مشاش ، أو عندما
يسجل لهاها أمام حلقه الأكلين ، أو قصعة
« الموسم » .

لماذا كان الوشام على مساعد أمي يشبه
لسان الكلب ؟

لكنه عندما أصبح « يدرك » بعد أن وجهوه إلى
« الإدراك » حاول أن يقارن بين السنة الكلاب
وبين الوشام الذي « يزين » مساعد أمه .

« .. أمشاج ! .. أحابيش ! .. هم أيضا
قدموا من الخارج .. لا .. انهم محراث مطيع
.. لكنه يحرن أحيانا .. لقد اشتبه على الدخيل
فالتأت .. حاول طمس الحقيقة .. أن يطوى
المراسل .. أن يشوه .. أن يتغلب على وثاقاة
المزرعة .. ومن يدري ؟ .. فلمله كان على « حق »
.. لعل الإسلام أتباعه »

« .. أمي بقره حلوب .. أرشعت اخوتي
.. يغلت على ، على أنا .. لم يصجيني وشامها
.. كانت تقري به الفرسان من شيباب «الدوار»
وصعاليك « الدشرة » .. أبي نفسه غره الوشام
.. اتنى قلبه لذلك الرسم .. لماذا ربطت أمي
بين وشامها وبين لسانى ولسان الكلب ؟ »

بلى خُفضْ

بقلم : محمد العروسي المطوي

« البأبأة » • وجرب حظّه مع « البركة » فنصنع
السباحة والقفز ، والطفو ، والرسوب •

وتلف له من السلحفاة لسانها !

« هذا لسان آخر لم أعرفه من قبل •• لو
أخذت منه قطعة ورقمت بها لسانى ! •• بالتأكيد
سأكون شيئا آخر •• شيئا سيقا أو حميدا ••
رخوا أو يابساً •• أليس « البأبأة » تقتضى
التكرار والجحود لمن أراد لها حذقا؟ •• ليست
مدعاة التقليد ومهوى الانسلاخ ؟ •• »

وخرج من عمق الماء ليجد الطحلب يسبح
عليه السطح ، يعلو صفحة « البركة » وأحس
بضيق نفسه ففتح فيه ليعب هواء فكانت صفحة
الطحلب التصاقا بلسانه ، ودعانا على لهاته •

وغاص يبحث عن السلحفاة ، فلوحته اليه
بلسان لزج •

« •• بى خفض •• أنا منك ، وطوح امرك »

وعانقته يحنوها الشوق الى المسخ والتحلل
ولم يكن منه الا أن استسلم •

« •• ابنة عمى فى « الدشرة » كفها خشنة
عقها مغلقة •• جلدتها « قرداش » •• وأنت
يا أمى ! لا •• أفرج بالشيطان •• ان جلدتك
حرشاه •• ان « الفلج » حرشاه •• انك لست فى
رطوبة الطحلب •• انك لست فى لزوجته ••
انظر يا صالح ! يا حالى مسعودة ! •• يا دادا
ربح •• »

وأنت أمه تحمل قدح اللبن ، محصول النعجتين
فى أول صيف أغبر كاد يأكل النعاج ويقضى على
المعزات •

وقرب القدح من فيه فكاد يقشاه دوار • كانت
رائحة الاكليل والسمتر تبدو له • زمن سذاجته -
عقب الطيب ، وشذى الورد • فما بالها اليوم
تبدو له فى تنونة الحرمل و « الدرياس » •

وأعاد القدح ، وغشيان غريب يزىخ بصره •
وتأفف عنجهية وتكبرا • وكاد يجبر بالعنة
لكنه تذكر •• تذكر أن لسانه أصبح غربة ••
أن كلامه أصبح رطانة •• أن ذوقه أصبح طحلبا
ومتلت أمامه السلحفاة ، وانتشر الطحلب ، وتلوى
« التهر » ، فاهتز ، واصفر لونه •

انه لم يعد من أهل « الدشرة » •• أنكر
القرية والناس !



حين دفعته أمه الى معلم القرية كان لسان
المعلم أمرا آخر •

« بابوى » هى الككل •• انها ولدت الشمس
•• انها بنت النهر •• انها الحظن الحانى •

« بابوى » لها سحر ! •• هذا اللسان
الذى يلفظها لا بد أن به سحرا ، فتنه ،
اغراء

وحاول أن يقلد •• حاول أن يحرك فكاه الاعلى
عندما حرك فكاه الأسفل كان نتاجه « تاتوى »
وعند ما حرك فكاه الاعلى كان نتاجه « بابوى »
« بانصوب - برفع - بى خفض » •

وأخذ يلوك درسه • وأغراء المقطم الاخير • بى
خفض • فالتصق بلسانه •

خيل اليه أن فى « بى خفض » تكمن العبقرية
والسر ، والمظلمة ! •

« •• لكنى لا أستطيع لذلك نطقا ! •• »
وروى لسانه مرات ومرات • وحاول أن يعيد

وانداح بصره على الريف الكالج والهضاب
الجرداء مازدادت به الغربة ، وغمره الانفراد
والضيق .

انه لم يعد من أهل « الدشرة » .. أنكر الاهل
والعشيرة .

ومد رجله متثاقلا فهزته سمارة جرد
الحصير فأحس أن جلده انفرز ابرا ودبابيس .

انه لم يعد من هذه التربة التي لامست جلده
ذات عهد اعتبره بترا من وجوده .

وفي سوق « الدشرة » انهالت عليه القبل من
شوك اللحي ، وقتاد الثواب ، فتحمل على
مضض ، وسكت مغلوبا عليه .

واصمت اذنيه كلمات التساؤل والالطاف
و « الوشحة » فخيّل اليه أنه متكلم بين عجماءات
وخيل اليه أن في مكانه أن يهرب ، أن يفر
من مجمع العجماءات هذا .. لكن حلدته أبت
عليه . انه لا يستطيع التكر .. أن أثر الوشام
يعلو جبينه ، فكيف يتخلص منه ؟ . لقد حاول
ذلك مرة فزلزلت جبهته ، ونفل جرحه ، ومكث
اسبوعا كاملا في غرفته بالحى الجامى يتسكّر
همه ، ويش يومه ، ثم ألقى يابيا واستسلما
ولكنه تذكّر أن « رلعه » لم يكن لها أن في
نفسه منذ أن مر عليها لسان السلخانة (الرجح) فبسا
لبنا نؤيدا ، فأصبح من خطتها يحصد تلك
« الزلعة » . واستبطنها عنده دون أن يتكرها
تماما مثلما استكان الى « حروشه » لسانه .

وماتدت به ساحة « الدشرة » الى دكان الشيخ
على ، عدل القرية ، فوقع بصره على معلمه الاول
في « البايّة » . وحسب أنه وجد ضالته ، وأن
غريته ستقلص شيئا ما . وانطلق يرتطن كمن
أفلت من قيده ، وإذا معلمه الاول يتكره كمن
أنكره الآخرون .

كانت كلمة معلمه الاول :

« مرحبا يا ابني .. سمعت بك القرية ..
لكنني لم أترك لهذا .. أسفى على عرق عقيم ،
وجهد ضائع ... »

ورجع ادراجه يتكر معلمه الاول كما أنكره :

« انه - اذن - لم يفلح .. انه النشاز ..
تستت تربية لا تغير المألوف ، ولا تدفع الى جديد
ولو الى البتر ، ولا تتلق أصالة ولو من فراخ »

وتاه به المسرب الى خسارج « الدشرة » وإذا
الصخرة المعجوز ما تزال كما يهد :

« عيه ! .. انها ما تزال كما هي ! .. موت
مستمر .. جمود متواصل ! .. كم جلست عليك
لأعيد « باباتي » الأولى .. لكنني تغيرت ..
أصبحت شيئا آخر .. أنت أيضا لا تفهمين
رطائني .. تماما مثل أبى وأمى ومعلمى الاول
.. هذا لا يسكن .. لا يطلق .. لا بد من عمل
- اذن - حتى تزول الغربة .. الغربة ! ..
غربة من ؟ ! .. لأعلم النماذج .. نماذج من
النمط الآخر ، لسانها أحرش ، لهاها حرشاء ..
وتراعت له السلخانة في حافة المستنقع
الأسمن ، فارتاعت فرائصه ، وتراجع .

« .. لا .. لا .. لسانها لزج ، يطول الطحلب
.. لهاها من طين ، رضاها مرجين »

وقهقه عاليا :

« يا للروعة ! .. انه الشعر .. انه النمط
المفقود .. وجدتها ! .. وجدتها ! .. »

وفوق الصخرة المعجوز اهتدى الى فلسفة
الحلق وسنة التكوين .

وعلى حرد الحصيرة انتابت اغفامة ، وإذا هو
علمان بين جملان ، فصاح في « ملكته » وبين
« رعاياه » .

« .. أيها .. أيها الرعية .. لأعلمن منكم
خنافس الطليعة .. لتكونن خلقا آخر ...
وليصبح ديدة وطيشا .. ويومها ! .. يومها
أجد الفاهم اللبيب .. الفاهم الذى أفهم ،
والمفهوم الذى أنا فاهم . »

ومد أصفر الجعلان بجناح اعرج ، وقال
للصق :

« انا على السمع والطاعة .. ولكن لنا شرط
واحد .

فانتفضت أوداج « العملاق » زهوا ، وقال :

« وما هو شرطك ، يا زينة الجعلان . »

فأجابها الجمل الصغير :

« ألا تقربنا من الورد . »

قال « العملاق » :

« صدقت .. انك تنطق بالحكمة .. لكنني
أخشى أن تكون تصدر عن رجمة .. عن كلمة
قيلت .. أن ربح الورد تؤذى بالجمل .. ولكن
اسمعوا ، أيها الأبطال المنتظرون .. رغم ذلك
ورغم كل شيء فانا ماض الى خلق آخر .. »

الشيخ جمعه

يقام : رابع بونار

الموسم كأنه جثمان فني لا يتجاوز الثلاثين ١

يوم يلحن يساوره انشك باق عهد شيا به قد
فات دور لا يغتا يستعيل الخراء بل صباح مصوبا
ومصعب في ملاحظه غيته ، واستسجام شواربه
واستعامة عيافته ، ونطافه تيا به وليف يتيسر به
ان يفعل عن الاحتفال بهندامه ، وهو مخطط انصار
أهل القرية جميعا ، وقد أتى على نفسه أن لا يخرج
من منزله صناعا يغني يكون مظهره عقلة الانظار،
لحية مقسوسة مشبوبة ، وشارب مجلي مقوس،
وعمامة بيضاء مكورة بنظام على رأسه ، وقميص
أبيض فضفاض وتعل رفيع خفيف ، وهما موقوفه
بداعيها أصابعه ٢

ولكنه في هذا اليوم يبدو مرعب الوجه ، منقوش
الشعر ٣

وكيف يتأني له أن يرين نفسه وقد واصل
ليله بتهاره في توديع المرحوم الى مقره الأخير ؟
أكثر الشيخ جمعه من الدوران ، ولم يستطع
البقاء ازاء حجرة المتوفي ليساعد الفاسلين كما
جرت عادة من قبله ، وكيف يصير الشيخ على
الوقوف بالحجرة في أمواج الروائح الكريهة التي
تنبعث منها ، وكيف يصتبر عن الفرار من الحجرة
ان لم يجد علة مقبولة تبيح تخلفه ؟ ... أهل
على الفاسلين وقد كاد يقش عليه ثم صاح في
وجوههم عجلوا ، ان من السنة الاسراع في غسل
الميت ودفنه ٤

— لقد علمنا جهد المستطاع يا شيخ ! وسوف
نتم غسله بعد قليل ٥

— عجلوا واذكروا الله عند الغسل وتناسوا
مشاغل الدنيا ، وعاد الى سبحته واستند الى
الجدار القريب ٦

— كلامك طيب وسديد ٧ اجابه وعنى شعبان

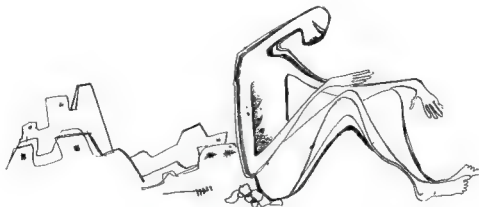
أف من هذه المهنة التي تجهد فكري ، وتحطم
أعصابي ، قال ذلك يزفرة حارة ، ونفس متقطع،
واخذ يدرج ساحة المنزل جيئة وذهوبا ، ويلتفت
يمينا وشمالا ، وفي العينة بعد العينة يحل في
الحجرة الدانية منه ليرى ميلج نشاط الم شيمان
في غسل العقيد المتوفي وكانت الحجرات المصاغة
لها تملج بحركة غير عادية في هذا اليوم ٨

هناك صبيان وصبايا يتصايحون ونساء يتكلمن
ويتأوهن على وفاة العزيز الفقيد : (عنى الجسمي ،
كان الشيخ يسير في الساحة بغير انقطاع فآثر
الاجهاد والسهر تيسر عليه ، وأمارات الضجر
والقلق تخترم اوصاله ٩

انه بات ليله كاملة يقرأ القرآن ، ويدعو
للمرحوم بالفقران وحسن التوبة ، ولم يكن ينني
عن القراءة هو وطاعة من رملانه طلبة القرية طول
الليل الا حينما تقدم اليهم القهوة والشاي وبعض
المطبات ليتناولوها ، ويستمتعون بها على طرد
الحمول والنوم عن أجفانهم ، أو حينما يتقدم عني
شعبان لانشاد أماديحه ، وتحزين القلوب بعبثاته.
في ذكر الموت وتصوير احوال العبر ، وضروب
ما يتلقاه المؤمنون من ميراث وحسن مجازاة ١٠

كان الشيخ جمعه في هذه القرية ناجحا كل
النجاح ، مبعلا من أهاليها جميعا وكان مرجعهم
في خلافاتهم ، وامامهم في صلواتهم وكان الى
ذلك كله واعظا مؤذنا ، ومشيع جنازات ، وهل
يسمه أن يتخلف عن دعوة أحدهم ؟ ان جراته
السنوية تتوقف على كل فرد من أهاليها ، فليكن
الشيخ مرنا مطوعا ، وليلب رغائب الجميع ١١

كان الشيخ جمعه يتأخر الحسنين من عمره ،
ربعة أسمر اللون كث اللحية ، وقد علت نوديه
بعض شمرات بيض كندير شؤم وادبار ، رغم أن
عضلاته مازالت مفتولة ورغم أن جثمانه يبدو لعين



بحمد الله في السرقة ، ونعود دائما غانمين سالمين ،
أواه أواه على تلك الأيام ، لقد مضت ومضى أهلها
الأخيار .

— نعم يا عمي شعبان • ان ذلك الزمان لا يمكن
ان يعود •

— هل تذكرون يا سادة يوم ذهبنا انا والمرحوم
وعمي مسعود بسنة يقال وملانها من ثمار مسيو
دجال • ولما عدنا الى القرية اعترضنا كثير من
حزاسي البياض فاعطيناهم واشركناهم في غنائمنا ،
اليس ذلك نهاية التسامح والاشترابية ؟ ورفع
رأسه باعجاب ، وتطلع بمنة ويسرة ، والزهو
يهر نفسه هزا وهتف فيهم ابدوا رأيكم • فقال
الجميع : لا يجازيكم أحد في أعمالكم هذه ؟ ان
الطيبين لا يصدر منهم الا الطيب وكان الشيخ
جميع قد اقترب من الباب بعد أن زم أنفه وتسرب
الى سمعه ما يخوض فيه عمي شعبان فاجال نظره
فيهم ثم صاح :

— لا شك ان شيطاننا ينطق عن لسانك في
هذا اليوم يا عمي شعبان ؟ لغرض عما فات من
الذنوب واستقبل هذا اليوم بالذكر الحميد ،
عجل اسرع •

— ان التشديد في الدين مذموم ؟ ، ونحن
نذكر ذنوبنا ، ونستغفر منها لتغفر لنا ،
حلا تفضلت يا شيخ لترشدنا ؟ فهمس الشيخ
غاضبا :

يا له من خبيث مكر ، لقد صدعنا بثقله ،
وارهق المرحوم بهذيانه انني اعاني برحاه من
ثقله ، وابتمد قليلا ثم صاح اعذرني يا عمي شعبان ،
فاني مريض ومزكوم بأشد زكام ، وسمع صراخ
الصبيان والصبايا وبكاء النساء في الحجرات
المصاغبة فهروا اليهم ليسكتهم ويسليهم رقال

وهو يهوى يديه على جثمان الميت في حركات
متوالية ، وكانت الستون سنة التي جاوزها لم
تؤثر في عضلاته وقواه وحينما يشعر بالتعب
يزعق في وجوه أعوانه : ناولوني الصابون أعدوا
صنيبا من المطور احضروا الكفن ، وكان الروائح
التي تعكر الهواء في الحجرة ولا تفتت تداعب
حسامه ومسام أصدقائه لا تمنعهم في شيء وای
ضير عليهم في مثل ذلك • وقد تخذلت جوارهم
الشمسية ، حتى أصبحت كأنها عديمة الالهام
وكان عمي شعبان يربط لسانه بذكر الله في بعض
الفترات ، ولكنه وهو امام زميل صباه كيف ينسى
ذكرياته معه في مختلف الجهات ؟ حدث في وجوه
أعوانه والأسي يعلو صباه ، والذهن قد خرد به
الى أعماق الماضي ثم صاح بتنهيد :

ان أنسى يا اخواني فلا أنسى ما وقع لي مع
المرحوم في (متيجة) أيام كان الفقر يكسونا
جميعا ، أذكر يا سادة ان المرحوم قد ذهب بنا
الى المعمر « جاك » في نواحي المفرون فعملنا عنده
أياما عديدة ، وكنا نتحين غلاته ونسرق عنبه
لنبعده للسابلة ، أو لاهالي الدائنين منا •

— نذكر ذلك يا عمي شعبان وقد وقع لكل واحد
منا مثله ، يا لها من ذكريات حلوة لا يمكن أن
تعود ! واسترسل عمي شعبان في حديثه :

اننا كنا نفرض جميع أمورنا الى المرحوم
لمهارته ، وحسن حيلته مع الكافر أواه أواه على
تلك الأيام ، ونظر الى رجله وضربها بيده فزورق
العينين صائحا : يالك من رجل لطيفة طاملا مشيت
يجانب رجله هذه في قطع هذا الوادي الذي ترويه
صباح مساء •• في الليالي الخالكة لسرقة عنب
ذلك المعمر البقيض السيد « روجير » ، وكنا نتجس

مطاطي الرأس، خفيض الطرف، أصبروا وفوضوا أمركم إلى الله سبحانه، فإنه يجبر المصابين، ويدأى المكلوبين، أن المرحوم عزيز علينا جميعا رحمه الله ولكن أي انسان يبقى في هذه الحياة؟ استعصوا عن العقيد برجة الله ولطفه... وعاد مهرولا وهو يسبح ويحمد الله، وينتظر لحظة التشيع بشوق لافح... وكم كان يستلج في نفسه من غيظ على القاسل المتناقل الذي ربطه بجبال من حديد، إلى هذا الجو الخانق.

استند قليلا إلى الجدار وهو يهيس بكلمات مبهمه، وعيناها نظرفان لداعية الناس لهما، وأدناه تتحسسان حركات الفاسلين والمارة بجانب المنزل في الطريق، وأغفى اغفاسه خفيفة ثم استيقظ فوجد عسى شعبان مازال في دورانه لم يتم تكفين المرحوم فصاح في وجهه: إلى متى يبقى هنا؟ إن الوقت لا ينتظرنا يا عسى شعبان، أرقدت أم ماذا أصابك؟

— إن الإسراع مطلوب في كل شيء.

— أجل كما أن الاتفاق مطلوب مما في كل شيء، والمرحوم يستحق منا أكثر من هذا باسمه الله وتقدمه بفضل له ولطفه.

— لقد استرحمنا له مرات عديدة وأهف الشيخ أذنيه فسمع طلقات نارية آتية من بعيد فقال على أثرها: يا سادة إن هذه طلقات نارية تتبعها تحركات الجيش من المركز هنا، وسنقف تحت طائلة اعتانهم إن بقينا في هذا الدوران احدروا.

— لا خوف يا شيخ اننا في عمل انساني لاشبهة فيه وهل خرجنا من الغاية مدججين بالسلاح حتى يشك لنا؟ هذه أوهام وخيالات جبناه!

فزم الشيخ جمعه شفتيه، ووضع يده على انفه وفر هاربا من ألياب مزمزا يخفوت: أخاك الله يا ثقل، اننا سنتحل منك اليوم أكثر من أيام الموت وانني أرى أن نذر الشر تحوم حولنا في هذا اليوم، لا حول ولا قوة الا بالله وعاد إلى سبجته واستند إلى الجدار في انتظار نهاية عسى شعبان، وكانت الوسواس تراود ذهن الشيخ، واللوان من صور العقاب تتراعى أمام عينيه لنتائج هذا الحادث وطوحت به الخيلة إلى أيام العذاب التي قاساها في المعتقل وفي مركز الجيش، انه

يستدكر جيدا صور التعذيب بالكهرباء، والفطس في أحواض الماء، ويتذكر ضروب الكثاف للرجلين واليدين، وجلد السياط وركل الأقدام وغيرها من وسائل تدمير الشخصية، فلهلج لذلك اتسد الهلع وتلبد بالجدار قليلا، وأفزعتة جليلة وحركات سريعة في الطريق، فخطا على أصابعه بخفة، وعسى في أذن الفاسلج: حذار من الحديث، أو اثارة الضجيج فإن الجنود قد مروا بنا ولعلمهم يريدون تلويقنا، كونوا على احتراش، ودلف بحذر إلى العجرات الأخرى وعسى في صفوف النساء والصبيان أن اسسكنوا فإن الجنود في حركات مريبة حولنا.

وعاد إلى مقره بالجدار، ورفع عينيه إلى السماء كأنه يدعو، وكانت الحرارة شديدة والعرق يتنزي من جسمه، والسحب القليلة المتقطعة تذهب وتزوب ناشرة ظلالا كالماء، تهنر الفم، وتضيي الكاذبة، وتقدم هذه المرة زاعقا بقوة: إن لم تسرعوا في تجميع المرحوم أدبرت عنكم وتركتم وحكم تنخطلون في تيه.

— لقد اتفهمنا من الفصل والكفن، وما بقي الا أن نقبر الجنيران ليعملوا المرحوم إلى مقره الأصغر....

واطلق الشيخ جمعة وهو يحلق في كل جهة حتى يتقن كل معنود، ينادي فلان أقبل وأخير كل الجنيران بأوان التشييع، هيا بادروا بإسادة.

وعاد إلى الميت وحضر إخراجهم من منزله، وأشار إلى الحاضرين أن يخرجوا بتزودة ويشرعوا في ذكر لا اله الا الله وقراءة البردة وأوصى النساء وأفراد العائلة بحسن التسليم، وعدم الاكثار من البكاء، وتسامح الجنيران، فأقبلوا مشيعين يتزاحمون على حمل نعش المرحوم، وتقدم الشيخ ورفاقه من النعش وهم يتلون البردة وكان الشيخ غير متحمس لقراءتها في هذا اليوم، كما دته، فكان يخفض صوته حتى لا تترامى أصداؤه إلى جهات بعيدة، انه يخاف به ما استطاع، ويلوح مرة بعد أخرى إلى زميله المداح بخفض الصوت، وإيثار جانب السمكوت، ولكن عسى شعبان لم يكن يابه لتحذيره، وكان يتخاشم، ويحرك شديقه في المديح ويبيب بالرفاق أن يماضوه، ولم يسع الشيخ جمعة الا أن يكظم غيظه ويبلغ ريقه، وأن يحتسب يومه بجانب عسى شعبان،

موتانا وواس أهله بالصبر والسلوان ، واغفر لنا
جميعاً يا مولانا وأخيراً يا سادة :

الحمد لله الذي أنجانا من هؤلاء الجنود بعد
الحادث الذي سمعتم وقع طلقاته النارية ، الحمد
لله ! إن من كانت النية الحالصة رائدة في أعماله
فلا بد أن يكون مستورا محفوظا ، وهول هو
والجماعة ليخرجوا من أشجار المقبرة مطمئنين
وما انتعدوا قليلا عن المقابر الأولى حتى فوجئوا
بصغوف متراسة من الجند وهم يصيحون في
وجوههم بأصوات مزعجة : ارفعوا أيديكم ،
وسيروا أمامنا ، فإن الفلاقة قد اندست في صفوفكم
أو كنتم متواطئين معهم ، واستسلم الشيخ وهو
مبهوت ومضطرب وقال : لتكن مشيئة الله •

ووصل النعش الى المقبرة وأقيمت الصلاة عليه
وأخذ اللاحدون يهيلون التراب على جثمانه ، وطلق
الشيخ يتلو سورا من القرآن بمعونة زمرة من
طلبة القرية وشاركهم عمى شعبان الذي كان يحفظ
الآيات التي تنلى على الموتى . رغم أميته ، لطول
سماعها وكثرة تكرارها •

وانتهى الدافنون من عملهم وتأهب المشيعون
للعودة الى منازلهم وهم خاشعون من مثل هذا
الموقف الرهيب ، وانتصب الشيخ جمعة وبازاته
عمى شعبان وباقي الطلبة ، وأقبل اليهم أخو المتوفى
في خفة ودس في جيب كل واحد منهم كمشة
من النقود ، فتهللت وجوههم ، وافترت نفوسهم ،
ورفع الشيخ جمعة يديه الى السماء وهو يقول
بصوت حزين : اللهم اغفر للمرحوم واغفر لجميع

(عدد خاص)

الفنون التشكيلية

في

البلاد العربية

تعد « المجلة » لأصدار عدد خاص بالفنون التشكيلية
في البلاد العربية ، وهي ترحب بنشر ما يصلها من صور
ودراسات تعرض لوضع الفنون التشكيلية في كل قطر عربي ،
وتحدد ملامحها واتجاهاتها وأهم مدارسها وأبرز روادها •

القصة القصيرة الجزائرية بعد الاستقلال

بقلم: عبد الله ركيبي

والجندي الذي فر من الجيش الفرنسي ليلتحق بالتوار كما أنها اتجهت إلى الإنسان العادي بطل القصة الواقعية الذي يعرف الخوف ويصارعها ويتغلب عليه .. الإنسان الذي يفرح ويحزن ويتالم ويشقى ويحب ويكره ، وليس البطل النادر الحارق للعادة الذي كثيرا ما عرفناه في أشكال القصة قبل الثورة . كما أصبح التفكير الجماعي ولروح الجماعة إبان الثورة سمة بارزة في القصة القصيرة ، واتسم مضمونها بروح التضال بالإنسان وبانتصاره على الظروف والقوى الاستعمارية التي كانت تواجه الشعب الجزائري .

ومثلا تطورت القصة في الموضوع والمضمون تطورت في الشكل والأسلوب فظهرت فيها أشكال جديدة مثل شكل الرسالة وطريقة « تيار الوعي » والإضافة إلى الشكل المادي لكتابة القصة من سرد وحوار .. وظهر فيها الرمز المباشر وغير المباشر واتضح فيها سمات القصة القصيرة الفنية من تعبير عن موقف معين في تركيز وإيجاز وعناية خاصة بالعناصر الأخرى من رسم الشخصية والحوار واللغة وتطور الحادثة وغير ذلك ..

بعد هذه المقدمة التي كان لا بد منها يأتي سؤال : هل تطورت القصة القصيرة الجزائرية بعد الاستقلال ؟؟

الواقع أن القصة القصيرة بعد الاستقلال قد أصابها شيء من الركود لظروف المجتمع وظروف الكتاب أيضا - فالذوايق لكتابة القصة أثناء الثورة كانت قوية ، ذلك أن الحماس والتعاطف مع الثورة وشجاعة وروح النضال دفع بالكتاب للتعبير عن نماذج مختلفة من أفراد الشعب ، بينما نجد بعض هؤلاء الكتاب الآن قد قل إنتاجهم أو كاد يتوقف وبعضهم استغرقته أعمال أخرى بعيدة ، عن ميدان القصة . أضف إلى هذا ظروف المجتمع الذي أخذ يتحول بعد الاستقلال من مرحلة الاضطراب والفوران إلى مرحلة الاستقرار المادي والفكري .

لا بد من التعرض - ولو بدون إفاضة - للقصة القصيرة في الجزائر أثناء الثورة، لنذكر الفرق بين تلك المرحلة ومرحلة بعد الاستقلال .

والملاحظة العامة التي نسجيلها على القصة أثناء الثورة ، هي أنها إذا ازدهرت وتنوعت أشكالها وأساليبها كما تنوعت موضوعاتها ومضامينها .. فمع الثورة التحريرية كان ميلاد القصة القصيرة الجزائرية بمفهومها المعنى السليم ، وذلك بتجاوزها للموضوعات القديمة « المستهلكة » التي ظهرت في المراحل السابقة عليها إلى مضامين جديدة ارتفعت بالقصة إلى مستوى لم ترق إليه من قبل .. ذلك أن الذوايق الثورية الجديدة قد فرضت نفسها على الكتاب فاتجهوا إلى تصوير واقعنا تصويرا قنيا صادقا بأسلوب مقنع مبرر بعد أن كان الأمر لا يعدو أن يكون نقلا وتسجيلا له بطريقة فوتوغرافية ، وأصبح هدفهم صياغة هذا الواقع في صورة جديدة تعكس لنا أحاسيس الفنان به وأثره في أعماق النفس الإنسانية .

وبهذا دخلت القصة مرحلة جديدة هي أهم مراحلها ، وأعنى بها مرحلة الواقعية الفنية التي تهتم بالإنسان وتعنى به وتعالج مشاكله وقضاياها وتصور تضالته وصراعه ضد القوى التي تحاول قهره وسلب حريته . وقد فعلت هذا كله في تلقائيه وبساطة وبلا افتعال أو تكلف في كثير من الأحيان .

يتجلى ذلك فيما عالجته من موضوعات جديدة كل الجدة تدور حول الثورة والحرب وأثارها على الفرد والجماعة ، حول الاغتراب والهجرة إلى خارج الوطن .. كذلك صورت القصة الفلاح البسيط الذي يكافح ليسترد الأرض التي سلبت منه والمرأة التي خرجت من عزلتها لتشارك في النضال

(*) هذا المقال يتناول القصة الجزائرية باللغة العربية لا بالفرنسية .

على أن هناك جيلا جديدا من الشبان ظهر بعد الاستقلال يحاول أن يكتب القصة ولكن دوره لم يتضح بعد إذ هو في طور التجريب ، فمحاولته اليوم لا تعدو أن تكون تقليدا للموضوعات والأساليب السابقة ودوافع هذا الجيل الجديد تختلف من فرد إلى آخر ، فمنهم من يمارس القصة بشيء قليل من الوعي الفني لكتابتها ، فهو يملك الموهبة ولكنه لم ينضج في أساليبه وتجاربه في الفن والحياة مما ٠٠ وفريق آخر يكتب القصة بدوافع غير فنية ويغير فهم أو وعي أو بتعبير آخر يفقد الأصالة ٠٠٠ ومن ثمة نشاهد في القصة الجزائرية اليوم خليطا من القصص لا ملامح لها أو سمات تدل على اتجاه أو اتجاهات واضحة . وهذه الذبذبة بين أساليب مختلفة لا تغطي طائفا خاصا للقصة في مرحلة ما بعد الاستقلال ، إلى جانب أن كثيرا من كتاب الجيل الجديد لم ينشر سوى قصة أو قصتين على الأكثر .

هذه الظاهرة منشؤها ضعف النقد وندرته والحساسية المفرطة منه ، وأن البعض الذي ينقد أو يوجه فيما يتصل بالقصة على الخصوص ليست له صلة بهذا الفن ، ولهذا فالكتاب معذرون أن لم يتطوروا في انتاجهم القصصى ٠٠ ولعل هذا ما يفسر هذا الركود من جهة ، وقلة النماذج الجيدة من جهة ثانية ، والدوران حول الموضوعات القديمة الجاهزة التي سبق للقصة أن عالجتها في مراحل مختلفة ، من جهة ثالثة ٠٠ كما يفسر أيضا معالجة بعض الشبان المجدد في قصصهم للثورة دون معاشرة لها نفسيا أو واقعا ، إذ أن الكثير من هؤلاء الشبان كانوا - عندما قامت الثورة - صفارا لا يدركون أحداثها بفهم وبوعي ولم ينصهروا فيها . ومن ثمة نجد ذلك الحساس الذي يطفى على أساليبهم وتلك الرؤيا التي قد نعت فيها على تناقض بين المضمون والشكل ، وهي رؤيا سطحية للثورة لا تكشف عن أبعادها بقدر ما تتحدث عن حوادثها المادية الخارجية .

ولو أردنا أن نصنف الموضوعات التي دارت حولها القصة الجزائرية بعد الاستقلال لوجدنا أن معظمها عن الثورة وما يتصل بها من حديث عن الهجرة خارج الوطن أو آثار الاستعمار ٠٠ ثم التقاليد والمادات وما يتصل بهما من تصوير لعلاقة الرجل بالمرأة ، وأخيرا تصوير الواقع الجديد بعد الاستقلال ، وهناك البعض القليل الذي تعرض لقضية فلسطين وما يتصل بها .

مظم القصص في هذه المرحلة تتحدث عن النضال ، عن نماذج شاركت فيها ، عن معطياتها المادية والروحية ، عن ظروفها المختلفة . ويكون شبح قان استمرار الكتابة عن الثورة يرجع إلى حماس الكاتب لها وإلى أن هذا الحماس يتجدد يوما بعد يوم بإعطاء أن الثورة هي التي حورت الفرد والمجتمع من العبودية والاستغلال الاستعماري ، فهي محور الجذب للكاتب والقارئ معا ، ولهذا امتدت موضوعاتها إلى ما بعد الاستقلال . فالمجوعات القصصية التي صدرت بعد الاستقلال أغلب موضوعاتها ومطاميرها وشخصياتها يدور حول الثورة مثل « بحيرة الزيتون (١) » ، « لابي العيد دودو » ، « الرصيف النائم (٢) » ، « لزهور ونيسى » ، « دقت الساعة (٣) » ، « للنبي فضلا » ، « طينات (٤) » ، « للطاهر وطار ٠٠ وكذلك الانتاج الذي نشر في المرائد والمجلات الجزائرية لهؤلاء وغيرهم ينتمي في معظمه إلى أحداث الثورة وما يتصل بها من قريب أو بعيد .

ومن الصعب أن نتعرض في مقال كهذا إلى كل هذا الانتاج القصصى وإنما سنكتفى ببعض الأمثلة والنماذج التي تعطي فكرة عن مسار القصة الجزائرية في واقعها الراهن :

ان كل قصص « بحيرة الزيتون » تستقي أحداثها من الثورة وتنقلنا إلى واقعها ، وتصور حرب التحرير بأبطالها وأحداثها وشخصياتها والنماذج التي عاشتها في الداخل أو في الخارج فمنهم الشيخ والشباب والمرأة والطفل والشق

والراعي البسيط، الزوج والزوجة .. والقصة التي عنوانها الكاتب لهذه المجموعة تصور شيخا كرس حياته لوصاية المواطنين أثناء الثورة .. ثم شخصية الأم التي فرحت بانضمام ولدها إلى الثوار ورغم مرضها فانها كانت سعيدة وفخورة بانبائها هذا .

أما مجموعة «الرصيف الثامن» فهي أيضا تدور حول الثورة ولكنها تركز على دور المرأة فيها .. المرأة زوجة أو أما .. مثقفة أو أمية .. المرأة في الريف أو في الحضر .. جنسية في جيش التحرير أو مسؤولة في جبهة التحرير .

وكذلك مجموعة « ذلت الساعة » فموضوعاتها لا تخرج عن إطار الثورة ومعظم شخصياتها مناضلون فيها ، أما مجموعة « طغثان » فإن بعضها يتصل بالثورة وبعضها الآخر يتصل بما بعد الاستقلال .

وكما أشرنا ، فإن الكثير من القصص المتفرقة التي نشرت بالصحف والمجلات يتحدث أيضا عن الثورة ، وأبطالها ينتمون إليها بصورة أو باخرى، فهناك الفدائيان اللذان يناضلان في المدينة واستشهدا نتيجة خيانة جاسوس رمز إليه الكاتب « بالظل (٥) » الذي يقتل أثر المناضلين وبقي بهم .. وقد استخدم الكاتب الزمن غير المباشر في البداية ولكنه كشف في النهاية بجوهر خيالات الأثر المطلوب منه وإن كان هذا بعد غلظة بالنسبة للحديث عن الجاسوس أيام الثورة حيث كان سافرا لا رمز فيه ، إنما يتحدث الكاتب عنه بأسلوب مباشر ، يصف دوره وخيالاته كما في قصة « مليكة (٦) » لفاضل مسعودي .

وقصة «الظل» هذه تمتاز بحركة تشد الانتياب غير أن حوارها يتسم بالمباشرة واستخدام التعابير التي إن كانت تحدث بين شخصين في مستوى الواقع فانها لا تصلح في قصة فنية .

وقصة « ذلت الساعة » تتناول موضوع الثورة أيضا وتحدث عن مناضل ترك زوجته وطفله وصعد إلى الجبل لأداء واجبه المقدس كما ترك عمله كاجير في مزرعة أحد المتمردين الفرنسيين .. وقد كلف من طرف الثوار بأن يذهب إلى المزرعة ليحرش زميليه هناك على الثورة والقيام بعملية فدائية ضد هذا المتمر الفرنسي الذي يمتص خيرات البلاد ثم استشهد وعرفت زوجته ذلك بعد الاستقلال .

وهذه القصة كثيرا من قصص المجموعة أشبهت ما تكون بالحكايات أو الصور التي تجسد فيها الأسلوب المباشر التقريرى كما أن الوصف لا يخفى القصة وإنما هو عبارة عن أوصاف انشائية كثيرة

لا تساعد على رسم الجو في القصة كما أن شخصية البطل اسماعيل رسمت من الخارج دون التعرض للدوافع النفسية التي تحرك الشخصية لتقوم بعمل من الأعمال ومثلها شخصية الزوجة .. فنقل هذا السرد الذي يحاول أن يتغلف فيه الكاتب يؤثر على بناء القصة وعلى مسارها وتطورها .. وعندما أراد أن يصور موقف بطل القصة من الأعداء الذين يطاردون الفدائيين التجأ إلى ما يشبه الحوار الداخلي في نفس البطل ..

« وكان يتسم ساخرا من هؤلاء الجبناء الذين ينفقون ملايين الفرنكات في استهلاك الزاد والعتاد من أجل شخص واحد ، فما أبعاد التشبه بين جيش التحرير وجيش الأعداء ؟ فجيش التحرير لا يطلق رصاصة واحدة إلا عند الضرورة ويوفرها لنفسه إذا أمكن للسكين أن يقوم مقامها .. وهؤلاء يفتحون القناطر المقنطرة من أجل صيده هزيل .. وأغرق في الضحك وقد تذكر المثل الدارج القائل « جنازة كبيرة والميت فار » (٧) .

وقد كتب الحوار بنفس هذا الأسلوب فهو لا يراعى المستويات المختلفة للشخصيات وإنما هو حوار يصير بين راي الكاتب وأفكاره .. أما الشكل فإن القصة تتخذ شكل « الرواية » ، قالها لها ، فالمرقف النفسي يتعلم فيها والأحداث كثيرة والجزئيات لا تدخل في صلب القصة ، وهذه السمة نجدها في كثير من القصص في هذه الفترة .

وفي قصة « الشمس لا تشرق في باريس » لحفي بن عيسى يصور الكاتب نموذجا آخر للشباب جزائري التحق بالجامعة بعد نضال مرير فقد كان التعليم في الجامعة مقصورا على الفرنسيين وأذانبهم ويحاول هذا الشاب أن يكون صداقة مع شباب فرنسي ولكنه يفشل في ذلك وتر الحوادث يلتقيان في باريس بينما تكون الثورة قد انتقلت إلى هناك ويكيد له هذا الفرنسي حتى يرمى به في أعماق السجون ، ذلك لأنه مناضل جزائري يؤمن بحق في الحياة .. والقصة فيها تصوير للروح الجماعية التي سادت أيام الثورة ، وأن مصرح الأفراد لا قيمة له أما مصرح الشعب كله فهذا هو المهم .. وللكتاب قصص أخرى كثيرة كلها تدور حول الثورة والنضال .

كما أننا نلاحظ في قصة « فتاة الغزوات » (٨) لعثمان سمعي التي كتبت في شكل رسالة أنها تصور كيف كان جيش التحرير أثناء الثورة يعامل أسراه أو الذين يلتقي عليهم القبض من الأجانب معاملة انسانية لا أثر فيها للحقد أو الانتقام ولا

ياخذ البريء بذنب المجرم .. وللكاتب قصص كثيرة في أثناء الثورة ولكنه عقل في انتاجه .

وهناك قصص كثيرة كتبها بعض الشبان من الجيل الجديد الذين هم في بداية الطريق وكلها تعالج موضوعات مختلفة وشخصيات متنوعة تتصل بالثورة مثل ذلك الشاب الذي خرج من السجن ولم يجد له مكانا وأصبح مطاردة من الفرنسيين وكان يبحث عن طريق تفصل به الى الثوار وعندما استولى على قطعة سلاح طارذته سلطات الاستعمار حتى استشهد كما في قصة «**عندما يجوع البشر**» (٩) والقصة تمتاز بالحركة والموقف النفسى الذى رسم لنا الكاتب من خلاله هذا النموذج الذى يطعم لأن يكون ثائرا .. وهناك المناضل الذى جرح أثناء كفاحه وذهب للعلاج في أوروبا كما في قصة «**النام**» (١٠) وقصة «**ليلة نوفمبر**» (١١) .

ويتصل بموضوع الثورة الحديث عن الهجرة الى الخارج بسبب الاستعمار .. الهجرة طلبا للعمل أو فرارا من الضغط والاضطهاد مثل «**من البطل**» (١٢) وقصة «**هوانغ تشعل الأمل**» (١٣) و«**الفزع**» (١٤) ، وتجدر الإشارة هنا الى أن موضوع الهجرة والاغتراب من الموضوعات التى سبق للكاتب الجزائريين أن عالجوها أثناء الثورة .

وإذا كانت هذه القصص قد عالجها المهاجرون الى الداخل الى الخارج فهناك بعض القصص التى عالجها المهاجرون الى القرية الى المدينة بحسب ضغط الاستعمار مثل قصة «**ومضة خاطفة**» (١٥) لعبد الرحمن مضوى وهي قصة تدور حول شاب جزائري فقير يترك القرية هربا من البطالة الى المدينة لعله يجد بها عملا ولكنه يفشل ثم العثور على عمل يمكنه من ارسال نقود الى والده الشيخم الذى ينتظر منه ذلك لتسليم رغبته في الظهور أمام أعيان القرية مظهر لائق محترم .. ويلقى الفتى في المدينة بام آثم لم نسمه تبدي نحوه عملا كاذبا فيقتلها الصبا عندها كاحر ولكنه لم النهاية يصطلم بمنهجيتها وانها لم تعطه حلا كاملا ، فقر الى الانتقام منها بأن يسرقها في السهل على الا باخذ الا حقه فقط .. وحسن بهم بتفقيذ ذلك كتشفت أمه المرأة وفم. النهاية تموت رعبا منه . والقصة فيها رمز للاستعمار بهذه المرأة الفرنسية وللشعب الجزائري الذى يمثل هذا الشاب الطب الكادح .. ومضمون القصة واسم يعالج من خلال هذين الرمزين قضايا كثيرة بتركيز واضمحلتجلى لنفسيتي الشاب والمرأة .. النفسية الشريرة التى لا يهيم الا الربح والرخاء المادى ونفسية هذا الشاب الذى تستغله هذه المرأة ولا تشفق عليه ويكون جزؤه القليل من المديونات والكثير من الاحتقار .

ولريقة المعالجة فيها حيوية وبساطة والكاتب ينجح في أن يجعلنا نتعاطف مع البطل لما أضفاه على الحدث من حركة وعلى الشخصية من سمات الواقعية فتقنعنا بصرفاتها التلقائية ، حتى اننا لا نحس بغربة من هذا الشاب وهو يهم بسرقة المرأة الأجنبية ، فالسرقة هنا مشروعة وكما أن هذه المرأة سرت عرقه حاول أن يسرق من مالها حقه ولكنه قبل أن يصل الى هذه النهاية كان يعيش صراعاً نفسياً بين الانتقام من هذه المرأة وبين نوازع الخير في نفسه وكان يبحث عن مبرر لهذا كله .. وإذا كان الكاتب في هذه القصة قد نجح في تصويره للشخصيات وللحادثة بلغة طعنة مرنة فإنه في بعض قصصه أحيانا لا يرضى اللغة الفنية للسرد والحوار ، فنجده يحاول أن يخلق بعض الصيغ والتعابير التى تؤثر على أسلوبه في كتابة القصة كما في قصته «**الشيخ العجوز**» (١٦) .

ونجد شخصية الطفل الفقر فى قصتي «**على صدى**» (١٧) و «**دار الثلاثة**» (١٨) لدودو فقد عالم فيها مسألة الفقر من خلال طفلين يمانيان لشطف ويكافحان الظروف القاهرة التى تعترض سبلهما .

وفي القصتين لمسات انسانية ملمسها من خلال برادة الطفلى ومن خلال الاشياء الصغيرة التى طمحن لتعقيتها ، ومن خلال الأحلام والأرواح وما ويقتف أمام تحقيق هذه الأحلام الوضع الصعب الذى سببه الاستعمار بطبيعة الحال دون أن يصرح الكاتب بذلك ، وأحيانا يضع موازنة بين بطسل القصة الفقر وبين أحد أقرابه الذى عاد من المدينة بملاس أنيقة ومظهر جديد بينما بقى هو فى القرية ..

وإذا كانت هذه القصص التى تحدثت عن الفقر لا تربط بينه وبين قيام الثورة فإن قصة «**هوانغ تشعل الأمل**» (١٣) للطاهر وطار تجعل من الفقر دافعا أو سببا لقيام ثورة نوفمبر سنة ١٩٥٤ من خلال فتاة شابة تعرفت وسقطت في هوة الرذيلة بسبب الفقر وأصبحت مثل السلعة تباع وتشترى .. على أن القصة اتخذت إطار الرواية لا شكل القصة القصيرة المركزة فهي مجموعة قصص لهذه المرأة مع أشخاص ثلاثة عاشت أحداثا قبل الثورة وأخرى بعدها . فهي تتحدث عن حياة كاملة وعن تفاصيل وجزئيات كثيرة أدخل في الرواية منها في القصة القصيرة . ومن هنا نتفقد سمة التركيز وأسلوبها يتراوح بين التقرير والابحاث ولكن يغلب عليه التقرير في معظمه وكثيرا ما تطغى العواطف على السكاتب فيتحدث عن أفكاره وآرائه هو لا عن الشخصية وما تحمله وأحيانا يصعب الحوار أشبه ما يكون

بمنشور سياسي لهجة وطولا ، فعندما يجرى الحوار بين هذه المرأة وبين الشاعر نجدته يتحدث هكذا في لهجة خطابية :

« حتى ينفهوا .. حتى ننجح في تنظيم صفوفهم .. وصديقي ان هذا العمل صعب جدا وشاق .. » انهم وكل قراء بلادنا تعودوا منذ قرون وقرون الاستسلام والخضوع للاسياد والأغنياء والتجار يتصرفون فيهم كما يشاؤون .. انهم بضاعة أولية في يد السماسرة والتجار الذين هم بدورهم بضاعة أولية في يد الفرنسيين والمستغلين الكبار .. هل تفهمين ؟ ان بوعلام و « مجدوبا » و « صالحا » صادقون في موقفهم من الحياة .. ذلك أنهم يخضعون لظروف معينة ونحن نريد أن نتقدم وننتقل كل الناس من هذه الظروف بتغييرها وسنتج .. سنتج اليوم أو غدا أو بعد أجيال لأننا نمثل أمل وطموح الملايين .. هل تفهمين ؟ أننا سنتج لأننا نمثل الضمير البقظ .. لأننا نمثل وازع البقظة .. صل تفهمين ؟ »

ان هذا الاسلوب يطغى على كثير من قصص هذه الفترة فالكتاب لا يتكون في عواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم ، ومن ثمة يتدفقون في التعبير عنها مباشرة بالرد أو الحوار وقد يطبلون في الحوار حتى يصبح مسرحيا « جبرا » مما يؤثر على البناء الفني لل قصة وبقلدها التأثير المطلوب .

أما القصص التي تدور حول الحب وتعالج علاقة الرجل بالمرأة والزواج والمعادات والتقاليد وما إلى ذلك من الموضوعات التي عالجتها الصورة القصصية في الإربعينات ، فليس فيها ما يميزها عن السابق عليها من حيث المعالجة أو الشكل أو من حيث رسم الشخصية وأبعادها المختلفة وانما هي أشبه ما تكون بحكايات تتحدث عن حب نشأ بين شاب وزميلته في العمل ، كلاهما شحول ومن أسرة محافظة .. فتقوم زميلة بينهما بدور الوسيط ويتزوجان في النهاية كما هي قصة « صوفي الصمت اللينة » (٢٠) ومثل هذا ما نجده في « عاصفة اليوم » (٢١) وهي في شكل رواية مضغوطة تتحدث عن نفس الموضوع ولكن بأسلوب يعالج الجنس بصورة صارخة وتفقد سمات القصة القصيرة تماما .

وهناك قصة « الأغنية اللعينة » (٢٢) لمحمد الحميد حدوقة التي تعالج قضية العزوبة والشعور بالقلق والفراغ بلا مضمون جديد في هذا الموضوع وبلا

تطور من الكاتب فقصصه التي كتبها عن الثورة تبدو أكثر تضجعا من هذه وقد توقف عن كتابة القصة سنوات طويلة .

ولعل قصة « الثوب الأبيض » (٢٣) لزهور وتيسي هي أكثر القصص تعبيرا عن هذا الاتجاه فهي تركز على قضية التقاليد ووضع المرأة حين تحرم من التعليم وتجبر على الزواج المبكر من شخص لا تعرفه ولا يتناسب معها .. والفكرة المحورية فيها تتحدث عن سيطرة الرجل زوجها أو أبا .. وتمتاز القصة بأنها تصوير لما يعتلج في نفسية هذه الفتاة التي أرغمت على الزواج وترك العلم ، وأسلوبها بسيط يعيل الالايحاء أحيانا .

ويتصل بهذه الموضوعات القديمة الحديث عن امرأة الأب القاسية التي تضطهد أبناء زوجها .. وهذه الموضوعات لا جديد فيها من حيث الأسلوب أو طريقة الأداء ، انما هي أشبه ما تكون بالحكايات التي لا تمثل تجربة حقيقية ولا تركز على الناحية النفسية بقدر ما تصف أشياء مادية باستثناء القليل الذي يركز على العنصر النفسي كما في قصة « الحلم الضالمة » (٢٤) وهي قصة تتحدث عن فتاة حلمها الوحيد أن تذهب إلى المدرسة ، ولكن الواقع الذي تضطه من أهوال والدها لها وقسوة زوجته عليها واضطرادها للعمل كخادمة لدى صاحب مقهى هو الآخر غلط القلب . هذا الواقع يمنحها من تحقيق هذا الحلم ..

والجالب مَعَهُ الموضوعات الجاهزة نجد بعض القصص تدور حول موضوعات لا تعبر عن فكرة خاصة وانما قد تصور بعض النماذج تصويرا لا هدف من وراءه سوى الكتابة كـ « نفاثة الحاج شعبان » (٢٥) و « أمينة وباس » (٢٦) وفي « أمي » (٢٧) و « عذبة الأسبوع » (٢٨) ..

وهناك قصص أخرى كثيرة لم تعرض لها بالرغم من أن بعضها في الثورة والتقاليد وبعضها في موضوعات مختلفة لأن أصحابها لم يكتبوا مستوى قصة أو قصتين على الأكثر ودون أن يكون دوافعهم قضايا ملحة أو دوافع فنية أدبية هدفها تحقيق الذات وانما قد يكون دافعها مجرد المساهمة في الكتابة في هذا الميدان بصرف النظر عن الفهم أو الوعي بفن القصة القصيرة .

وهنا تتساءل : هل أننا لانرحب بالموضوعات السابقة التي عالج فيها الكتاب أفكارا كثيرة ونعبد الجديد الطريف باستمرار ؟

بالطبع أن الكاتب الموهوب يبحث دائما عن التجارب الجديدة وعن الموضوعات الجديدة . وإذا كتب في الموضوعات القديمة أو المعروفة التي كتب

ولهذا نحن نطالب الكاتب الجزائري بأن يتجه للواقع ليعكس ما فيه من تطور .. من تغير .. من تحول من مرحلة الكفاح الى مرحلة البناء .. مرحلة التحول الاجتماعي والفكري والاقتصادي وما ينشأ من صراعات بعد الاستقلال قد تختلف تماما عن الصراعات السابقة عليه .

فمثلا يمكن للكاتب أن يتحدث عن القضايا التي هي مدار النقاش اليوم كقضية التعريب والاشتراكية وقضية الوحدة وفلسطين، وقضية الثورة الزراعية وقضية الأفراد الذين ركبوا الثورة بعد الاستقلال وقضية الانتهازية التي ظهرت بصورة أو بأخرى وحاولت أن تستفيد من وضع ما بعد الاستقلال الى آخر الموضوعات التي تعبر عن واقع جديد .. كما أنه يمكن الكتابة عن الثورة والواقع مما .. وذلك بالمقارنة بين الماضي والحاضر .. بين الثورة وما بعد الاستقلال .. ويمكن لكاتب القصة القصيرة أن يعالج قضية الفرد وقضية النموذج الإنساني الذي عاش الثورة بقمه وأفكار وآراء معينة وحين جاء الاستقلال تغيرت أفكاره وقيمه وآرائه .. هناك من اتاه نوع من الجمود وأصيب بصدمة أمام هذا التحول فتوقف تماما عن الحركة، وهناك من استشر بكأنه بنفس الروح الثورية ، وهناك من اعتبر دوره قد انتهى بتحقيق الاستقلال .. هناك أيضا الأفكار التي خلفها الاستعمار والتي تحاول أن تسترد مواقعها السابقة .. وهناك نماذج إنسانية عاشت تناوى الثورة ولكنها اليوم ليست لباسا جديدا يتماشى مع ظروف الاستقلال ولكنها في أعماقها لا تؤمن بهذا الوضع بل فرغ عليها فرضا وغير ذلك من موضوعات يمكن لكاتب القصة القصيرة أن يعكس من خلالها الواقع المعاش أو الواقع الجديد .

على أن هناك من الكتاب من حاول أن يكتب عن هذا الواقع وعن المشاكل أو القضايا المطروحة وأن يربط بينها وبين الثورة وأحداثها محاولا بذلك أن يقارن بين هاتين المرحلتين ويوضح المفارقات التي قد يجد الفرد نفسه مواجه بها كما في قصة «أغنية المساء» (٢٩) لأحمد الرفاعي التي صور فيها حياة مناضل جزائري يعيش مع أمه «صحراء» - وهذا هو اسمها - وربما يكون رمزا لحياة الوطن ولكنه بعد الاستقلال لم يجد له مكانا في الحياة وإنما وجد أمه التي تسأله باستمرار إذا كان قد وجد عملا .. كانت تلاحقه بهذا السؤال في كل وقت حتى وهي تمد الطعام :

فيها الكثيرون فأننا نطالبه بشيء واحد هو أن يصدر فيما يكتب عن رؤيا جديدة أو زاوية جديدة يقدم فيها نظرة خاصة قد تكون نقدية للحياة أو المجتمع ، فهناك من الموضوعات ما يتكرر أو ما له صفة الاستمرارية ولكنها تتطور دائما ولا أصبحت عالقًا تتطور المجتمع أو الفرد على السواء .. ومن ثمة فإن الكاتب الأصل يستطيع أن يعالجها من زوايا مختلفة عن معالجة السابقين لها .. ذلك أن الكاتب لا يبتط بظروفه وبيئته وعصره .. فهو مطالب بنظرة شمولية للماضي والحاضر ولهذا فإن موضوعات الثورة مثلا ولو أنها تدخل في الماضي إلا أنها تجربة عاشها الشعب مسنونات طويلة وتعد حدثًا تاريخيًا له قيمته في بحث الشخصية الجزائرية للفرد والشعب معا ولهذا فإن موضوعاتها تبقى حية في نفوس الناس وحديثة باستمرار ومتجددة والكاتب مطالبون بأن يكتبوا عنها لاكتشفوا أبعادها وصوروا أحداثها في صلب وأن ينقلوا واقعها للأجيال التي لم تعيشها أو لم تشاهد واقعها وأحداثها .. ولكن على شرط أنفسا أن تحرير برؤيا جديدة - كما أشرت - معالجة النماذج والشخصيات والأحداث وأن يقدم لنا الكاتب عن الثورة شيئا جديدا لم يعالج أو لم يعاينه الكاتب السابقون الذين كتبوا عنها .

صحيح أننا سنستمر في الكتابة عن الثورة ، ولكن، اعتقد أن معالجتها في شكل الرواية الطويلة أو شكل المسرحية ربما يكون أنسب لها من كتابة القصة القصيرة لأن هذا الشكل الفني يتطلب لحظة خاصة أو موقفا معينا قد يمر به الفرد في ظروف خاصة ويأخذ شريحة من الحياة والواقع المعاش .. وهو يبدو أنسب للزمن الراهن وللأحداث اليومية

لماذا لا نعد من روايتي كتاب القصة القصيرة ؟
١. الماض : عند التأمل نجد أن الأحداث وواقم الحياة من حاد لم .. صحيح أن الإنسان عندما يكتب عن الماض قد ساعده ذلك على تكوين نظرة موضوعية لم تقسمه لأحداث ووقائمه هذا الماض . وقد تكون هذه النظرة مطلوبة للحكم على الأشياء حكما صحيحا أو قريبا من الصحيح .. ولكن القصة القصيرة يمكن أن تكون وثيقة وشاهدة على العصر وعن الواقع المعاش .. لأن الفنان - كما نعرف - مطالب بأن يكون معبرا عن زمنه وعن مجتمعه وهذا لا يتأتى إلا إذا غاص في واقع المجتمع وحاول أن يكشف عما فيه من قيم سلبية أو قيم إيجابية تضاف الى القيم السابقة حتى تخرج بنظرة عميقة لحياة هذا المجتمع أو ذلك وحتى تعرف الظواهر أو المشاكل التي تطرا على المجتمع في ظرف كالظرف الذي عاشته الجزائر بعد الاستقلال .

« عمار .. ماذا قالوا لك اليوم ؟ » ..

وسؤالها هذا هو الذى يؤرقه ، فامه كانت تعتقد أن ابنتها قد كافحت من أجل حياة كريمة فهي تطلع الى شيء جديد لم يكن قد تحقق لها ولا لابنتها أيضا وكانت تلومه وتتهمه بالجبن لأنها لسذاجتها كانت تظن أن مرضها مبرر كاف لأن يعطى العمل لهذا المناضل فكانت تقول له :

« قل لهم أننا نموت .. قل لهم ان أمي مريضة ، انت لا تعرف كيف تتكلم عنى وعن نفسك .. آه .. »
سأذهب بنفسى غدا وأفهمهم .. »

ولكن هذا المناضل حين وجد العمل تأتى المفارقة ، فقد ماتت أمه دون أن تعرف شيئا عن ذلك .. وماذا يفيد إذا وجد مكانه وفقد أمه نهائيا ولم يحقق أملها .. إن هذه القصة تصور نموذج المناضل الذى استرد حريته وحرية بلاده وسأهم فيها ولكنه فقد أمه .. فالقصة هنا تمثل صراعا حقيقيا عاشه مناضلون كثيرون وأحسوا بالفرق بين حياتهم فى الجبل أثناء الثورة وحياتهم بعد الاستقلال التى تتطلب الى جانب النضال أشياء أخرى قد تتصل بالكفاءة أو بالثقافة أو غير ذلك .

ومثل هذه القصة « عرجونة » (٣٠) مع فارق أنها رواية مضغوطة جمعت بين أحداث كثيرة فى قصة واحدة ، تمثل الفلاح الذى التحق بجيش التحرير واستشهد وترك زوجته التى ناضلت مع الأخرى .. ثم تأتى المفارقة حين تزوج بخائن نتيجة اختلاط القيم وتغيرها بعد الاستقلال !

فقد شاهدت الصراع من أجل الاستقرار والرخاء المادى ووجدت حتى أولئك الذين ناضلوا بالأمس قد نسوا أهدافهم الماضية لينساقوا وراء هذا الصراع من أجل المادة فأختلكت المفاهيم والقيم وأصبح الناس يبحثون عن السيارات والفيلات .. كما يحدث فى أعقاب كل ثورة .. حتى أن هذه المرأة أصبحت لاتفرق بين الخائن للوطن والمخلص ولهذا تزوجت بهذا الرجل الذى باع وطنه فى يوم من الأيام :

« تزوجت .. أعلمت بمن ؟ » انه صاحب الفيل والسيارة الفخمة .. الخائن الذى باعنا ذات يوم للسلطات العدو .. تزوجت خائنا يا الله .. »
هو أيضا باعها فأحرقت قريتها .. هل تسميت ذلك ؟

— أنها تزوجت الحياة التى يوقرها لها .. »

ومن هذا الحوار ترى أن أسلوب الكاتبة لا يعنى بالتعبير وإنما يعنى بالتسجيل فقط .. ولذا فهي تتحدث بأسلوب مباشر فى سردتها وحوارها وكثيرا ما تظنب وتستطرد عن أشياء لا صلة لها بصلب الموضوع وإنما هي خواطر تتوارد على ذهنها فتسجلها ، وهي تكرر بعض الجمل والتعابير كما تسمى للبحث عن معانى بعيدة لا تخدم القصة وإنما تفتتت ندامها .. أضف الى هذا أنها تطلق أحكاما ومواعظ كثيرة كما تستطرد الى بعض القصص المعروفة أو التاريخية :

« آه .. مرغريت حين فقدت الناح لم تعد تفكر الا فى الخلاص بالانتقام .. »
لقد قال ذلك شكسبير العظيم ،

أو قولها :

« لعل الكاهنة فى قبرها راضية عنها وهي تحت الخطي قرب بثرتها العظيمة لا لتكهن أو ترى .. » الخ ..

وهي فى سردتها هذا وحتى فى المونولوجات الداخلية تكتب بالأسلوب التطليمى الذى لا يخدم القصة قليا وكثيرا ما ترى هذا فى مواضع شتى من قصصها المختلفة كقولها :

« لأؤتونا العظيمة ستقهر الزيف .. »
« .. ستكفد .. »
« .. ستشرق فى كل لحظة .. »
« .. إنها لا تموت .. »

ولا تمنى الكاتبة برسم شخصياتها مما يوضع ملاعبها وتسمياتها الخاصة وإنما تتكلم على نماذج عامة مطلقة يمكن أن تطلق على أى امرأة أو أى فرد .. وهي تحتاج الى الأصالة لا الى التقليد فكثيرا ما تقلد غيرها من كتاب القصة الآخرين ..

وقصة « الفلاحونة » (٣١) للنظام وطاهر تعالج قضية المناضلين الذين كافحوا أثناء الثورة ولكنهم بعد الاستقلال تحولوا الى موظفين روتينيين بالكتاب بعد أن فقدوا ذلك الحساس الذى كان يلازمهم أثناء الكفاح المسلح .. وفيها نقد لبعض العقليات أو الأفكار السلبية أثناء الثورة ومناقشة لدور المثقفين فيها ثم دورهم اليوم وما قد يتعرضون له من سوء فهم وللحاساسية التى تنشأ بين رجال السياسة والمثقفين كما تناقش قضية الحيز وأثره فى حياة الفرد .. ولكنها لا تضيف جديدا بالنسبة لأسلوبها ، فهي وإن كان حوارها الى حد ما فيه تركيز وتعبير عن المواقف النفسية للشخصيات التى تتحدث عنها ألا أنها فى سردتها

أحيانا تقترب من الأسلوب الصحفي أو الأسلوب المباشر الذى لا فن فيه .. فالكاتب عندما يتحدث عن المناضلين بعد الاستقلال نجده لا يكبح جماح عواطفه مثل قوله :

« مسكينة هذه المكاتب لا تستطيع أن تنظم نفسها بنفسها .. الثورة أول مهمة تنجزها هي تطهير الشكل القديم للمكاتب .. خطر ببالى .. مساكين أيضا أصحاب هذه المكاتب أبناء الفلاحين الفقراء والعمال الكادحين ومعلمو القرآن الذين تحولوا إلى جنود وإلى ضباط بحكم البدلة العسكرية ، لا تستطيع نفسياتهم أن تنتظم عفويا ومن تلقاء نفسها .. الثورة ليست عاصفة موجاء تقتلع الأشجار وتخرب السدود وتحطم القرميد وإنما غيث سحساح يجرف الطحالب والأغصان الهشيمة ويفنى العروق الحية لتزهو وتخصب وتثمر .. آه لو كنت بمهمة خلقت .. »

إن هذه الفقرة جاءت على لسان بطل القصة وقد كان حيرا للقصة لو أنها جاءت في حوار أو نقاش أو جاءت في موقف تصاحبه حركة أفضل من هذه الأحكام العامة المطلقة التى تؤثر على بناؤها.

وللكاتب قصتان تاملان موضوع العمال الأولى هي « اليتامى » (٣٢) والثانية « البختر » (٣٣)، فالأولى تعالج قضية التسيير الذاتى بعد الاستقلال وهي إحدى القضايا التى ظهرت بظهور هذا الحدث وقد استخدم فيها أسطورة شعبية معروفة في بيئة الكاتب وهي أحسن توفيقا من قصة البخار التى تصور موقف عامل ماتت زوجته وطفله بالسل وهو في السجن وعندما خرج لم يجد عملا فاغرق أحزانه في الحمر .. وأحسن ما في القصة هو اتخاذها المنولوج الداخلى طريقه للتعبير عن أزمة بطل القصة الذى كان ينفس عن حالته هذه في الحمر ويلقى بالكلمات أحيانا بلا معنى وبلا هدف ودمائه للخمر ليس هدفا في حد ذاته وإنما بسبب البطالة والمشاكل المادية والنفسية التى يتخبط فيها .. والكاتب يعد من القلائل الذين

عنوا بموضوعات العمال ومشاكلهم والظروف القاسية التى يعيشون فيها .. على أنه من الناحية الفنية لم يتطور كثيرا في هذه القصص .. وراعى الذى قلته فيه منذ سنوات هو أنه ينجح فنيا في القصة التى تدور حول الحب والمرأة وعلاقاتها بالرجل أكثر مما يتعرض لقضايا من هذا النوع .

وهناك قضايا تتصل بما بعد الاستقلال ولكن جذورها ترجع إلى الثورة وهي تمس أسر الشهداء والعائلات التى فقدت ذريها في الثورة واستشهد أبناؤها مثل قصة « المصير » (٣٤) التى تعالج هذا الموضوع فتتحدث عن رجل مسن فقد ابنه الوحيد في الثورة وماتت زوجته حزنا على ابنها وبقي هو وحيدا يجتر الذكريات التى حطمته وجعلته موضع رثاء أهل المي وعطفهم وإحسانهم بعد أن كانوا يلتجأون إليه لحل مشاكلهم أو التخفيف من ألامهم .. والكاتبة تركز على شخصية هذا الشيخ الذى أصبح يتردد كل شهر على مكاتب الإعلانات لصرف المنحة المقررة له ولأمثاله ولكن الموقف النفسى الذى يلج على مشكلته هو أنه تود كثيرا وانتظر طويلا وكانت الميزة التى تواجه دائما أن دوره لم يات بعد وإلى ذلك ابنه لم يدرس ، ومن هنا تنفقد الكاتبة الوتيرة التى يتسبب في تعطيل مصالح الناس .. ولكن القصة يبدو فيها نوع من التكلف والافتعال إذ أن هذا الشيخ تذكر فجأة بأن له اختا فقدت هي الأخرى أسرته في الثورة فذهب ليعيش معها وبهذا حلت مشكلته .. والواقع أن هذا حل ساذج لقضايا من هذا النوع فالمفروض أن يواصل هذا الشيخ عمله لينال حقه ، أما الهروب أو السلبية فأنها لا تخدم القصة .. ولكن الكاتبة كعادتها فيما نشرته من قصص تعنيها الأمور الانسانية ولا تعنيها الأشياء التى تتصل بالناحية الفنية .. والواقع أنها في كل ما كتبت ترسم لوحات أو صورا قصصية من المجتمع لا ترقى إلى مستوى القصة الفنية .

وهناك بعد ذلك قصص أخرى - وإن كانت قليلة - تصور بعض الشخصيات التى تمثل الواقع الجديد أو تنقد بعض أنماط من السلوك لبعض الأشخاص أو الأفراد الذين يبحثون عن الشهرة بلا أصالة ويتهنزون الفرصة لجرأة أن الظروف عاتية

أو أن الصراع العنري أو الأدبي يساعد على وجودهم مثل قصة « معلق الكلمة » (٢٥) لابي العيد دودو وهي تصور نموذجاً من انتفضي على أحياء الاديب واستغافيه الذين يظهرن على السطح بلا حدييات ولا مددات عن طريق السطو على انتساج الاخرين ونسبته لاسمهم بهذا الشئ الذي سسطا على معاصرات استاده ونشرها باسمه بعد ان غير منها شيئاً ما ٠٠

والعصه من ناحية المصمون لاصدم اشئ استير واما بالاحظ ان فيها شيئاً من الجدة من حيث الشكل واطن أن الكاتب قبل هذه القصة وفي مجموعته لم يس عنائه بيرة بتطور قصصه من ناحية الشكل وان عنى بالمضمون ، ولكنه في قصته هذه بالذات عنى بالشكل ٠٠ فهي أشبهه ما تكون بالصورة الكاريكاتورية الساخرة وهذا بالطبع هدف من أهداف الكاتب حيث أراد أن ينقد هذه الظاهرة بأسلوب فكاهي ساخر ، ولكن انصر الوحيد فيها الى جانب الفكاهة هو غلبة الحوار على السرد ، ولست أدري ما اذا كان الموضوع هو الذي فرض هذا الشكل اذ أن الحوار بين صديقين أحدهما هو الذي أوحى لصاحبه بالسطو على معاصرات استاده ونشرها حتى يشتهر اسمه وبعد أن اشتهر لم يجد ما ينشره فذهب الى صديقه وأخذ يتحاوران حول هذا الموضوع حتى نهاية القصة ٠٠ أم ان الكاتب قصد اليه شكل جديد مثلما نجده لدى نجيب محفوظ في قصته الأخيرة ؟

على أن الملاحظ أن هذا الحوار يأتي في صورة مسرحية وهذا يتضح بعد لقاء هذا الكاتب « المزيف » بصديقه الذي يشتسم ويرحب به :

« - أهلا ٠٠ أهلا بأبي صعدت
(يقوم اليه ويصافحه مائفا اياه)
- أهلا ، أخي .

(يدخله الى مكتبه ويجلسه قبائته)
- كيف حالك ٠٠ كيف حالك ٠٠ ؟؟

- شكرا ٠٠ مع الوقت .

- (ينظر اليه) مع الوقت ٠٠ مع الوقت ٠٠ هذا هو الجواب الصحيح ٠٠ أراك قد استفتت من نصيحتي ؟
- الى أبعد حد ٠٠ لولاها ٠٠

- (مقاطعا اياه) لولاها لما اتخذ وجهك هذا الصقل والبريق ، ولما أصبح لابتسامتك وزنها في المحافل ٠٠ والمقاهي ٠٠

- (يحني رأسه) اعترف بهذا ٠٠ (يفتح محفظته) أقراء كل ما نشر لي حتى الآن ؟

- (بعد ضحكة مدوية) لا داعي لذلك ٠٠ لا داعي لذلك ٠٠ دع مقتطعات الجرائد والمجلات في المحفظة لقد قرأت كل كلمة ٠

- (مبتسما) دون أن تشعر بالملل ؟
- (يواصل الضحك) بالعكس .
بالعكس . كنت أجد لكل كلمة طعمها الخاص ٠

ومن هذا الحوار يتضح لنا الطريقة المسرحية فيه فيسجل الكاتب الحركات هكذا بين أقواس ولست أرى داعياً لاستخدام هذه الطريقة في القصة القصيرة ، فالقارئ لها ليس في حاجة الى أن يتبهنه الكاتب بمشمل هذه التنبيهات التي يحتاجها ممثل المسرح ليقوم بحركة مثلا ، ولكنه في استطاعته أن ينبهنه في السرد ٠٠ لأن القصة حين تلجأ الى الحوار بهذا الشكل تدخل في إطار المسرحية يأتي من القصة القصيرة ٠٠ والواقع انني لا أعاطف مع هذا الشكل في كتابة القصة الذي يعتمد على الحوار بصورة كبيرة دون اعتناء بباقي العناصر الأخرى كرسوم الشخصية مثلا لأنها بهذا تعقد الحركة من ناحية وتصبح قصة ذهنية تناقش الافكار بصرف النظر عن الشخصيات من جهة ثانية ٠٠ والفروض أن القصة ترسم لنا الشخصية من خلال أشياء كثيرة منها الحوار ٠

وإذا استثنينا قصة أو اثنتين للكاتب حاول فيهما أن يطور أسلوبه ومعالجته للقصة القصيرة فان قصصه الأخرى التي عالج فيها الثورة أو ما يتصل بها من قضايا يغلب عليها الطابع التسجيلي ٠٠ وإذا كنا قد بررنا للكاتب مثل هذا الأسلوب عندما كان بعيداً عن وطنه فإن رجوعه اليوم ومعايشته للواقع تفرض عليه أن يغير من رؤيته ومن أسلوبه للتعبير عن مجتمعه والواقع الذي يعيش فيه ٠

على أن هناك كتاباً آخرين ساهموا في القصة القصيرة بمجهودات تختلف مستوياتها فمضونا وشكلاً وموضوعاً ، لم نذكر أسمائهم أو نتعرض لانتاجهم لأن المقال لا يسمح بالتحليل وبالأضافات كما سبق أن ذكرت - ولهذا اقتصرنا فقط على

بعض النماذج للتعريف وإعطاء صورة عن القصة القصيرة في المرحلة الحالية .

وإذا كانت القصة القصيرة في هذه الفترة قد تعرضت لواقع ما بعد الاستقلال بشيء قليل من العناية فإن كتاب القصة عندنا لم يولوا عناية كبيرة لأحداث ٥ يونيو وقضية فلسطين باستثناء بعض القصص القليلة التي لا ترقى في شكلها ومضمونها إلى درجة تستحق الكتابة عنها والتنويه بها . ولكن الكتاب الذين ظهر لهم إنتاج غزير حول هاتين القضيتين هم الكتاب العرب الذين يعيشون في الجزائر منذ سنوات ولكن مستويات هذا الانتاج تختلف من أديب لآخر وليس هذا مجال الحديث عنهم . ومن حقنا أن نتساءل : لماذا لم يمن الكتاب الجزائريون بهاتين القضيتين بينما عنى بهما الشعراء بشكل واضح وبصورة تستحق التنويه ؟

وفي نهاية هذا المقال يمكن تسجيل بعض الملاحظات حول القصة الجزائرية وإقامها الرهن وهي أنها لم تتطور كثيرا في أسلوبها وشكلها

هوامش المقال

- (١) بحيرة الزيتون - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٨ .
- (٢) الرصيد الثامن - الكتاب العربي للنشر ١٩٦٧
- (٣) دقت الساعة - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٨ .
- (٤) طنات - للشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٠ .
- (٥) الظل - أبو الحبيب دودو - المجاهد ٩ نوفمبر ١٩٦٦ .
- (٦) ملكية - فاضل السمودي - « صور من البطولة » - الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٥٨ .
- (٧) مجلة « المعرفة » الجزائرية - أغسطس ١٩٦٤ .
- (٨) المجاهد الثقافي - العدد ٩ - ١٩٦٩ .
- (٩) بقطاش مرقاق - مجلة « آمال » يناير ١٩٧٠ .
- (١٠) أبو العيد دودو - المجاهد ١٢ ديسمبر ١٩٦٥ .
- (١١) بوهلال أحمد - المجاهد ٢٩/١٠/١٩٦٧ .
- (١٢) زوليفة السمودي - « آمال » أبريل ١٩٦٩ .
- (١٣) غلاوي عبد الله - « آمال » يناير ١٩٧٠ .
- (١٤) منصور محمد الصغير وقامه يونيو ١٩٦٦ .
- (١٥) « آمال » سبتمبر - أكتوبر ١٩٦٩ .
- (١٦) المجاهد الثقافي - مايو ١٩٧٠ .

وإن نقلت لنا مضامين مختلفة وعالجت موضوعات متنوعة منها ما يتصل بالماضي ومنها ما يتناول الحاضر . . والطابع العام لطريقة المعالجة يغلب عليه الواقعية التسجيلية لا الواقعية الفنية ، لكنها تختلف من كاتب إلى آخر وإن كانت في معظمها يغلب عليها طابع التسجيل لا التعبير .

كذلك فإن الشخصيات فيها يغلب عليها النموذج الصام لا النموذج الخاص الذي يتمتع بخصوصية معينة ، صحيح أن الملامح المحلية فيها واضحة ولكنها محلية تحتاج إلى صقل وإلى عناية خاصة لتجتاز الحدود وتعبير عن سمات تلتقي فيها مع الانسانية عامة .

والقصة الجزائرية في اعتقادي تحتاج إلى جراحة في المعالجة ، ولكنها جراحة الواعي بالتجارب السابقة في المغرب والشرق وفي العالم كله والاستفادة من هذه التجارب كما تحتاج إلى وضوح في الرؤية وفي الاتجاه ولعلها في المستقبل تحقق الأصالة والتجديد والتطور وتسهم في تطور القصة في الأدب العربي عامة .

- (١٧) جريدة الشعب يوليو ١٩٦٨ .
- (١٨) مجلة « القيس » إبريل ١٩٧٠ .
- (١٩) مجلة « آمال » مارس - إبريل ١٩٧٠ .
- (٢٠) عبد المجيد حرول - مجلة « آمال » يونيو ١٩٦٩ .
- (٢١) محمد فيصل « آمال » مارس ١٩٧٠ .
- (٢٢) « آمال » يوليو ١٩٦٩ .
- (٢٣) « الشعب » ١٧ مايو ١٩٦٧ .
- (٢٤) لغوين محمد « آمال » يونيو ١٩٦٩ .
- (٢٥) محمد خوخه « الشعب » ٩ فبراير ١٩٦٨ .
- (٢٦) بلقاسم بوربيع « الشعب » ١٩ مارس ١٩٦٨ .
- (٢٧) أحمد حمدي « للشعب » ٢٨ إبريل ١٩٦٨ .
- (٢٨) بلحسن أحمد « المجاهد » ١٩ مايو ١٩٦٨ .
- (٢٩) مجلة « المروية » يناير ١٩٦٤ .
- (٣٠) زكيه السمودي « آمال » مارس - إبريل ١٩٧٠ .
- (٣١) « آمال » إبريل ١٩٦٩ .
- (٣٢) « الشعب » ٤ مايو ١٩٦٨ .
- (٣٣) « المجاهد » أول مايو ١٩٦٦ .
- (٣٤) زهرور وني - « الشعب » ٩ إبريل ١٩٦٨ .
- (٣٥) « آمال » مايو ويونيو ١٩٧٠ .

الذيدان التي تخفى

بقلم: محمد زفزاف

وقرب الصحراء .. لم أكن أجده مبرراً أو سبباً للفقر والازدحام .. أيا حياة الطبيعة فهذه أشياء عارضة بالتصميم إلى .. تلك عندما في اليراميل والأرض لا تملو من أنوار جافة تصلح للنار .. وهناك ، أيضا ، كيسان من الذهب .. تعود العمال أن يجمعوا بعد نهاية العمل أو التباهي ، ويبيعوا طماهم الذي الغته ، شخصيا ، بعد ما كنت أألف منه لدى أول طلاقتي بالعمل .. تلك أشياء طبيعية في حياتنا .. كنت ما أزال مرهقا ، صغير السن ، فادرت المدرسة الثانوية وأنا أحمل أفكارا مثالية لا حدود لها ولا فصل .. أوهام إنسان مريض ، لا يعرف من واقعنا شيئا ، يتخيل الحياة بشكل سيارات متنوعة الألوان والأشكال ، وقفيات كثيرات ، ثم أمسيات على الكورنيش .. كل هاته الأشياء لم تكن سوى مرض ، أدركت فيما بعد أنه كان ضروريا بالنسبة لحياتي .. عرفت فيما بعد ألا شيء أشد أسود واقية وارتباطا بالثقافة ، على مرارها ، أكثر من العمل .. العمل وحده هو الذي يصنع الرجال .. ليست أدري كيف يستطيع أن يعيش رجل دون أن يحرق يديه ولا أن يعطها في شيء ..

كنت قد بدأت وقتها بالانقضاء على ذلك الشخص المثير المراهق ، الذي كان يردد في داخلي ، في أفقاري ، في تصرفاتي ، في حياتي .. وبالفعل .. فقد انتهت إلى القضاء عليه ، واعتقد بصفة نهائية .. فكل تلك الأفكار العاللة التي كنت أحسها في ذهني من المستقبل تغيرت تماما ، كتعل محله أفكار أخرى .. تعودت شخصيا على حياة هؤلاء العمال : أنام معهم في الطبيعة رغم أني رئيسهم ، وإن لي غيشتي أنني وغشيتي الشركة رغم اشتراكي .. كما هو الشأن أثناء كل ورسنة التراسية .. لا أنام معهم فقط .. لكنني أصبح نصيب من التلذذ ، عندما يجمعونها لشراء جميع المستلزمات التي تخصهم طيلة الأسبوع الكامل .. في بعض الأحيان كنت أدفع لهم لمن وجبة شهية أو عشاء .. ولم يكن يكلفني ذلك كثيرا

مر عينا يومان فقط ، في هذا المكان .. شرمنا في العمل الذي بدأ لي لأول وهلة أنه متعب إلى حد الموت ، إلى شخصيا ، لم تعود على أرض صلبة مثل هذه .. ليس ذلك فقط .. لكن الكياء ظهر لك العطر التي يوسعها العمال ، بعد نهار كامل .. حاولت أن انظم من هذا لئلا غلم أستطع .. قلت هذه هي البداية .. ولم أكن أعرف من النهاية شيئا .. تركت ذلك زمن سوفا يأتي ولا أدري منه شيئا .. وفوريت بعد تجربة هذين اليومين بأن أستمع في العمل إلى أن أنشئ منه .. فارتدت أثناء خلال لمدة التي أعطيت لنا ، لأبد أن نتجز الأعمال التي طولبنا بها ، مهما كلفنا ذلك من جهد أو وقت .. سمعت أنه على بعد كيلومترين منا ، هناك مجموعة أخرى من العمال ، تابعة لنفس الشركة .. سمعت كذلك : ما أن تهي الشركة أشغالها هنا ، إلا وستوجه مجموعة أخرى من العمال ، بعد ستة أشهر في الجنوب الشرقي .. حيث نحتاج تلك الأراضي لا إلى طريق واحدة ولكن إلى عدة طرق .. ربما سيكون على الانتعاق بالعمل هناك .. ربما مسابقي بالشركة ، حيث انضم إلى المجموعة العاملة في الكتيب .. كنت مرشحا دائما لمحادثة الكتيب ، نظرا لأشياء خاصة ونظرا أيضا للمهارة التي أعمل بها خارج الحيطان كما يقبل المهندسون الذين كنت تحت تصرفهم ، وعلمت مساعدا لهم .. حدثنا الآن هذه المرة الجنوب .. ثم أكن أدري بالفصل في أية بقعة من الخريطة كنا نعمل .. على كل حال ، لم تكن الأرض صحراوية كما كنت نؤمن قبل الهجرة ، ومن يدري ، فربما كانت المجموعات الأخرى التي نعمل في نفس الاتجاه توجد على مقربة من الصحراء .. أمنت بأدبي الأمر أنني لن أستمع في العمل أقل من يومين .. لكن ، ها قد مر يومان .. في الواقع لم يكن هناك ، بالنسبة إلى ، أي سبب للازدحام .. فلا شيء ، هنا ، يزجج أو يلقى ، رغم صلابته الأرض أحيانا ، رغم هذا الماء الذي يظفر في وجوهنا .. نعم ماء في الجنوب ،



التواصل الشاق . وكان اغلب المهندسين الذين عملت معهم يعطون قدرهم من هذه الانسانية المبالغ فيها . التقارير تصل الى مدير الشركة ، فاستدعي على الفور واوقف على التأخير في العمل ، وعلى تساهل المبالغ فيه . باختصار ، كنت نفة نشارا في هذه الشركة . وحققت ، ان بسبب تساهلي وانساني ، هو طبيعي الخاصة . لذلك فاني امنت نفسي بالرومانسية . ولطالما انطقت في اراء ، تجاه نفسي وهيتاني : ان اواجه العالم بخشونة وصليحة . واحيانا اجد ان هؤلاء الذين يخلصون على تساهلي ، هم على حق ، وان الحياة تفرض احيانا قدرة فائقة على العنف . وشخصيا لم يكن من طبيعي العنف . صحيح انني كنت شديد الانفعال ، شديد التأثر ، لكن هذا لا يعني انني كنت عنيفا . طبيعي كنت بعد ما تكون عن العنف . وكنت مستحيا بين العين والآخر ، لان انا اناز نفسي ، واسامح ، بل واناقل من الاشياء الفروية من حولي ، على الاقل كرد .

كنا قد وصلنا ، الى هنا ، فيل يومين حوالي الساعة السابعة صباحا . وعلى الفور ما ان نصينا الفيتين ، خيمتي ، وخيمتهم ، وانزلنا المعدات ، حتى سيارة للتنقل . فيل انني لست في حاجة اليها ، لان العمل هنا لا يتطلب التنقل الكثير من مكان الى آخر . هناك غلط بعض خيمات اليد العديدة التي نستعين بها عادة كمثل هذه الاعمال . وهناك ايضا البولنذر ، الرابطة في مكان بعيد . حيث لم يكن موعد استمالتها بعد . فافكر ما نفكر فيه ، بعد الجفر ، وتسمية التراب ، ونشر الحصى ، هو البولنذر . واحيانا كنا في حاجة الى سيارة جيب صغيرة لتربطنا بالقرب مدينة اليان . لكن هذه المرة ، نحن محرومون من سيارة الجيب . البولنذر فقط التي ترغب وحدها في المكان ، تستنتج پارشادات المهندسي وشرعنا في العمل . كان المهندس نفسه هو المكلف

ماليا شخصا ، فنظرا لامتيان الى الخاصة عليهم ، كانوا ينظرون الى تلك الوجبة باعتزاز ، ويظنون يتذكروننا طيلة الاسبوع ، او على الاقل يذكروني بهما ، ويقولون - ايضا - ينظرون يوما آخر كي ادفع لهم لمن وجبه لعداء او مشاء . الحقيقة انني اعرف ان تلك اشياء فوق طاقتهم . كانوا ثلاثة عشر عاملا ، المقيم متزوجين ، وحتى الذين لم يتزوجوا ، كانوا في الطريق الى الزواج ، او كانوا يطمعون عائلة كبيرة الممد ، فالبدا ما كانت تسكن في شوارع المدينة ، بتلك الاكواح . للتصديقية القليلة ، التي هي بمثابة بيت سكني ومزيلة ومرحاض في نفس الوقت ، لذلك عندما كنت ادفع لهم لمن هذه الوجبة ، اشعر في داخلي ، انهم يريدون ذلك لانهم يقتصدون . وحاولت قدر المستطاع ان اقيم اكثر من وجبة في الاسبوع ، حسب ما تسمح به ظروف الخاصة ، كان هؤلاء الثلاثة عشر عاملا ، هم المجموعة التي تعمل معي في المالكب . وقد جيت بهم كثيرا من الامان ، وكانوا دائما مقلدا : العمل المتواصل ، لتياسة كل ما اطلبه بسرعة فائقة ، ربما كان ذلك راجعا الى معاملتي الخاصة لهم . فرماني الذين لهم نفس الرتبة ونفس العمل في الشركة ، يسيئون في الاكلب الى هؤلاء العمال . لم يكن هؤلاء الزملاء يتورعون عن ايلامهم وتكليفهم بالقيام بمساعات اضافية في العمل دون تعويض عليها . ولم يكن هناك اى تساهل من طرفهم تجاه هؤلاء العمال . ولطالما فكرت : هؤلاء الناس يرضون نعمت ابيهم قليلة - لشكائل - الايام النفسية والبدنية التي لا يستطيع مطول ان يتحملها . كنت شخصا اعرف هذه الاشياء واعيا جيدا . وحاول ان اوضح هذه الاشياء للمهندس الذي اعامل فلأفادته . خصوصا لما كثرت الاحتجاجات من طرفه من التأخر في انجاز العمل ، واوضح له بالخصوص ان هؤلاء الناس ليسوا حيوانات ، لكنهم بشر مثلك . غير ان يقول : ان هؤلاء الناس لا يجدون ذواتهم الا في العمل

القالب ارفعها ، متحدياً زهوه ولورده . كان العمال
الرافقون لي يعرفون هذه الاشياء هي ، لذلك غالباً ما
كانوا يعتبرونني واحسباً يستطيع ان يفهمهم .. من
ماذا ؟ - لا أدري ، كانت هذه هي المرفة التي تصل
من لي القالب ، فانا الذي اخترتهم واحداً واحداً ،
بعدما نظرت في اوراقهم الشخصية ، وتعرفت الى هوياتهم
ورؤسيتهم . فلما وجدت منهم يستطيع ان يلبس دهباً
بالقدر الذي اطلبه ، وبلا مراوغة . ولم اكن شخصية ،
استغل هذه الطيبة في ارواحهم . فقد كان نوع من الاحترام
الذي افرهه عليهم ، كافياً لتسهيل الطريق الي تنفيذ
أية رغبة ، تلك كانت هي المسألة بعدالها .

فصننا ليلة الباردة ، أنا في خيمتي ، وهم في
خيمتهم بشكل لم يحد لي ان اتعب انهمنا طيلة ذلك
اليوم . فمن نزل المستنزات ، الى بناء الخيمتين ، لم
الشرع في العمل مباشرة ، كل هذه الاشياء كانت دافعا
لتعب شديد ، هناك طينا جميعا كل قوانا ، فانهكنا ،
ولمنا من اخرنا دون ان نتحدث او نشرب الشاي او لنعب
الوراء . كانت الليلة غير عادية . وكنت اسمر بشور
انصباي ، ولعب لا حدود له ، بحيث كنت ارى القمر
مستظلاً لا مستديراً . وكانت حالات شتى متزامنة في
الليل ومتداخلة . ومع ذلك ، كنت دون ان افرح او ابي
شيئاً . شعرت ان العمال لم يكن لديهم أية رغبة في
العمل ، هذا اليوم . كانوا يتكلمون ، وحاولت ان
انجاهل هذه الاشياء . قلت ، انها ضرورية ولابد منها ،
نحن لا نستطيع ان نعمل مثل الآلات ، فليس الاستساك
لا يقد من عميد ، انه من لهم ودم ، لم راودني فكرة ،
طيلة اليوم ، ان اذهب لاستشاف نواحي المنطقة . وفكرت
ان ربما سأتعرض لاحداث ، في هذا الليل ، خصوصاً وانني
لا اعرف طابع ناسها ولا حيواناتها . وشعرت بنصب
مولس . ومع ذلك ، ارجعت نفسي على الصعود .



هناك اشياء لا يعرفها أحد .. اشياء لي تلك .
حتى الذين يعرفونها لا تفهم بالقد الذي تفهمي . كل
واحد اشياءه وحقيقته . - فكرت - وعلمت : ان
الحياة هي حيز خاص . حيز ؟ ما حجمه بما كشافته ؟
لست أدري . ولكن اعتقد ان الحياة ، هي تلك الافعال
اليومية ، التي قد لا نعرفها اهتماماً ولو غشياً . والعبارة
هي تلك العلاقة البسيطة او المعقدة التشابكة بيننا وبين
الناس . لذلك فحياتي ، هي هذه الاحداث التي جرت
لي بطم او بغم علم مني . ليس هذا مجاله . ولكن
بوامت داخلية دفعتني الآن للتفكير في مثل هذه الامور .
قد يعتقد البعض ان هناك دوافع تيرم من العمل مثلاً هي
التي املت لي افكاراً مثل هذه . لكن الحقيقة هي
العكس . احب هذا العمل ، رغم التناقضات الكثيرة ، ورغم
الانقطاع الذي يدوم اياماً ، وايضاً شهوراً .. المسألة
مسألة طاقة والفة . في بندي الامر كنت اجد صعوبة كبيرة
في الانقطاع عن حياة المدينة ، والانزوال في الغلاف ، مع
مستنزات العمال واليونكرز والجيب وبراميل الماء ،

بالجموعة التي توجد على بعد كيلومترين هنا . لذلك
فقد تمتل خلال هذين اليومين مرتين بيننا وبينهم . والطلب
الآن انه سيظل يتنقل حتى تنتهي من العمل . توصيات
عادية : ارفعها جيداً ، لا تليق عقلت معه مراراً ، عباس .
كن متشجعاً .. يبدأ العمل في السادسة صباحاً ، وينتهي
في الساعة والنصف . اذا انتهى الامر ، استنظوا
ليلاً . الشركة تطلب هذه الاشياء . « وافقت .. ليس
بمستطاع ان اعرض ولا ان اتعج ، لا اعرف ان أية
مبادرة من هذا القبيل ستتعرض لرفض والسخرية .
وقلت ساحاول ان اعمل ما في المستطاع . لكن عاذلي دائماً
هي عاذلي : كنت اسمح لهم بقدر الامكان بأن يستريحوا .
وايضاً ، ان يشربوا الشاي على رسلهم . وايضاً ،
اذا ما شعروا بالتعب ، يمكنهم ان ينصرفوا ليجلسوا .
كنت اعرف انني لو سمحت لاديت التمن غالباً : تفضلي
الاجرة ، وتوجيه التذليلات بالقرء .. الخ . تلك هي
الطويات التي للحق باثمالي . وغالباً ما لم تكن الشركة
تستطيع ان تستغني عن احدنا ، حتى ولو فعل ما فعل
ونفس الشيء بالنسبة للمهتمس . فقد سبب مهتمس
قام بعملية تزوير فائمة بمستنزات العمال في إحدى
الاورشات . وبدا من الطرد ، عولب بتفضلي اجرته لمدة
شهر واحد . ذلك نوع من الطويات التي لنقل برؤساء
العمل او الهندسين . الضم فلف . سبب ذلك اسباباً
التي التي لعانيه الشركة من هؤلاء المستطعين . كنت
العمل ما اريد تقريباً ، مراعيها عدم التباينة في الصيغتين
وآخر قوانين العمل . كانت بقصة خياص ، هنياً فلف .
لوح لنا من بعيد متفرقة ، وفي ذات ليلة ، وكانت أيضاً
بعض القلوب . وبعض الاحجار القصيرة ، متفرقة على
مدى البصر من جميع الجهات . وخلفنا كانت هناك طرق
كبيرة تؤدي الى مكان الجنوب ، ربما الى مدينة رئيسية
في المنطقة . وكان علي ان اكتشف المكان على الاقل لكي
اعرف أين يمكن ان انهي نهاية المطاف . لقد مسالت

الهندس ، وقال انه يمكن ان توجد هناك - انا لم تعلمه
الذاكرة - على بعد عشرين كيلومتراً ، فهي تبعد اودية
لم يصعد جنسيتها . وفكرت بانني الامر ان هذا شيء
مسل حقاً ، بل شيء رائع واسمائي . لكن ، كيف امكن
الي مكان ؟ ليس لي حوزتي سيارة او شيء من هذا القبيل .
التمت الهندس ان يتوصل لدى الشركة كي احصل على
سيارة جيب . كان هو يملك سيارته الخاصة ، التي
يستعملها بمقابل . ونظراً لان العلاقة بيننا لم تكن الى
حد ما قوية ؟ فقد كنت اظن ان افانعه في مسألة نقل
حد . عند نهاية الاسبوع الى القهي ، حيث نستطيع ان
نلقي ليلتنا بالشكل الذي نسمج به الظروف . كان
شاباً من « تارودانت » متزواً بنفسه ، رغم قصره الجبالغ
فيه . وحينئذ اتى لا تبحث على الاحترام . كنت اعرف
منى الزهو الذي يشعر به رجل في مثل وعصيته ،
خصوصاً مع اناس هم دونه في العمل والثرية . ورغم انه
لم تكن له امرأة على ، فقد كان يعتقد مع نفسه انه
يستطيع ان يامرني باتسياد خارجة من معله ، كنت في

لكن الامر اصبح على عكس ما كان عليه . اضنى ان حياتي اليوم أصبحت ذات ارتباطات خاصة ، وذات طعم خاص كذلك . ثم ان العمل احيانا ، لا يتنزه الاقوال التام عن جو المدينة . فقلنا نحدث امور مثل هذه ، مثلما هو الشأن اليوم . ومن يدري فربما يجره امر خاص من فوق فانقل دون ان اتمم الفصل ، ويتولى آخر المهنة التي اقوم بها . كل شيء محتمل ، وكل شيء قابل للتغيير ، ونحن لا ننسى حياتنا بانفسنا . ان سلطتنا على حياتنا بسيطة للغاية ، وعشيلة جدا . فثيرا ما تفشل نوابنا ، ومطامحنا لان الظروف ليست بديتنا ، ولكننا بين ايد خلية لا يعلم سوى الله وحده ان هي . هل هي للتياطين ام للملائكة ؟ فمثلا ، كنت اتوى ان اصبح وانا شاب طبيبيا كبيرا له شهرة وصيت ومال . ولكن هل تحقق كل المطامح ؟ ابدا لا .. الامور معقدة جدا . وهذا ما كان غالبا من ذهني ، الا اني أصبحت اميه جييدا ، واعرفه معرفة قوية على ما اعتقد .

لم اتم دراستي لاسباب خاصة ، لا تعنى احدا ، كانت مطالعي بعيدة جدا ، وكنت مفتحة على عالم هو من اختراع احمالي الريفة - وفيصة ، ثم اعرف كيف التفتت بالعصل . ثم اكن لاجاز الشائعة حشرة ، ولم اتم حتى دراستي التثاوية . فبابة ، فر الصجور ابي ، مع مثبلة .. هكذا وبلا اني مرافقة ، ورتكي واني . ولم اعرف ما الذي افعله . من يولني ومن يعول ابي ؟ اسئلة لم تعرنى كثيرا . لاني ، وبلا تفكير وجدني اشتغل بالثركة . كنت محظوظا الى حد بعيد ، فانجسني في مستوى ووضعتي لا يمكنه بهال ان ينظر على عمل تعنى ولو دفع ماد وجهه وكرامته .

دخلت على ابي .

- سي عباس .

- اي نعم .. ابي .

- تعال يا ابني . اقرب . اقرب .

واقتربت ، وجلست مطرفا ، كانت مجوزا لا تقوى على شيء ، شديدة الضعف ، خالية من أية رغبة جنسية . ولم يكن في عينها ذلك البريق الشهواني الذي نجده عند غالبية النساء . كان قد انهلها زوجها . ولم تعد تصالح لشده . جلست بجانبها ، واملتها حتى تنفست او نهدت بياس مر . ثم قالت :

- ابوك دارها (اي فعلها) .. تعرف هذا . ماذا

تفكر يا ابني على امك ؟ الزوجان من جديد ، ام العمل في احد المعامل ؟ اقترح على امك يا ابني فقل ما شئت .

فلت مسكتا وفهمت ما كانت تمنيه بالفريط . العمل ؟ هي لا تستطيع ان تفعل شيئا . لقد أصبحت جثة . مجرد جثة . الزوجان ؟ هذا ايضا شيء مستحيل . ولا يمكن ان اسمح لامي بذلك . لم . لم من يستطيع ان يتزوجها وينقل عليها وعلى رجل في سته . وفكرت . كنت

امام الامر الواقع . الحياة صعبة . والظروف تسير كما تريد . واقترحت :

- ابي . لا تفكر في هذه الاشياء . ساتولى الامر .

- تفكر يا ابني . رد بالك وافعل ما تشاء .

ويدات اشتغل لم اعد اسمع شيئا عن ابي ، في اية مدينة هو ، وهل اتجيب اولادا ؟ كنت تريد فقط ان تعرف اني هبته الاشياء . وفي الواقع لم اكن اتسحر باي حشد تجاه والدي . فهمت ظروفه وعذرتها . ان الانسان غريزي .. حيوان غريزي . واكثر من ذلك ، يستطيع ان ينظر عن كل شيء مقابل لحظة خاصة . رجل والمرأة على السواء . وفكرت لنفسي : يعلم الله ماذا كنت تفعل ابي عندما كانت شابة .. هل هي فبسة ؟ لا .. ليست فبسة ولا شيطانة . ولكننا واحدة كالاعراب والاكابر . هي مثل ابي . ومثل التيذهبت مع ابي . مثل كل الرجال ومثل كل النساء . فلا احد يتوخر من ان يفعل انصبة عندما تاح له الفرصة لذلك طالما شمرت بحافطة خاصة تجاه ابي . ولعنتي فقط لو يزورني حتى ولو مع زوجتي . ولكن اين هو ؟ وهل يفعل ان يعود ؟ كان فاسيا ، فلما غلبت المصافاة والظلم . ول نظري ان الاپ ، أي ابي ، ليس من حقه ان يكون غشنا الى هذا الحد . فتن محاسبون ولو يسقط يسقط من الانسانية ومن الرحمة . من يطالبنا بذلك ؟ لست ادري . ولكننا مطالبون وكلي . الحياة تعنى تحت المطالبة والمطلب . وهذا المطلب والمطالبة هو ما يستعمله فيها اتفهم بالمسؤولية . لم يكن ابي مستقلا في يوم من الايام ، لا انا نفسي ، ولا امام اي احد . كان جميع الثقة بالنفس الى جانب ذلك . وكان لا يفكر في لطفاته ولا في لحقات ليرة . وفلت لامي يائني ارفق في رغبة ابي ، فلها مرارا ، ولطالما انتظرت لخصبا نلريا منها ، ولكنها على العكس لم تكن لتتور ولا تصعب حينما كما كنت اغفيل .. كانت تنظر الى يدها ويوفار وبالبلة كالقطة الصجور ، امام صغارها . لم تقول :

« ابوك اين هو ؟ لا احد يعرف . هو لا يعرف في رغبة احد . سنوات مشر تعنى . ولا يفكر في ابنته ، او في زوجته التي فصى معها عهده كله » . ثم نصمت . ولا تعنيف شيئا . نفس الكلمات تسكر وتنبس البرود ، ونفس الحركات . وحيانا كانت تعنيف : « فتن منه الغنيا ، ابو المسخوف . ابوك العاهر .. تجد الشياطين في طريقك ولا تجده . » مشر سنوات مضت ، بل انني من ذلك . زين ابي ؟ لست ادري . ربما يكون قد مات ، قد رحل . فغير معقول ان يتصف اب بمثل هذه القضية . مشر معي . كانت البائسة تشكو من تركي لها اول الامر . ولكننا عندما تصودت ، أصبحت قادرة على الصبر . كانت لزوم البيت وحدها ولا تفاديه الا لاما .. احيانا كانت تعصي . وحيانا اخرى كانت تخرج لتتفرق ، وتنتشر في الارض ، تصالون ان تفرس البصل او الثوم او البطاطا او التمايح . وكانت تقول :

« الحركة بركة » فلم تكن تطيق الجلوس المستمر وحدها

في البيت .. فلو انه خير من لا شيء ، وريضة نضاج خير من لا شيء . كذلك . لم انه بالرغم من التعب الفيزيولوجي الذي كان يبذل عليها ، كانت تتحدى وتحسن ذاتها ، وتتحرك ، وتفرج ، وتنفذ اشياء ، ربما هي ليست في مستطاعها . كنت ادركه انه ليست لها قدرة على العمل ، وان ما تفعله ليس سوى محاولة نظيفة ، ومحاولة شغل اليل ، وراحة الصبح في العال .

عندما التحقت بالشركة ، لم اكن اتوقع ان الامور ، اية امور نسج كما نريد . ببساطة التفتت بالعمل وبسهولة كذات . كنت ولا بالغالب .. تلقيت في اغلها . ولكن التجربة دلت على ان لي قدرة غريبة على تسيير الامصال خارج الجدران ، وبني رغم انهم اني توجه الي من كوني شديد الحساسية ، بالرغم من هذه الاشياء جميعا . كنت سمروا على اني من اثنين يتجزون الامصل هي ام وجه . نو . لم ان ما كان يتمتع به زملائي من سعة سيئة في الغالب : السرفة والتسوق من العمل بلا اثن ، كل هذه الاشياء كنت منزها عنها . جيت مرعبا ارجاء البسلة . وكنت مرشحا الى اللهاق الي دونه اهرقية . تعالفت الشركة مع حكومتها على انشاء طرق صغرية وكبيرة . كنت مرشحا لذلك . ولكني رفضته ، فليل الرقص بسهولة . اسباب خاصة في الواقع ، هي التي كانت تدفعني الي الانحصار عن الهجرة . حتى ولو كان مردود ذلك كبيرا . الاجور تتصاعد ، والاشتياكات كثيرة ومتنوعة . ولكني كنت دائما ارفض . فمقاسمات مثل هذه لم تكن تعطيني سوى الشعور بالنظافة . وليس دوى بالبسيط لماذا ؟ فالتفاحة غالبا ما تنتج عن افسان يقوم بها المرء ، وليس رافيا عنها . انا ، شخصيا ، كان شعوري بالتفاحة يزداد ويتنام . ولم يكن هناك سر في ذلك . ربما لاني فقط ، لم اكن ارفض في ان اصبح غنيا . ان مجرد التطلع في افني يصفني تفاحا ، وفي ذي ليفة . كنت بدو تنفسي حقرا كالجرذ عندما افكر في الثروة ، بل احقر من الجرذ . وعلى العكس من ذلك كانت امي تدفعني ، كلما ابحت الفرصة لها ، نحو ما تسميه بالبعد . وشخصيا ، كنت اقله ان اوان المجد فلت . تلك اوامع يتعلق بها شيان في سن معينة من حياتهم . كنت ارفض فقط في ان اميش ، اتمام واكل ، وارتمى ليابا نظيفة ، واملك بيتسا لا ادفع ثمن اجاره (ولعد الآن لا املك هذا البيت) ويبدو لي اميلا انه من الصعب على المرء ان يكسب ماوى ليلا اليه . فالتفاحة معتدة تتطلب المزيد من الغلوس ، والزيد من الرفاهات الجاهضة ، التي ليست في جوهرها سوى فناء وشحاسة لذلك ، فعندما اقرر على العمل هذا ، في هذه التفتة بالجنيوب ، لم ابد اني تظف ولا تيرم ، بالرغم من اني لم اكن اعرف التفتة ، ولم يسيق لي ان زرتها . كانت فرى منتشرة هنا بغلوس ولا نظام ، بل انها لم تكن فرى بما لكلمة قرية من معنى . مجرد خيما فقط متباعدة بعضها عن بعض ، واحيانا يستطيع المرء ان يرى بعض البيوت البيضاء او الحمراء على حد البصر . لكن ذلك

قليل .. واحيانا اخرى طيلة اليومين ، لم نستطع ان نشاهد ولو حيوانا يريا او الطيا مع ان هذا الخلاء الواسع يغري بتكاثر الحيوانات . الارض صلبة وظالمة . لكن هذا لا يمنع من انتشار الحفرة والتباتات حتى ولو بين الاحجار .. اغلب الظن ان الصحراء بجمعة من هذا المكان ، بالرغم من انها تبدو قريبة جدا على الخريطة . ومن يدري فربما تكون الصحراء هنا على بعد مشرين كيلومترا فقط .. لا تسكه ان الكهنيدي يعرف الامر ، ويعرف مقاييس خطوط الطول والعرض هنا . لان ذلك كما يبدو لي هو شيء من اختصاصه ولابد قبل ان يعطى الاوامر ببسدة المعمل ان يتعرف على طبيعة الارض التي سيرشع في اصلاحها او تبيدها . قلت للكهندي عندما نزلنا في الصباح ، ان الارض هنا شبيهة بانتي اشتغلنا عليها قبل ثلاثة اشهر ، هناك قرب كارجيسيت .. لكنه لم يرافقي ولم يعارفي . ولربما كان ملي حق انه لم يزد التفتة . اشتغلنا فيها برفقة مهندس آخر تشيكي الاصل يعمل لحساب شركتنا .. لكن المهندس نظر في وجهي مليا وقال من خلال انفه بلفظ مزكومة :

.. هل تعتقد ان العمل هنا صعب ؟

قلت ولنا اقل الارض بهذا :

.. هنا ؟ كنت ادري .. الارض شبيهة بتلك التي قرب لارجيسيت ، ومع ذلك النجنا العمل .. ومن يدري ؟ ربما تكون اسهل . هناك البولندي ، وهناك الغلوس والاديات والمصالح .. كل هذه الاشياء تسهل العمل حتى ولو كان العظيم المقديد .

قال المهندس الشاب :

.. المصعد يمكن ان يصهر . اما الارض ؟ المسألة بنظري ليست مسألة صعوبة ، لكن مسألة تأخير العمل . عليك ان تسجل ما امكن حتى ولو التفتي الامر الصعافة بعض المساعات .

قلت ولنا انظر تجاه المكان الذي نصينا فيه الخيمة :

.. المسافة بعض المساعات مغلول . لكن المصالح لا يعوضون على ذلك .

قال وهو يمشي

.. هذا امر لا يفتيك ولا يعينني . انه امر يخص الشركة .

لم تركني . وبلينا هناك نعد اللوازم لنشرع في العمل ، في نفس اليوم . كنت اشعر ان الامور اوضح في ذهني . سوف نخطف اولا وسوف نضع في المعمل طيلة هذه الامة . واصلت ادري كيف بدأت اكثر في مي المعجوز اتكل . بالرغم من انه لم يكن هناك اي سبب لذلك . تلك حالات خاصة كانت تتباين في بعض الفترات ، سواء وقت الفصل ، او غلوجه .. حتى في التفتي او في فاعة السجينة ، او في الشوارع ، كانت تبدو لي امي

بالسنة شقية ، ومهزومة . وكنت افكر دائما ان ابي هو الذى هزمها . لقد تركها جثة ، او كما يقول العرب القدماء ، تركها هامة ، لا تصلح لاي شيء .. لعل هذا ما كان يجعلنى افكر فيها باستمرار . لكن عندما كنت اذكر اسمائها اليبوسية البسيطة كنت 'شعر براحة' ، وابتغى انها ليست فلكسة ولا خائفة ، خصوصا وأنه لم يكن لي امكان ابدأ تقدير الالام الذى يشعر به الآخرون ، فذلك خارج عن طائفتي ، أعرفه ولا اتعامله .



كانت الاحجار نائمة ومدينة تحت القميص . رأيت ظهور القويح تعلق بعيدة حول الغمام ، نوحم في الوقت الذى كنت اسمع فيه اصوات الفؤوس ، وهي ترتطم وتزن فوق الاحجار .. مشيت بيده ، والفتات في ظل البولنيز .. وقابت ظهور القويح .. ثيابات ميتة وخدره ، كثيفة ومقصودة بين الاحجار .. الاجسام ارتفع لتعذر وتكون على نفسها كالنود * ورنين الفؤوس ، وصمت غير شرعي يتحدى المكان تحت ظل البولنيز الممتد الى بعيد ، من جدار الصخرة الصخرية .

لعبت كثيرا اليوم ولم تكن لي اية رغبة في العمل . كنت اسير ، انقلب احيانا وأعود لتأمل ظهور القويح الى نمل الفضا . وحيثما انظر مالمح الى جبل مسنم احبب كاتل ، احيانا 'خري الصدور الجبال تلالا متحركة في فيلم هربي .. لا احب الافلام الحربية' ، وفكرت في واحببت الظل . لم يكن الهواء كثيفا غائلا ولا حاراً ، رياح خفيفة ومعقدة من شهر نوفمبر هي التي تهب في لاني صرخة ثم تتوقف لتتحلل قوة جبهة تتألف السيل بعد ذلك . اخرجت سيجارة وفكرت في الريح ، الريح التي تأتي من 'ي مكان او من لا مكان . هل هي نفس الريح يا ترى تعني لتعود بشكل او بآخر ؟ رأيت الاجسام المتحنية كالديدان ، المكتوبة كالديدان . صوت الفؤوس وانظامها بالاحجار باهتة الى حد القل ، الى حد الانتعاش . وقلت ونظرت خلف البولنيز . ولم يكن هناك سوى لون ابيض بشكل قبة بعيدة في الانسجام القريب .. انعام وهمية تأتي من هناك . انعام لكن بلا وقع تنبط وتتعد الى اسفل . احييتنا تختلط مع رائحة اعطى اللثة . وحيثما اخرى تنجح سرعة وتخرق تلك الاجسام التي تنشي الارض . كنت اتصرخهم وقد استمعوا لها ، ثم سقطوا جميعا من حراء الانفصال الى الارض . وفي الواقع .. لم تكن هناك انعام . هناك هاوسات فقط ، وخلاصات كثرة التشيب . دخت وملات صدرى ورتسي . والتجهت وسط حجم قل البولنيز .. ووقلت قرب الاجسام المتحنية التي تنشي الارض . واقرحت لاشعور على احدهم :

.. اسمع ، يمكنك ان تعني خلف قنور .. هذا انظر يستطيع ان يعطيه يرواك . وهز يرواك راسه ، واداع اللسان على نصه التحني ، ونظر جهة الخيمتين ، وقال بانشرح :

.. اى نعم سي عباس ! أنا فعلت هذا .

ولم يتكلم قنور . كان لا مباليا بالحوار . ترك الناس في الصخرة وانسك باليالة ، ملى بها وهو يسبحا فوق كتفه . سار كمن يمشي نحو هدف بعيد ، وفكرت ان هؤلاء لا يعرفون تلك الانعام التي تتحدث من ذواتنا . نظرت الى رفصة كبيرة في مؤخرته ونظرت الى رجله اليسرى المحاطتين اللتين ترتطمان بالاحجار .. ولست ادرى اذا كان يتألم ام لا .. سار ايضا وانظر الى المسير . وقلت ليرواك :

.. تصرف بالناس اولا .. خذ بالة بطي .

اجاب :

.. سي عباس . انظر هناك . البالة لن تفعل شيئا . الناس اولا ترفع الحجر .

بطي .. الارض رطبة امامه وهدير يعتسج الى البالة . انظر هنا ، الارض طرية .

.. صحيح .. احرب اولا تحت الاحجار . ولذا انتهيت خذ عربة يد وانتقل التراب من هناك .. لتعلا المنطرات .

قال نعم يراسه ، ولزقت القوايع فوقنا . وازاح بطي طائفة وتراد راسه تحت الشمس الباهتة . كان قنصني يهيم ، أوتنظر باتجاه الطريق . بل ينظر نحو اشجار صخرة كثيفة وتماسكة بشكل غابة . ولكنها نادرة وقليلة ولا تملأ الاقبي . 'شجار كالنوم بلا قامات .. كالنمل .. وشعرت رافة تلزو قلبى . رافة على من ؟ لست ادرى . ربما على نفسي ، ربما على الآخرين . واخرجت سيجارة وبدأت ادخن . كنت كثير التدخين في حالات خاصة ، اشعر فيها يباس من كل شيء وبجسدى لا شيء . ونظر بطي لي وجرى :

.. سي عباس ، اعطيني واحدة !

ورابت راسه الصارى ينتفخ ويتفخ حتى يصير بحجم القبة . اخرجت سيجارة واعطيتها ايماها . كان من نصف طرية . ولقمت الياسي لهم . ولقيت الى راس الطابور ، والاحجار نازح قدمي ، ورنين الفؤوس يتواتر في الهواء . وقلت لبحري في مقدمة الطابور :

.. هل تسير على الخط دائما ؟

.. نعم ما يزال مرسوما . اسمع دائما في الانجاء .

ثم توقف بصلاية :

.. سي عباس .. هل لدى ماذا هناك ؟ البيت الثاني على اليمين ؟

قلت :

.. لا ..

.. اسي .. ذهبت وحدى ، وتحدثت بياح الكلاب ، ودخلت . هل فهمت ؟

قلت :

- نعم . فليعد ان هناك وليات .

- نعم . وليات واي وليات ! خدمت ذلك عندما رايت حركة غير عادية دخولا وخروجا .

ونظرت في البيت التتالي الى اليمين . لم يكن هناك اي آدمي يتحرك . هل صحيح ان الوليات يوجدن حتى هنا ، في هذه المناطق النائية .

وقلت لبحري :

- هل انت متأكد ام انك تتكلم ؟

- والله يا سي عباس . نستطيع ان نرى ذلك بنفسك . اربع وليات صغيرات . جثثك امس ووجدنا نائما . لم ارد ان اولئك ، كت نائما وكتاب فوق صدره مفتوح في نصله . كتتم اقرا ولا شك لم تمت . لم اجد بحري ، بل نظرت في الطابور خالي ، ورايت اجسامهم متحنية كالدينان . لم سمعت هدير محركه قادم من



بعيد . وسمعت الضربات وتوقفت السيارة عند الضيقين خلف البولندر ، وخرج الهندسي الشاب ونادى علي .

قلت لبحري :

- هيا اعملوا ، ودائما في نفس الاتجاه .

قال نعم ، وانحنى .. ثم صارت دودة مشبل ياللي الدبدان الاخرى ، ونشرت بالاحجار . ورايت الهندس يبدو على نفسه ويدخل في السيارة . وادار المحرك وعاد من حيث جاء . اخرج راسه ولوح لي بيده . « ساعدو بعد قليل رجعا .. » ثم لبثت والفسا في مكاني قرب البولندر ، وحولت عيني الى البيت الثاني من اليمين . وبقيت مركزا وعين حافرا كائمن . ولم يمس هناك اي آدمي . فلاوليات ولا اي شيء . بلين الفلوس فقط ، واما الآلة الضخمة بيته نهر الرجال الذين التحت ظهورهم وتلوسست كالدينان فوق اكتراب ، ورايتهم ينشسون ويهونون على الارض .



مد بحري يده الى عندما تعثرت بالاراس ، لم اخذ يلهث كالكلب وسبق الليل الخليل . ولجأؤني بحري سعة اختار وتوقف . ظلت في الحفرة بضع لوان وخرجت فطكت به . وجهه لا زال يلهث كالكلب . بحري يلهث كالكلب . وكان البيت التتالي من اليمين هادئا وفيه قعد . ومد بحري يده تجاه البيت في سيواد الكليل وقال :

- هيا . نحن هنا .

قلت لبحري :

- اتهم نائبات .

قال بحري :

- لا يهم . سيكون الشيخ خلف صلالة الباب .

قلت :

- من الشيخ ؟

- هو ، ليون او اخوه . او .. الوليات .

- هل سمع الشيخ ؟

- نعم قالت احدها انه مبعين .

قلت :

- الذهب وحده .

- سي عباس !

ولم اجد ولم التحرك . توقفت قدامي اليمين عند حافة الحفرة في الليل الخليل ، وبدا لي بحري جزءا من الليل . ولم يكن ، في حقيقة الامر ، شيئا كالليل . الليل هو الذي يشبهه . او ان كليهما لم يكن يشبه الآخر . ثم اخلت الحفرة تلور تحت الدمامي ، والفود يزداد كمانا في البيت . وسار بحري بعيدا وغاب ، دخل في لآل ليلى وغاب . لم اخرج من نفس الكتاب ومشى نحوى . ونظرت اليه ، لكنني لم اكن اراه ولا اميزه .

- سي عباس : هيا فالوليات موجودات . الشيخ
وراء الصلغة كالجرو ، وقيل ان تدخل في الثقب ، تنفسته
ورابت اصولها البائدة في البعيد . لقد توقفت الاجسام
من الاتواء والانحناء الآن . وهم ربما يلعبون الورق ، او
يلعبون اوراق الشاي ، او يتصونها ، لانها تحتفظ بقلعة
فلاذلة ، وتحتزن كمية من السكر صلبة للصاب . بل ربما
كانوا يلعبون شيئا آخر . وربما خرجوا للتفوط في الفلاد
بين الاحجار النائية . هذا في الصباح سيجدون ففصلاتهم
وله ففقت لونها الاول ومبتلة بالندى . وربما دفنوها في
حفرة صغيرة مثلما تدفن بعض الحيوانات . بل ربما اخطأوا
بعضهم ووقع فيها فبصحك عليه زملاؤه . وعندما تلتفت
رايت جسما موكما لي الثقب ولم يكن له اي شكل ، ولاظهر
منه اية علامة تميزه . وبدا وجه له عيان وانف وهم مثل
السيكس . وعندما تحرق ظهر وجه وسط دائرة من اللماش
وكا انتفخ اللم والنفخ الفصح انه بالكل مثل السيكس .
سيكس مجول وفقد ، لم ظهر اللماش بسرعة ذلك الوجه
الذي يشبه جسد الطوف ، واخفى الالف والعينان ،
واستعاد الشكل وفسمه اللماشكي . وقال بعري :

- الكليل جميل !

قلت :

- الهواء رائع !

قال : - الوليات السالقيات .

قلت : - التاسي كرماء .

قال : - مثلعب لئري .

قلت : - لا داعي لذلك . لانا لسنا في حاجة اليه .

قال : - الارضي صلبة وفيها احجار .

- اي صحيح . وستعملون مدة اربعة ايام احسرى
او خمسة .

- وماذا بعد ذلك ؟ هل ننتقل ؟

- مكان آخر ينتظركم خلف المجموعة الثانية .

قال بعري :

- سي عباس .

قلت : - بعري ؟

قال : - الوليات اتساليات .

قلت : - الانعام الكثر وتكاليف وانتم تيمون كالعبدان
في التهاز .

قال : - سي عباس !..

قلت : - بعري ؟

قال : - سي عباس !..

قلت : - نعم بعري !

قال : - الوليات اتساليات .

قلت : - الشيخ ليس اباهم ولا اسم .

قال بعري : - سي عباس ..

قلت : - نعم .

قال : - رايتك تطو بالجزء الاسفل من جسمك ؟

قلت : - تطلب بعري .. كيف رايت ذلك .

قال : - رايتك رغم ان الفرفة كانت عظيمة . الم
ترني ؟

- لا ..

- لانا ؟ سي عباس .

- كنت افكر في الشيخ .

قال بعري :

- سي عباس ، هل ناتي كل مساء .

قلت : - تترك المجال للآخرين .

قال : - سي عباس . لا تقل هذا . انهم يظفون من
الغلاب .

قلت : - اي غلاب ؟

قال : - الله ! سي عباس .

- انه ليس قاسيا بالشكل الذي يتصورون .

- من اندرك سي عباس . الحق . الله اعلم .

ومع اني بعري يده في الكلام ولم اسقط في الحفرة
هذه المرة . كان هناك نوره في الارض ، بل تنوعات . وكانت
الاصوات كثيرة وباطنة ومترافقة في هذا الظلام الاسود القود
في البيت الثاني من اليمين . والقصود في الخيبتين . وظهرت
لنا الآلة البونكيز عالية وضخمة كالجبل . واول مرة
شعرت اننا في صحراء . وتخللت ان مشات من الجمال
المشارية تهجم علينا وترلسنا وهي تزيده قسنا وتخرجنا
حتى نموت . ان الجمل المشاري بإمكانه ان يزل خيمة
بسهولة وان يدوس عشرة اشخاص دفعة واحدة . وقلت
لبعري :

- بعري . هل لك فكرة عن الابل المشارية ؟

- ؟ه ؟ سي عباس . لا تتحدث عن ذلك . انها تقتل
في ثانية .

قلت :

- هل سبق ان رايت شخصا قتله جمل مشاري .

- العتيقة سي عباس ، لا ..

قلت : - افكر الخيبتين . انهما تشبهان جملين

مشاريين .

- ؟ه سي عباس . صغلت .. الاحجار نائلة وهواء

الصحراء رطب في الليل .

قلت : - بعري ، هل تعود ؟

- سي عباس ، الى اين ؟

— البيت الثاني عن اليمين .

— يقال إن الأثر من ذلك يذهب بالصحة ،
سي عباس .

ومضيت صامتا قرب بحرى . وسمنت الانقسام ،
وحاولت أن اتخيل الانقسام فلم أستطع . الضوء ناعث في
الكائن ، وهواء رطب أت من الصحراء ، وتخلطهم جميعا
يتعدلون من انماهم ومشادهم . ولغيت أحدهم وهسو
ينفخ على النار في الكؤود ليهيئه البراد الثالث أو الرابع .
وانتهيت الى أن يعزى بعب الا يكون مكلفه الى جانبى .
ونظرت اليه في الليل وهو ينتشر . لم قلت له :

— يعزى عم مساء .. الذهب فهم يتفكرون .

قال يعزى :

— عم مساء ، سي عباس . الهواء جميل وربما لن
انام بعد .

قلت : — عم مساء . الساعة السادسة صباحا
فدا .

ونظرت نحو الاسود الباهتة ، حيث المولييات ،
وحيث الشيخ الذى لأشك له ، وكنتى لم أكن أهم شيئا .
وتلفتست ودخلت الى الخيمة . وسمعتهم يتحدثون أيضا ،
ولم أفهم مايقولون . كان هواء الصحراء يدخل من القرب
الخيمة القوية .



خرجت من تحت الخيمة في الصباح فلففتى الهواء .
ومضيت فوق الارض وفتحت عينى جيدا . خيبتهم ماقرال
ناقة . رايت الندى فوق الاحجار ، ورايته فوق الخضرة
القليلة على التراب ، ورايت الشمس كذلك . ما البولمزر
فرانسة كالجمال بعيدا بلا حراك . وسمنت مهمة لي الخيمة
الجاورة ، واصواتها لطف . فرجعت الى خيبتى ونمت من
جديد .

استيقظت في العاشرة ، وذهبت الى المجموعة ،
واخذت فاسا وضربت امام الطابور على الارض . وقلت لللى
خلفى : (الارض سبعة نوحا ما ..) لم استمر في الحفر نولم
استمر في الكلام . وعندما ذهبت تحت البولمزر رايت 'مى'
وهي تحفر مثلم : دودة مثل باقي الديدان ، تفرس البصل
وتنشيط باقافرها الترية التى تتجمع تحت جذور النعناع ،
لم تلتفت الروث 'و البعر باصاها' المتشنجة ونوزعها
بالتساوى قدامها . وتلفس اصابعها ويديها لم تفلح بنصب
ودخل الى الطبخ . رايتها كذلك تقشر البصل . فتدعم
عينها ، وتضعه في صحن وتلقف صنوبر الماء فيفرغ بحرية
وحشرة كالنول . صوته منكم كهوت الدل الذى يسيل
من قامة طويلة . راسها وقد انتهت عمليا في الطبخ . لم
خرجت لتفتش في الصلة وهي تقول : «ايبنى سي عباس» .
سيترزم نصرانية (اى اودوسه) .. يعرف اكثر من
حملات كالاكة .. لم بعد ان تنهى حوارها مع نفسها
او مع غيرها تكفل لترفع لسان الاتاء ، وتكسب راحة البصل
من جديد ، خلال سحابة البخار المتصاعدة ، لم اذا عرفها

الاتاء تسلمه بطفة وتستليث يسبحى هنى : « فدا .. »
اسيدى هنى « وديما يسبحها سيدى هنى او لايسبحها »
وتنت البولمزر رايت اشياء اخرى كذلك . الديدان بشكل
الوقوس لها اشياء تنطفش وتلعو الى ايديها . ونبضت عن
اقدامها زنين حاد اذا خافت . وترتفع البساتل ' فتتقبل
التراب بسرعة الى الى غريات اليد . لم تسرع غريات اليد
فتفرغ ما في جوفها في الجانب الايسر ، وتعود خالوة ، كما
كانت في السابق ، واسمع واناقل اصواتها :

زيب ليظ .. زيب ليظ

زيب ليظ

زيب ليظ .. زيب ليظ

ليظ

زيب ليظ

لم تهوى الوقوس وترتفع البالات وتلعا غريات اليد
من جديد . شعرت بتحمل لي قلمي ، وببرودة لعنى ،
فوسمت رجلى . واخذت اسمع صوت ابنة جارنا المملة
وهى تتحدث الى امى . لكنتى تظلمت عن ذلك ولم اسمع
صوت ابنة جارنا ولا حتى صوت امى ، بل اخذت اسمع :
زيب ليظ زيب ليظ زيب ليظ زيب ليظ .

وافلقت غريات اليد من جديد . وذهبت قدام
الطابور ، وقلت لبعلى ان يتاولتى البالة فقلتى انتراب .
وشعرت بمضلاتي توتر ، وبالقلمى تفرص في بعيرات صغيرة
في اللاء ، فسبحيت قلمي الكتين ابنتل حلالهما ، واستمرت
في تظلمت التراب والندى وجهى الى يعلى وقلت : هيسا
استجو . فاقط البالة واستمر في تظلمت التراب ، ورايت
انماها بالقرب لرمي الارض الجرداء فتظلمت بالقلة الصح.
علها . تفرقت الانام ورجعت بعيدا من الرجال . فلفق
في قدور وقال ترسل :

— سي عباس .

قلت :

— نعم .

— اريد ان اطيخ شيئا .

نظرت في اسفل قدميه ، ورايت فردى حذانه
المزقتين ، واصابع رجليه نائلة كجذوع الاشجار ، بل
كالبطاطا ، وذهبت منى الى وجهه فيما لي في اسود
اصابع قدميه قلت : « لذهب واعمل حساباته » .

قال بفرحة كبيرة :

— ولم لا ياسى عباس ؟ كاسك هو الاول .

— اطعم النار كثيرا .

— كما هي العادة سي عباس ، مشعرا كما هي
العادة .

قلت :

— هل تبيخ في القازلة هذه مرة ؟

— اى نعم سي عباس . شيئا رائح . احسن من
البراد . البراريد لايفي .

— طيب ، اطبخ جيدا .

— نعم سي عباس .

ومشيت حيث مشت الانعام ونفرت . دريت بيوتا قصيرة ملونة ، وباهتة اللون متفرقة في فسحة ، واخذت اسمع اصواتا صاعدة : زيت زيت زيت زيت زيت . ذلك ذلك ذلك ذلك زيت .

ومشيت بعيدا قليلا ، وبدأت اراهم وقد تجمعوا لم تفرقوا حول الارض كمن يوزعون غنمة . ولم تح اسمع الاصوات او رنات الكؤوس . وسمعت صوت موتور ضخم لشاحنة ربما .. التفت لكي لا اجد شيئا . كان قليل من اليوم مسيطرا على حياتي . كنت وحدي وحككت اسفل بطني .. اسفل اسفل بطني . عند العانة مباشرة . ثم بدأت اسمع في لا وهي : زيت زيت زيت زيت زيت زيت زيت زيت .. الخ . وعندما سمعت هذه الاصوات . امجنتني ولم تصابقتني فاحللت اردد وانا اضني بعيدا منهم : زيت زيت زيت زيت زيت زيت . وسمعت ايضا : ذلك ذلك ذلك ذلك زيت .

كانت الشمس حارة نسبيا ، فجلست تحت شجرة ، ورايت مجرى مائيا ينحدر نحو اشجار قليلة كثيفة . البيوت قليلة بيضاء . وفي ذات لون . البيوت قليلة قليلة . فغدا أصبح لفظ في المكان . وبدأت البولارد تهدر في سمي . وتعليلها تلك صلابة الارض ، ونسوى الاحجار . ورايت عجبتها الحجرتين الصخريتين فخلعت منها واصصبايني دمع حقيقي ونهضت ومشيت نحوهم واليا اسمع زيت زيت زيت .. زيت .

اخذت ادوس الارض بكثرة والم . كانت الاحجار منتشرة وطساء . نابتة في الرطوبة والموضوح . يضي الاحجار حادة وتخرق اللحم حتى العظام ، بل تخرق العظام حتى العظام . الدكان فسيج وممتد . وسمعت الاصوات . الضلال غربا . وسمعت الاصوات . مشيت من جسد نحوهم وفهروهم مفرقة وقد برزت اضلالهم من النباهم المرفقة . وغلقت فوق المشي الترابي على جانب الطريق التي بدأت تتلصص معانها انك . ونظرت الى بحري الذي لم يكن ينظر الى . وتوجهت بقسوي الى بطن الذي تتناسق مع رنين الناس والموتل . والتسجبت اخيرا وسط الغنمة . ناديت على قدور وقتت له هات الشاي .

بعد فترة دخل ا

— سي عباس هو ذا الشاي .

— اين هو ؟

— مالنا نفضل ؟ الكاس ام الفراف

— كيفا تريد .

— اقترح الفراف سي عباس . فهو يحتفل بالحرارة

— اعتقد ان الكاس الزجاجية هي التي تحتفل

بالحرارة .

— اعتقد الفراف سي عباس .

— طيب ، هات الفراف .

وجلست عند باب الخيمة القصوبة كالجمال ، في مواجهتهم . واخرجت سيجارة . وجعلت ادخن ورايتهم يملكون . كانوا قد بدأوا يمدون الآن عن الخيمتين . اقتربوا ثم اقتربوا ليستصروا .. واعطيت سيجارة للقدور الذي لم يكن يدخن ، ففتتاولها ووضعا عند كذبة الخيمتين . ومضى نحوهم فتجمعوا حوله ولم اقل لهم شيئا . كانوا اشقياء يعملون بؤس العالم على انباهم . لذلك لم اقل لهم ولن اقول لهم شيئا . ومع ذلك فقد كانوا سعداء الى حد العرية . ورايتهم وقد تجمعوا وانزلت ايديهم اليافواهم . وفي تلك الفترة خلعت الاصوات ولم يعد هناك رنين ، بل كان الضخان والضخاي . ثم استرخيت بجسدي كله على الارض وغرست حذائي في الارض ، ودخنت بنهم وتلفخ ، وشريت انشائي الدالء في الفراف المعنى . ورايت الارض واسعة واشكالا باهتة للبيوت والاشجار . وعندما دخلوا والنجوا نحو الادوات اخذت اراهم كالنمل ، واخذت صورة الدبدان في مفاطلي . وبدأوا يرسمون شبكة شعاعية للتقليد . دخلت الى الخيمة ثم خرجت . ونظفت في الهواء . وارتفعت اصوات حادة حينا وغائبة احيانا .

ولعبت الى راسي القايور الذي بدأ يبعد عن الخيمتين ونزلت القاي ، واخذت اسمع تلمس الرنين ، والتساي بالتلمس العجري .



كل الحظر من السافور ، وظهرت الشمس في السماء ورا . للاشجار . حقاينا نحو النهر وكنا غسبة : الكبير لا يجازي خمسة عشرة سنة والصغير لايل عمره من اثنا عشرة . الصغير هو انا . ظهرت الشمس في السماء ، وكنت الاطار من الانسياب ، غرنا الارض بالقدما وهي واسعة وفجة . فيها القيس والطين . ومشيتا نحو المجرى الصغرى . مسحتا القدما بالششب ودليناها في الماء . نظر الواحد لآخر وقلنا هيا لنموم . وضمو راسي في الماء وثناقلت انهم فوق جمجمتي فاقلت الطعن وشربت الماء . وسمعت المصداغ تتنق وهي نظف . وجاء دور اكبرنا فوضنا اكفنا على راسه ، وشرب الماء وقال : همت - المركزي لله مت . ولم نتركه حتى مات .. وفردنا وكنا صغارا . لم نظرت في وجه الكهنس وقلت :

— بكم تجد هذه الكنقة منهم ؟

— اتهم هناك . وهم العرب البينا فلا تطلب . مشروك كلهم على الاقل .

ومشيت نحو الماء ، وادخلت قلبي في الرمل المبتلة وسمعت هدير البحر . وتغلبلت الافاق البعيدة بشسكل مدن حامية ، فيها كلام كثير ، وفيها اتاس تختلف لغاهم من لغتنا ونظرت الى الكهنس وقلت :

— هل نذهب الى البار مرة ثانية ؟

— ننظر في البحر ونستششق الهواء . ثم تعود بعد ذلك .

وعندما احسست ببرودة الرمل تحت قلبي ، لاح لي وجه اكبرنا من جديد . عيناه كعثمان . في وجهه صرامة

طولية ، واستماص من التثانة ، مشيتا ، وكنا خمسة
الارض متبقية ، وقد كفت الامطار عن السقوط .

ونظر ابي الى وهو يقول :

— من اين لك هذا الفيس في سروالك ؟

قلت بثقة :

— دفعنى حمادى في بركة مائية .

هذا الفيس هو فيس النهر وليس فيس البركة .

انظر الطين . هل تكلب ؟

— لا اكلب . كيف اذهب الى النهر وهو بعيد .

وعندما امسكنا براسه ، ودفعناه الى الماء زعق كركلب .

وقال انه يموت . غير ان احدا منا لم يعترف بموته .

وعندما مات صمتنا وحدتنا في وجوهنا . ولم تكن الشمس

غاية وراء الاشجار ولكنها مشتعلة وكثيرة الانتهاب . وسمعت

حليف اللطى مع حليف الماء في البحر . وقال المهندس :

— هذا المكان قريب من انفى . الطريق التى ننشئها

ستؤدى الى موريطانيا .

— سمعت انها تؤدى الى مثل .

— غير صحيح . مالى لاتعامل معها . ولكن الطريق

ستؤدى الى موريطانيا .

— هل كان الناس يزورون موريطانيا في السابق ؟

— كانوا يملطون . وكانوا يركبون الابل ، اعرف

تجارا كانوا يخترقون موريطانيا ويلهبون الى السينغال .

— اعتقد ان صاحبة البار كانت تتعامل مع اولئك

الناس فقط .

لا .. اولئك الناس لا يعرفون السيارات . انهم

يعرفون الابل ويتعدلون من الصحراء والتخييل والسموات

الحبس ولا يسيرون اوقاتنا .

ومشيت نحو الماء عندما رايت الامواج قادمة بيلساء ،

وتلويبت بالصمت . وشممت رائحة التبيد من فم المهندس .

لم ابتعد عنى فطلعت به . وظلنا ننظر الى شاحنات تمر

من الطريق . وتعالى هدير المشاحنات واربع الدخان .

وتكويرت الارض وفازت الصلداخ فالتت الطين من جديد

وشريت ماء قلرا . قلت للمهندس الشاب :

— لا احقيق طعم الطين .

— ماذا تمنى ؟

— الطين .. لا يطبق طعمه .

— هل انت مجنون ؟ مالك ومال الطين . هل انت

سلحفاة ؟

— لا .. لست سلحفاة .

وسمعت اكبرنا يزق كركلب وهز يموت . وتوقف

اربعة صفار . قال الاول : نحن جميعا قتلناه . فقال

الثانى : لم نقله ولكنه مات وحده . قال الثالث : لن

نقول لاحد والا قتلونا . وبكى الرابع في صمت . بينما

الخامس كان قد مات . وبدأت امرة شفى والاقط مدغ

كمية الطين ، فيصاتها على الشاطئ بقرق ومراة .

وقال المهندس الشاب :

— يبدو ان حالتك سيئة . هل ترغب في مؤوس

اخرى ؟

قلت :

— نعم . لا حقيق طعم الطين . انه في فمي .

— ابصقه اذا كان في فمك .

— لا استطيع . بل انه في دمي .

مشيتا وسعنا الماء خلفنا . وسبقنى الى الباروبيت

في الخارج انظر في الطريق الطويل . ليس هناك شاحنة .

وقلت للمهندس الشاب :

— متى تنتهي من هذا الطريق ؟

— انت ادرى منى بذلك .

— افقد اخر اجل لاتمامه .

— اعتقد انه لن يتم الا بعد شهرين .

— هل يمتد حقا الى موريطانيا ؟

— سمعت ذلك .

— لم بعد صمت :

— لماذا لا يقيمون مدينة هنا في هذا لشاطئ . .

مدينة جميلة ؟

— مثل الادير .

— نعم .

ب ان الارض هنا غراب ولا تلطى شيئا . لماذا مدينة

ساحلية بلا مياه ؟

وشريت ويظرت من خلال الزجاج . وخرج المهندس

الشاب . وتلصق قليلا ولم يعد . انتظرته طويلا واعتقدت

انه سكر . غير انه عاد في الاخير . وعرب على كتفى وقال :

— اشرب ايضا بارايس الورشة .

فصحتك قلت :

— اشرب ايضا ، يا مهندس الورشة .

فصحتك رئيس الورشة ومهندس الورشة مصا .

وعرف رئيس الورشة ان مهندس الورشة ورئيس الورشة

قد شربا كثيرا . شاب طيب ولكنه ليس مغرورا . اعتقد

بادى الامر انه يزوه بنفسه . ولكنه في الواقع لم يكن سوى

انسان بسيط . جعلت منه حياته ذلك الانسان الفاضل ،

والذى يبدو للاخرين انه لا يذهب سوى نفسه . في الواقع

لم يكن يجب الا الاخرين . كان مثقوبا وفامسا . ولم يكن

يشبه كبرنا الا في قتلناه ولم يعرف بموته احد . كبرنا

ونسيتا موته . غير انه حاضر في كل لحظة بالنسبة لى .

وابعدته من ذهنى واتا القول :

— هل تاملنى الى الورشة ؟

قال : — نعم .

وادار العكس . وتوقفنا عند الورشة فانسحب .

ومشيت الى خيمتهم وشريت الشاي في الكاس . وقال

بحرى :

- سي عباس ، هل تلعب الى اولويات ؟
قلت : لا .. سألهم لاكتب رسائل وسلام .
انا تصب .

قال : - سي عباس . لقد سألنا منك .

قلت : - فل لمن سألني . نعم .

وبالر بطن في وجهي وهو يقول :

- سي عباس . نريدك انناي .

قلت : - شكرا . انناي يؤرقني . وانا في حاجة الى النوم . ليلة سعيدة .

وخرجت من الخيمة وتوجهت الى خيمتي . كانت الارض صخرية صلبة . مشيت فوقها ورايت ضوء الولىات البيت الثاني على اليمين . لم اتردد في الفضاء انقسام كالزئبق : زيت ليظ زيت ..

وتوقفت عند باب الخيمة . وبصفت كمية كبيرة من الطين في فمي . واشعلت سيجارة لكي اشوه بها طعم الفيس في فمي . وشيمت رائحة التبغ . لم انا سمعت الضخاد تلتفت . ولعبت واشعلت اللعبة ، فانتشر ضوء خفيف . ويدات اكتب رسالة لامي كي اطمئنها على حالتي .



استيقظت مبكرا ففقد فمير طعم الفيس والطين . خرجت وكانت ملاح من الشمس فقط حوسوفة وزاد الهواء من الارض تشبه تلك التي قرب تاريخيقت . هناك الجبال المرتفعة السامقة وهنا الارض بلا جبال . لكن الصلابة واحدة . والصفوان واللوة متشابهان . وزلزلت في ذلك الصباح الجذر فيسور القويح ، فاستقلت بصفقة نهاليه وايقظتهم ، فخرجوا ولووا ظهورهم وصاروا كالديدان . جاء بروك وطلب ان يهيى شيئا فقلت له ان يفصل . وجاءت الشاحنة لم اختلت . وجر قدور مرية اقلت . ورش العصي الابيض . واخذ البياض يستحيل الى سواد . وكانت مناطق اخرى كثيرة بيضاء ، وفوقها التواديات والتبادات نثمت منها اثاث . وعندما انتصف النهار جاء بحري وهو يقول :

- سي عباس ! ان الولىات قد هيان الطعام .

- ماذا ؟ هل تلتقي عندهم ؟

- اى نعم سي عباس .. لقد تدبرت الامر .

قلت : - لماذا تدبرته وحده ولم تعبرني ؟

قال بحري وهو يتمخض :

- اسمع سي عباس . انت شهاب . والشهبان لا يستشارون في امور مثل هذه .

مشينا نحو الكوريش على الاقدام . ونعت التباديات واحدة توفقت ، وقلت للاحمر ان يهيى قبلي . فامر على ان اعطى وحدي وسيتبعني بعد ذلك . قلت :

- الاحمر .. انها تنظر اليك

- لا .. بل تنظر اليك انت .

- طيب . اذا اصطدنا لا نقتل شيئا .

- لن اقول شيئا .

التربت ونعدت اليها . ونظرت في وجهي تحت الظل . خلف زجاج القفي لم اكن ارى شيئا . سوى الاشباح . وقالت بفضب شديد :

- مثلكم كثروا في الكوريش .

قلت بكبرياء :

- من تقصدين ؟ انا ..

- نعم انت .. من اقص ؟ هيا تعزلا والا خرج لك .

ولم تعزلا . لكني للقت غربة قوية . ورايت الاحمر قداما لي لحظ . ورايت اياي ترتفع وكهوى . وسحبني الاحمر الى الخلف . وقال : « لنسأخذ لكسى ولنهجر الكوريش » . كانت الارض صلبة والاحجار مدمية تحت قدمي . سبكت بحري لاني كنت اعرف اين اسبح . البيت الثاني على اليمين . تولفت ونفست ، وشعرت بالطين في انفي وفمي . وقلت بحري :

- بل لنسبح ما يزال هناك ؟

قال بحري :

- اى نعم .. سي عباس ! وماذا تعتقد ؟ انه كالمعكة ينقل من دماهن .

- هل تعتقد ان الشبح يقوى على الشجار ؟

ضحك بحري ، وباتت اسنانه الطليقة اللاصقة :

- مالك سي عباس ؟ هل قلت منه ؟

ثم استمر في ضحك عنيف :

- قبش مثله لا ينقل ولا يصر . ان لكمة واحدة لنطعه بالجنة فوراً .

ونجست فضلات امية امامي . وعشيت نحو البيت الثاني على اليمين . وقال بحري :

- سي عباس ! نهار جميل !

قلت : - اى نعم . الشمس لم حارة ولا باردة .

قال بحري :

- الولىات التسلن هل تشم رائحة شي ؟

قلت : - نعم . رائحة اللحم الطريخ .

- لا سي عباس . شيء آخر .

- رائحة ابني .

- آوه ، سي عباس . كلنا لنا رواتنا . شي .
آخر .

- راتحة السفرجل الطيوخ .

- لا سي عباس . أنا لا أفسد الطعام .

ثم أخذ يضعك بيستريا . تولفنا لحظة . سمعنا
هدير محرك سيارة قادمة نحو الكيميتين . قال بحري :

- "سيارة الهندس" . ماذا يريد سي عباس ؟ ساذهب
اليه انتظري .

ومشي يركض كحيوان وحشي في الظلام . كانت رجله
اليسرى لتتوازن مع الرجل اليمنى . وظللت انظر اليه وهو
يركض ثم اختفى قليلا . اختفى جزء من جسمه وراء نباتات
خضراء . ولاح جسمه كله . ورايته يحرك يديه ويشيح
الي . حرك الهندس يديه ودخل في سيارته . ثم اختفى .
قال بحري :

- انه يريد ان يقول لك اشياء خاصة . قلت له :
قل لي . فلم يرد قال في السماء سيارك . لا داعي لأن يضايقك
الآن .

ودخلنا ولم نر الشيخ . ووقف بحري وصاح بأعلى
صوته : « فاطمة ! » . وخرجت الصغرى من القبة وكانت
حمرء الوجه . قال بحري :

- أين هو ؟

- ادخل واسكت . قالت .

- أين هو ؟ سي عباس يريد .

قلت بقصبي :

- اسكت بحري لا تريد . من قال لك ذلك ؟

وضحك بحري . ورايت أسنانه المقلقة اللامعة نهتز
ويخرج منها الحليب . حطب أبيبي مقلقل بصغرة . قلت :
« اجمع لعابك لولا ، بحري » . وقال بحري : « سي عباس
.. انه هنا . ابراهن على انه نائم . »

وعندما خرجنا ، تولفت أمام البيت الثاني على اليمين
وتبعت بحري وهو يقول :

- سي عباس . لقد خرج الآن . كان نالما . ألم
الآن لك ؟

- سي عباس . انه كالطاقة يعيش من دهن .

- لا تقل هذا . انه شيخ . ماذا تنتظر من شيخ
ان يفعل ؟

- يقبل أي شي . سي عباس . انه ينام معهن أيضا .

- لا تقل هذا . من حرام عليه .

- آنت لا تعرف شيئا سي عباس . من قال لك هذا ؟

وشبهت نحو الكيميتين . ورايت البولكلدز . وتعاشيت
الفضلات الأدبية . وقال بحري :

- سي عباس . النهار جميل .

قلت : - أي نعم .

- انظر الشمس . سي عباس .

- لا حارة ولا باردة .

فسكت بحري . وانصت :

- انتم ستعملون هذا اليوم . وتوشكون ان تلهوا
الطريق .

- الطريق طويل سي عباس . يقال ان امانا شهرين .

انظر الكيميتين . انهما ليدوان بعيدتين عن مكان العمل .
قلت في قرار حاسم :

- سنتنهن .

قال بحري :

- عندما تنتهي ستأسف على الوليات .

قلت :

- هناك وليسات في كل مكان بحري . حتى في

تاريخيت .

- الأرض متشابهة في كل مكان سي عباس .

- تنظر انها صلية . ومع ذلك ..

- ومع ذلك سي عباس . نحن وطنناها .



وصمت بحرى قليلا . وقبل ان تجاوب العطر الى
الطينين . قال وقد لاحظت اسنائه الخياطة الالامعة :

- هل تدعى سى عباس ؟

- اى نعم .

- لقد رايتك تهتز هذه المرة بنصفك الاسفل فقط .

- رايتك كذلك بحرى . اذهب وقل لهم بعد نصف
ساعة ان يبدأوا العمل سائما .

- لقد كنت تهتز سى عباس . رايتك بعينى هاتين .

قلت ببرود :

- رايتك كذلك . زيت ليط . قل لهم ان يبدءوا
العمل . زيت ليط . بعد نصف ساعة . زيت ليط .

قال بحرى :

- سأقول لهم سى عباس .

ثم مضى ودخل في الطيبة . رايت البولندز رابطة .
والنقل لصبرا مبتدا من حيلتها الجريئين . ورايت القؤوس
متكئة . ورايت البالات مكومة . واخذت اسمع الهدير
مختلجا يزكزلة طيور القويح في الصحراء . وامتد ثم
حزين في المكان .

تمددت لاستريح واخذت الفكر في الشخ المجوز وفي
بحرى . ورايت وجه فاطمة مستديرا أحمر : يسطر الدم
اليه . وشمرت بنصب . ويرغبة في ان انام . تمددت .
والغيت .



نزلت امي الى تحت . ففتحت في التراب تحت جنود
التنماع والبصيل . فشممت رائحته . وفزرت العنفس
والشمع فلفظت الدجانتان وغارنا بسرعة . نزلنا ثم
اجتمعنا . واما لم شربنا الارض بمقاربهما .
اختلفنا ثم عادنا للظهور . حركت امي يديها وقالت :

اش .. كنتكنت . فترفت الدجانتان وغارنا
ولفظنا . اختلفنا ثم عادنا للظهور . فصببت امي الماء في
المراج على التنماع : فلوى التنماع راسه واخرى واخرج
رائحة مشوية . ومنعدما سمعت صوتا في الباحة اطلت
براسي من النافذة . فقلت امي : ان الدجانتين لا يريدان
ان تاللا . انظر التنماع وقد لوى منقه واخضر . فلم
اسمعها جيدا وادخلت راسي وشممت البصيل : ورايت
البولندز ورايت كذلك الدبدان ملتوية تنهب الارض وقد
ابتعدت هذه المرة عن الطينين . ثم جاء بحرى واصطلى
الرسالة ففتحتهما وقرأت ما يلي : « .. ابوك ما يزال
غائبا . انه مسجون ورجل فاس ما عرفت مثله في حياتي
قط . هل يعقل ان يلعب هذه السنوات ولا يزورنا
ولو مرة واحدة فقط . اني احترمه كثيرا يا ابني .
فنتكلم مغفرة ربنا من اجله . » ثم بعيدا عن السطور .

قرأت هذه الايات : « ومن الناس من يعيد الله على
حرف . فان اصابه خير اعدان به . وان اصابته فتنة
انقلب على وجهه . خسر الدنيا والاخرة . ذلك هو
الضران المبين . يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه .
ذلك هو الفسلال البعيد . يدعو من شره القرب من نفعه
ليس ثلوى ولبس الصبح . . وتوقفت الرسالة عند هذا
الحذ . ورايت افساد ابن جارتنا . شأب عنوه يحلف
الآذان ورايت برنده . ولذا غلب منه ان يكتب رسالة اقدم
فيها آية او آيات . يدخل الى البيت ويقرأ القرآن .
يخرج منه ويقرأ القرآن . يردد آيات . ويقول : هذه
في النهي عن التدخين . وهذه في النهي عن تقليد القرب .
وهذه عن تحريم السجنا والافلام الماجنة . كل مالا يرضيه
يردد عليه آية من الايات . ثم قويت الرسالة ورايت عربة
الزفت . وادخلتها في جيبى . فرايت عربة الزفت . كانت
الحجار صفرة نائنة تحت اقدامى . فرايت الزفت اسود
يرش فوق العصى . واجهة فلزت الدجانتان : ورايتها ترش
قانا من المراج على التنماع : فاطللت من النافذة وقلت :

« هات الفداء » وجاء بحرى ولي يده الفاس :

- خير سى عباس .

- خير . بحرى . اتيقة عادية .

- كيف حال الوالدة سى عباس ؟

- بغير .

- حديث سى عباس .

ثم انصتني ينيقا وحار في التراب وارضى فاسه .
واختلى وراء بعلى وانت عربة يد بين لواعي : زيت ليط .
وصصيت التراب . فرايت الدجانتين ورايت الزفت .
وقلت :

- كيف حال قنور ؟

- ما يزال نالما سى عباس .

- ما الذي يؤله ؟

- لا شيء سى عباس . اوه .. كل شيء سى عباس :

- كيف ذلك . كل شيء ؟

- به حمى . في الخليفة لم يعد يطبق العيش هنا ؟

- اعتقد انه به روماتيزم .

- استنورومايزم سى عباس ؟

- الروماتيزم مرض قبيح .

- الله يحفظنا سى عباس . حماء مرتلة وهو يشن

وينكاد يموت .

- بحرى اين الهندس ؟

- جاء قبل لحظة سى عباس . واختلف فجأة . انت

تعرف سى عباس . كالبرق بسرعة ياتي . وبسرعة يعطى .

اخرقت وتحسنت الرسالة في جيبى . وكانت عربة

الزفت ما تزال تسود بياض الطريق . تن عربة اليد في

مكان بعيد . تتل العصى . تن . وقلت من خلال يأس

شديد :

قلت لتساق ان يمسى ، فارتفع غبار بعيد ، وانتشرت
الى ذاك نباتات قصيرة في الارض ، لاصقة بها بلا سيقان ،
التفت نحوهم ، فقلت ان يذهبوا الى معلهم ، جاؤوا ليرى
صديقهم ، قلت بعزم :

- لا شيء ، انه مرضى بالحمى ، يعطونه قرصا صغيرا
فيشفي .

قال بحرى :

- لا اعتقد سى عباس ، الم تر صفته ؟

قلت بعزم :

- الذهب واحمل ، تجعل من الحبة قبة .

تفرقوا ، ثم انحنوا واتروا ، دست الاحجار ، وغاروا
لى كالديجان ، سمعت زيب ليث ، ورايت الدجاج ،
واظلمت من الظلمة ، وقلت : هات الطعام ، وشممت
البصل ، ورايت السنية الملوثة فوق راس امي ، وهي
تحرك يديها ، وتثر العنسى والشعر وتقول بصوت واه :
كنتككتكتكت ، وتلمع السنية مع الشمس ، فارى ابي
ولد غضب واظن وراء الحيتين فيلوح لى البيت الثاني على
اليمن ، ويبدو الحفرات كغنادق فى ساحة القتال ، واسمع
زيب ليث ، الهواه جميل سى عباس ، زيب ليث ، ورايتك
تتترى زيب ليث ، الولاية تريد لو .. زيب ليث ، عنده
حمى ، زيب ليث ، ابها انت ، زيب ليث ، الادهم ؟
ابها انت .

ثم ذهبت وشربت شيئا ، وجلست لى ظل الخيمة
القصير ، وجاء بحرى ونظر لى ساعتى .

- الثانية عشرة سى عباس .

قلت بوضوح :

- هيا تولفوا وتلقوا

- هل تانى معنا سى عباس ؟

- سأتى .

- شكرا سى عباس .

وبجته الى الخيمة الاخرى .

بعد الظهر عادت سياراة الجيب ، اخترقت النباتات
الكثيفة الغظرة ، فطلى هديرها لفضة الانصاف التي تدلت
كالياس ، ذهبت على الفور وتاديت على بحرى فخرجت قنور
والقنيان داخل الخيمة ، وبعجة الخيمة انه مات ، اكتشفه
بروك عنده دخل ليهي ، الشاى ، قال له ان يهرى له شيئا
فلم يجيب ، ثم خرج وهو يركض صاخرا لى وجوها :
« لقد مات ، لقد مات ! » وشقق شهيقا قويا مؤلرا ، ورفع
يده الى رأسه حتى ارتفع قميصه عن بطنه ، وقبل ان
تدخه كنت قد ترددت لى الامر ، هل التكن سائق للدهن ؟
هل تلمعه بلا لائن ، لكن الجمجمة كلها التفت على الدخان
فى النساء ؟ قبل ان يتنظن الجسم ، كان كل واحد يتحمل
مسؤولية نفسه ، عكسا فكرت ، وحفرنا له حفرة بعيدا عن
الطريق ، لم دفناه تحت ضوء اللامبات الاسمعت دون ان
تصل على جثمانه ، لان احدا لم يكن يعرف الصلاة ، لكل
العمال لا يصلون ، ولانا بدورى لم اصل فى حياتى قط ،
ولم يسبق لى ان دخلت المسجد ، اهلنا عليه التراب ، ثم

- اشتغلوا ، ساذبه لاره .
- سى عباس ! نال ان اطبخ له شيئا .
- تعال معي ، لكن كس فى تلك القاذرة القذرة .
- لا سى عباس ، عندنا البراد .

ورايت وقد اصغر ، ارتفعت حماء ، وارتضت
شفتاه واسك يدي وهو يقول لى الم حاد :

- سى عباس ، اموت ، اوصيك ، اوصيك .

ثم سكت واغلق عينيه وفتحهما ، قلت بعزم :

- هيا قنور .. اقمى شيء بسيط ، كل الناس تعرفى
بالحمى .

قال الاخر :

- لكته بتالم سى عباس بكثرة .

قلت : - الام بسيط ، اطبخ الشاى واسكت .
هيا اشمل النار .

قال قنور :

- ليس بسيطا سى عباس بالقدر .. بالقدر الذى ..

قلت : - اشرب شيئا واستعود الى حالك الطبيعية .

- شكرا سى عباس .

واختفيت خارج الخيمة ، كانت برايميل الماء مسطلة
وفارغة ، رايت الزفت ورايت الدجاجين ، شممت البصل
ولجمست الرسالة ، جاء بحرى ، ذهب بحرى ، ارتفعت
الغاس ، وش الزفت ، ابيضت الارضى ، اسودت الارضى ،
فلطقت الدجاجتان ، اطلقت من التافلة ، قلت : الطلاء ،
زلفت طيور القويح ، لاحت برايميل الماء ، زيب ليث ،
تحركت عربات البد ، زيب ليث ، شملت القويح ، زيب
ليث ، ارتفعت حماء ، زيب ليث ، جاء بحرى ، زيب
ليث ، مضى بحرى ، زيب ليث ، توت الاحجار ، زيب
ليث .

مشيت وابعدت قليلا ، كانت اصواتهم بعيدة ،
واولفت وقلت للمهندس :

- ان حاله خطيرة ، هل هناك سيارة جيب عند الفرقة
الاخرى ؟

- نعم ، هناك سيارة ، لكن لانا ؟

- تاخذه الى الرب مستشفى ، المسالة اعوس من
الحمى .

- لائون كيلو مترا كلها ، المستشفى بعيد .

- تاخذه مع ذلك ، ابست معه سائلا تاخذه على الاال
الى هناك ، بعد ذلك يتدبرون امره .

حملناه وشفتاه ترتشان ، القنيان فى الجيب فلان اثينا
شديدا حتى يكي ، قال انه يحس بالبرد ، عد يديه

بارتعاش :

- سى عباس ، اشعر بالبرد ، كل لهم ان يعالجوني .

- لا تفتك ، سيمتتون بك .

- شكرا سى عباس .

ورشنا قبره بالله . * سفلان النان كافيان * قال يرواك .
فتكفل هو يرش القبر * ولم ادر ما الذي كنت افعله انا .
دخلت الى القبة واخذت مفكرة صغيرة وسجلت ما على :

الاسم : فلون علي *

تاريخ الازدياد : 1935 (بلا شور ولا يوم)
مكان الازدياد : اي زغران (جبال الريف)

عدد الاولاد : ...

الرقم :

لم نلثرت في الصلعة المقابلة للمفكرة الصغيرة * وقرأت
فيها - كانت الكتابة بقلم الرصاص - :

1 - معجون للاستنان *

2 - صابون تايد *

3 - سفل ميكا *

4 - كريم للحلاقة *

5 - متفلة *

6 - ... (لا شي) .

تركمت المكان فارغا * لاني سمعت اصواتا خارج
القبة * كان احد يتنادى على لم اتين صوته الا فيما بعد *
فلثرت خارج القبة * وادرت اصبغي في التي لثبتت على
ريح غليظة العشتي * قلت بتعب :

- ما ؟

قال احدهم :

- سي عباس * يجب ان تبحث عن امرأة تهين لنا
لصعة كسكو *

قال آخر :

- ليس الليلة سي عباس * قلت له ان يرحل ذلك
الى الله * العادة تقضي ان يهيا الكسكو بعد وفاة الميت
بليلة *

قال الاول :

- في بعض المناطق سي عباس * يهيا الكسكو في
الليلة الاولى لوفاة الميت *

قال آخر :

- من الافضل ان تهين اليوم * كل حبة كسكو يالف
حسنة *

- اذا هاتم الكسكو اليوم فسوف تذهبون جميع
الحسنة *

قلت بنية حزينة :

- اتلقوا اولاً * اليوم او غدا سواء *

للقال بحري :

- ولكن ايها السادة اين نجد المرأة التي تهين
الكسكو ؟

قالوا جميعا بصوت واحد :

- نعم * اين نجد امرأة ؟

لم بعد لحظة صمت حاسمة * تقدم بحري من اذني
والجميع ينظرون اليه * قالي بصوت متخفي : * الوليات

سي عباس * هل تذهب عندهن ؟ * ولست ادرى كيف
استطاع ان يسمعه الآخرون * فقال صوت المجموعة :

- هذا شي * غير لائق سي عباس * لا يمكن للمعاهرات
ان يصطنعن طعام البيت * سوف يذهبن جميع حسنة *

قال آخر :

- مالك ومال المعاهرات ؟ هل لك دخل اذا اردن ان
يصنعن ذوبوهن ؟

قلت موافقا :

- صحيح * تترك لهن الفرصة كي يصنعن ذوبوهن *
اليس كذلك ؟

للقال بحري :

- سي عباس * اذهب عند الوليات * هاتوا الفلوس
يا جماعة *

قلت وانا اخرج عشرين درهما من جيبى : * غدا !

وانسحب الى الخلف * ورايته يقتفى في ظلام الليل *

كان الضوء باعثة ينبعث من قلب خللي في البيت الثاني
على اليمين * شعرت بكتف من التيب والياس من لا شيء *

دخلت الى القبة ولتشت في اوراقي الخاصة تحت ضوء
الليلة * وقررت - ولست ادرى لماذا ؟ - ان اخذ اجازة

مرضية * كنت احس بضييق المكان * وتغلغل الهواء من حولي
وفكرت ايضا * ولاول مرة * بان هذا عمل لا يليق بي *

وانه يتعين * تصدبت فوق الفراش واخذت استرجع كل
شي * والاذكري احيانا بعض الاشياء التالفة * التي حصلت

لي والتي حصلت لغيري * وترددت كثيرا في اتخاذ قرارى
الطلاق * ولكنني في الصباح حزمت اعمتني * وركبت
الجيب * قال السائق الذي كان يعرفني جيدا :

- يبدو عليك التعب الكثير * سي عباس *

لم اجب * فاضاف :

- عليك ان تستريح قليلا * انت دالفا خارج المدينة
لماذا تنفى نفسك سي عباس ؟ لو كنت مكانك ؟ *

وصمت * فاكملت الجملة لي لتهني * وظللت انمايل
بجواربه عندما تهتز سيارة الجيب * نظرت عن يميني فلم

يكن هناك شيء سوى الظلام القفر * ونظرت عن يساري فكان
هناك السائق * لم نظرت امامي وكان الضياء كذلك *

سيارة الجيب تظفره * وكان هناك ازيز حاد * واصوات
الدجاج والطيور وغريات اليد * ورنين الفلوس وهدير آلة

البولنزر * لم اطلعت من النافذة وصرخت : * هات الفداء *

فطرت الدجاجتان ووقمتا فوق التمتعنا وبغترنا اوراقه *

وسمعت صوتا بجوارى :

- سي عباس * هل ارى ليك الموت الى هذا الحد ؟
كلنا لله *

قلت :

- لا لا .. لا موت ولا اي شيء * لا أبدي .. فقط
أريد راحة *